جونيتشيرو تانيزاكي

فتاة اسمها ناوومي

مكتبة بغداد

ترجمة :
فكري بكر

دار الآداب

جونتشيرو تانيزاكي

فتاة اسمها ناوومي

ترجمة

فكري بكر

دار الآداب - بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٩٠

مقدمة المترجم

فتاة اسمها ناوومي هي أول عمل مهم لجونتشيرو تانيزاكي الذي يعد بحق أبرز روائي ياباني في العصر الحديث. وهذه القصة كانت البداية لسلسلة من الروايات، أصبحت علامة بارزة في تاريخ الأدب الياباني. وقد بدأ نشرها عام ١٩٢٤ أي بعد عام واحد من ذاك الذي وقع فيه الزلزال الهائل، فدمّر مدينة يوكوهاما، التي كان الكاتب يقيم فيها.

فبعد الزلزال انتقل تانيزاكي إلى منطقة كيوتو الأكثر هدوءاً، وفيها كتب روايته الرائعة **الأخوات ماكيوكا** ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨، كما نهل من جذور التراث الياباني، وتخلّى عن اغترابه المصطنع، الذي يبدو جلياً في رواية **ناوومي**، وكتب سلسلة من الروائع، منها **البعض يفضّلون المرقطة** (١٩٢٩)، **التاريخ السرّي لأمير موساشي** (١٩٣٥)، **المفتاح** (١٩٥٦)، **مذكرات عجوز مجنون** (١٩٦١).

ولد جونيتشيرو تانيزاكي في عام ١٨٨٦ في طوكيو، وكانت أسرته تمتلك داراً للطباعة. درس الأدب الياباني في جامعة طوكيو، وكان أول كتاب نشره هو مسرحية من فصل واحد نشرت عام ١٩١٠ في مجلة أدبية ساهم في تأسيسها.

وقد بدأ نشاط تانيزاكي الأدبي في فترة شهدت انتعاشاً في الحركة الإبداعية اليابانية بعد نهاية الحرب الروسية ـ اليابانية في عام ١٩٠٥، حيث العديد من الكتّاب البارزين من أمثال كافو ناجاي ورونوسوكي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكوتاجاوا وتانيزاكي. واستوحى هؤلاء الكتّاب الماضي الياباني ومزجوه بالتقاليد الغربية، فكانت أعمالهم من أروع ما كتب في الأدب الياباني خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن.

وكان تانيزاكي أبرز كتّاب تلك الفترة في تجسيد الصراع بين التقاليد اليابانية، وطرق الحياة الغربية.

وأدّت الحروب الشرسة التي شنّها العسكريون اليابانيون في الثلاثينات من هذا القرن إلى حظر الإنتاج الأدبي، ثم توقّفت كل الكتابات الجادّة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. ولكن بمجرّد أن وضعت الحرب أوزارها، انتعشت الحياة الثقافية، وعاد جيل الكتّاب القديم إلى الإبداع، بجانب الكتّاب الجدد.

وكان تانيزاكي قد بدأ نشر رائعته ذائعة الصيت، **الأخوات ماكيوكا** خلال سنوات الحرب، لكن الأوامر الرسمية صدرت بوقفها، ولم يتمكّن من استكمالها إلّا بعد انتهاء الحرب.

وظلّ تانيزاكي يدبج الروايات حتى عام ١٩٦١ عندما نشر روايته الأخيرة **مذكرات عجوز مجنون**، قبل أن يرحل عن عالمنا في ٣٠ يوليو (تموز) ١٩٦٥.

ورواية **فتاة اسمها ناوومي**، الماثلة بين يدي القارىء، والتي كانت تحمل اسم **عشق الأبله** في نصها الياباني، قبل أن تترجم إلى اللغات الأوروبية، هي قصة بسيطة لكنها ذات مغزى كبير. فبطل الرواية وهو مهندس يسمّى چوچي يقع في غرام فتاة يابانية صغيرة السن لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، ربما لأن ملامحها «غربية»، فيقرّر تربيتها وتعليمها ليصنع منها امرأة غربية عصرية، وهو النمط الذي يهواه. ولكن بعد أن شبّت ناوومي عن الطوق، خرجت عن الخط الذي رسمه لها «چوچي»،

وتحدَّت التقاليد اليابانية بثيابها، وأسلوبها، وسلوكها، بل وراحت ترتمي في أحضان الرجال الغربيين، الذين استهواها أسلوبهم في الحياة، لتتحوَّل بالتدريج إلى وحش، ليس باستطاعة أحد السيطرة على تصرفاته.

هذه هي القصة ببساطة، ولكن ليس هذا كل شيء. فهناك الكثير من المعاني التي يريد أن يقولها تانيزاكي، فالرواية لا تركّز على قضية الكبت الجنسي أو الأوضاع الاجتماعية في اليابان فحسب، بل إنها تحذِّر في الوقت نفسه من قضية غزو الثقافة والتقاليد الغربية.

فالرواية تصوّر عالماً من الشباب الياباني، المندفعين بحماس لتقليد كل ما هو غربي، سواء في طريقة ارتداء الملابس، أو في أسلوب الحياة. وقد صوّر تانيزاكي بأسلوب أدبي رائع شخصيات عديدة في الرواية، تحوّلت حياتهم تماماً، مثل كوماچي وهامادا وغيرهما، فضلاً عن نساء يفخرن بتشدّق بعض العبارات باللغة الإنجليزية، ويضعن الكثير من المساحيق.

ماذا يريد أن يقول تانيزاكي من بين سطور هذه الرواية؟ إن بطل الرواية يكاد يصارحنا بأنه قد أخطأ في اعتناق الأفكار الغربية، بكل ما فيها من جوانب إيجابية وسلبية. فهذه هي زوجته ومحبوبته الوحيدة ناوومي تسقط في أوحالها، وتتحوَّل إلى مسخ مشوّه. بل إنه، هو نفسه، قد تخلّى عن كرامته، وكبريائه، وأذعن، في نهاية المطاف، لكل شروط زوجته بأن يترك لها الحبل على الغارب، وألاَّ تتدخّل في شؤونها الخاصة، وأن يتركها تصادق من تريد.

هنا يحذِّر تانيزاكي من تبنّي مبدأ التغريب على إطلاقه. فالحضارة الغربية، فيها جوانب إيجابية، وأخرى سلبية، وينبغي ألاّ نتأثّر بكل شيء فيها، بل الأهم هو أن نستوعبها أولاً، ثم نختار منها ما يصلح لنا، وما يساهم في تحقيق نهضتنا ورقيّنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهذا التحذير، رغم أن تانيزاكي أطلقه في العشرينات من هذا القرن، إلاّ أنه لم يجد صداه حتى اليوم. فكثير من دول العالم الثالث، خاصة الدول العربية، ترتفع فيها أصوات تدعو إلى انتهاج الأسلوب الغربي بكل حذافيره، وللأسف فإن هذه الأصوات تجد لها صدى بين أوساط عدة في مجتمعاتنا. ورغم كل ما يحدث من سلبيات في هذه المجتمعات نتيجة لتطبيق الأفكار الغربية، دون هضمها، واستيعابها، فإن مثل هذا التيار ما يزال قوياً.

في **فتاة اسمها ناوومي** ضربت البطلة عرض الحائط بكل التقاليد والعادات اليابانية الأصلية، واتجهت إلى تقصير شعرها، واستخدام الأحذية ذات الكعوب العالية، ووضعت المساحيق على وجهها، فشوَّهت جمالها، ودنّست نقاءها.

تكاد ناوومي أن تكون هي اليابان في فترة الإنفتاح على الغرب، فكان التيار عاتياً فدمَّر كل ما واجهه من تقاليد وموروثات، بهدف الوصول إلى العصرية الزائفة.

إن **فتاة إسمها ناوومي** رواية تحتاج إلى قراءة ما بين السطور، لاكتشاف ما أراد أن يحذِّرنا منه تانيزاكي في منتصف العشرينات من هذا القرن، وما زلنا نعاني منه إلى اليوم.

فكري بكر

مقدمة

كان الزلزال، الذي دمَّر طوكيو ويوكوهاما في عام ١٩٢٣، بمثابة نقطة تحوّل مثيرة في حياة جونتشيرو تانيزاكي. فقد عاش، لمدة عام تقريباً، حياة سريعة الإيقاع في بلف ذلك الحي الذي ضمّ معظم الغربيين، وأعطى ليوكوهاما شهرتها كمدينة متحضرة، ثم أجبره الزلزال على الرحيل إلى أوساكا، حيث استقرّ بانتظار إعادة بناء طوكيو ويوكوهاما. ولكنه ظلَّ مقيماً في غرب اليابان على عكس معظم النازحين الآخرين. ورغم أنه زار طوكيو بين فترة وأخرى، إلاَّ أنه لم يستقر هناك قط.

كان تانيزاكي يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً عندما وقع الزلزال، وقد اشتهر ككاتب لقصص ومسرحيات وسيناريوهات أفلام تأخذ طابع المغامرات، وأحياناً الكتابات المثيرة للرعب. ولكن بعد وقوع الزلزال، كتب أول رواية هامة، وهي **ناوومي** (العنوان الأصلي **شيجن نو آمي** وترجمته **عشق الأبله**). وأخرجته هذه الرواية من المنحدر الذي كان يهبط إليه، وحقَّقت له بداية لسلسلة طويلة من الروائع استمر في إبداعها حتى وفاته في عام ١٩٦٥. واليوم فإن **ناوومي** تعد واحدة من بين عملين أو ثلاثة أعمال يشتهر بها تانيزاكي في اليابان.

وتعدّ الرواية، بمثابة تصوير حيّ للثقافة العامة في طوكيو خلال الفترة بين الحرب العالمية الأولى، ووقوع الزلزال: استعراض حفلات الأوبرا، مسارح أساكوسا مراقص حي جنزا، ورغم أن تانيزاكي كان يعد،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحياناً، خلال الثلاثينات والأربعينات من أصحاب المذهب المحافظ في الأمور الثقافية والجمالية، فإنه أحبَّ الثقافة الجماهيرية السائدة في أوائل العشرينات، بحماس حقيقي. وكان مؤمناً إيماناً قوياً بأهمية السينما، فكرَّس معظم وقته خلال عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ في كتابة السيناريوهات لاستديو يوكوهاما. كما أبدى قبوله للرقص في المناسبات الاجتماعية، وسخر من مجموعة المحافظين الذين كانوا يعتبرونه سلوكاً مشيناً. وفيما يلي ما كتبه عن هذا الموضوع في عام ١٩٢٢:

«لقد تعلّمت الشقيقة الصغرى لزوجتي الرقص على يد صديق غربي، ونقلته لبقية أفراد العائلة. وكانت ابنتي، وهي في السابعة من عمرها، أولى تلميذاتها.

وحين مكثت لنحو أسبوع في فندق كاجستين في كسورومي بمدينة يوكوهاما لأدبج بعض الكتابات، اكتشف أن هناك رقصاً متواصلاً، في إحدى القاعات المجاورة لقاعة الطعام، التي كنت أتناول فيها العشاء كل ليلة. بدا الجو مثيراً، فذهبت لأستطلع الأمر. في نهاية المطاف قالت لي المضيفة السيدة هيراوكا: «لِمَ لا تخوض التجربة يا سيّد تانيزاكي؟» ثم راحت تشرح لي أساسيات الرقص، لكنني لم أصل مطلقاً إلى درجة البراعة. ولم أتعلّم الكثير من الأصول، وقبل أن يمضي وقت طويل كنت قد غادرت الفندق. إلا أنني رأيت من الأفضل مواصلة ما بدأته. لذلك فقد بدأت أتلقّى دروساً من أستاذ حقيقي، وهو روسي يدعى فاسيلي كروبن، مقيم في يوكوهاما، ويعطي دروساً بمعدل مرّتين في الأسبوع بالطابق الثاني لأحد المقاهي. وكنت أتلقّى الدروس مع زوجتي، وامرأتين أجنبيتين متزوّجتين، وابنه طبيب في بلف، والرقص أكثر صعوبة بالنسبة للرجال منه بالنسبة للنساء. فالأمر يحتاج إلى نحو شهر حتى تتعلّم النساء رقصة الخطوة الأولى، وفوكس تروت والفالس. ولكن أمضيت أكثر

من شهر ولم أزل في بداية تعليمي لرقصة فوكس تروت. ثم أقبل الصيف، وأصبح الجو شديد الحرارة يصعب فيه أداء التمارين، فتوقّفت عن تلقّي الدروس، إلّا أنني ما زلت أتردَّد دون خجل من وقت لآخر لأرقص في كاجتسين. ولكن ليس لديّ الشجاعة للرقص مع أي شخص لا أعرفه، حيث أدركت من متابعتي للراقصين، أنني أسوأهم. أما كومي [ماساو، روائي؛ ١٨٩١ ـ ١٩٥٢] فهو أكثر جرأة مني. ويقول إنه لم يتلقَّ أيّ دروس، وأن أفضل طريقة للتعلّم، هي الإقدام، والرقص مع مجموعة متنوّعة من الشركاء. وكلما كنت أصغر سناً، تعلّمت على نحو أسرع. ويقول الجميع إن ابنتي أفضل كثيراً منّي.

هل للرقص مضاره؟ ربما تكون له أضرار، ولكن ليس هناك شيء ليست له أضرار. إلا أنني أشعر بأنه صحيّ، لأنني أذهب مع عائلتي: زوجتي، شقيقتي، وابنتي. إنه من غير المنطقي أن يقول الرجال الذين يجلسون في المقاهي إن الرقص مضرّ. فالرقص يجعل الشخص يشعر بأنه شاب مفعم الحيوية والنشاط، وهو أمر يكفي وحده لجعل الرقص أفضل كثيراً من الجلوس في المقاهي. كما إنه ممارسة اقتصادية أيضاً. وسوف ينقاد إليه الشباب وكبار السن على السواء. ولن ترتدَّ عجلة الزمن إلى الوراء، سواء اعتقد الناس بأن الرقص شيء طيب أو سيّء. وبمرور الوقت سيصبح الرقص أكثر انتشاراً، وأنا آمل ذلك».

ويقال إن تانيزاكي استوحى شخصية ناوومي من شقيقة زوجته التي أثارت اهتمامه بالرقص.

كان تانيزاكي لا يبدي حماساً كبيراً تجاه المقاهي، وتعطينا تعليقاته فكرة واضحة عن نوعية المكان الذي عملت فيه ناوومي:

«... أشعر بنفور غريب تجاه المقاهي. والسبب في ذلك هو أنها تبدو مجرَّد أماكن لتناول الطعام والشراب، بينما يكون الطعام والشراب في الواقع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مسألة ثانوية بالنسبة لتمضية وقت طيّب مع النساء. وهذه الأماكن المظللة الغامضة تثير اشمئزازي. لست على يقين مما هي عليه المقاهي الآن [في ١٩٢٩]، ولكن كانت تبدو هكذا عندما كنت أعرفها. فالمقهى مكان للجري وراء النساء، وليس لتمضية وقت طيّب معهن. وأنا لا أجد معنى لتسلية وضيعة ورخيصة مثل ذلك...

لم يكن هناك شيء أحتسيه في المرّات القليلة التي ذهبت فيها بصحبة البعض إلى المقهى. فإذا ما طلبت شاياً، تعلق به رائحة الصدأ، أما البراندي والويسكي فيضاف لهما الماء. ولا أدري ما السبب الذي يجعل زبائن المقهى يتحمّلون ذلك...».

أمّا الظاهرة الأخرى في أوائل العشرينات فهي «الفتاة العصرية» التي قامت، متحدية العادات اليابانية، بتقصير شعرها، واستخدام الأحذية ذات الكعوب العالية، والتردّد على دور السينما، الرقص، ممارسة الرياضة، الانفتاح، الصراحة، والاتجاه إلى الاستمتاع بملذات الحياة. وكانت ناوومي واحدة من ذلك الطراز الأولي للفتاة العصرية.

وأعرب تانيزاكي عمّا يجول في ذهنه من أفكار حول الطابع الغربي الذي أضفته المرأة اليابانية على نفسها، وذلك في مقال نشره عام ١٩٣١ تحت عنوان «الحب والرغبة»:

«لقد أخذ تأثير الأدب الغربي علينا أشكالاً عديدة، لا شك في ذلك. وأحد أهم هذه التأثيرات، من وجهة نظري، هو «إطلاق الحرية للحب»، أو بالتقدّم خطوة أخرى «إطلاق اللجام للرغبة الجنسية». إن أدب أصدقاء مجموعة أنكستون، الذي أزدهر في التسعينات من القرن التاسع عشر، يذكّرنا بكتابات جساكو إيّان فترة توكوجاوا، ولكن مع عالم الأدب، وحركات ميوجو وإنتشار المذهب الطبيعي، نسينا الحذر الذي كان عليه

أسلافنا، الذين اعتقدوا أن الحب والرغبة الجنسية هما من الأمور الوضيعة، وتخلينا عن آداب المجتمع القديم...

وفي الوقت الذي يعكس فيه الأدب عصره، فإن هناك فترات يتحرَّك فيها خطوة للأمام، ويحدِّد الطريق إلى عصر يريده. إن بطلتي روايتي **سانشيرو وجوبيجنسو** [١٩٠٨ و١٩٠٧ بقلم ناتسومي سوسيكي] لم تنحدرا من نساء اليابان القديمة اللاتي كنَّ، وفقاً للمثاليات، رقيقات ومحتشمات، لكنهن مماثلات لشخصيات في رواية غربية. وبينما لم تكن هناك في الواقع نساء عديدات مثلهن في اليابان في ذلك الوقت، فإن المجتمع كان يأمل ويحلم بظهور المرأة اليقظة الواعية بنفسها إن عاجلاً أو آجلاً. وبدرجة أو بأخرى، فإن كل معاصري، الذين حلَّقوا في عالم الأدب، كان لديهم هذا الحلم في شبابهم.

مع ذلك فإن الأحلام والواقع نادراً ما يلتقيان. فارتقاء المرأة اليابانية، المثقلة بقرون من التقاليد، إلى وضع المرأة الغربية يتطلَّب أجيالاً عديدة تتم تنشئتها على الصعيدين الروحي والجسدي. ولا يمكن أن يتحقَّق ذلك في جيلنا. وسأعترف لكم الآن، بأنني كنت في شبابي واحداً من أولئك الذين احتضنوا هذا الحلم المحال تجسيده، وشعرت بوحدة رهيبة عندما أدركت أن حلمي لن يتحوَّل إلى واقع.»

لقد بدأت سلسلة **ناوومي** في مارس (آذار) ١٩٢٤، في صحيفة **أوساكا أساهي**. وقبيل بدء النشر، كتب تانيزاكي.

«... بالنسبة لشخص يكتب ببطء مثلي، فإن كل حلقة تحتاج لعمل يوم كامل. إن كتابة الروايات ونشرها في الصحف عمل مضنٍ... وسواء أحببت ما أكتب أم لا، وسواء شعرت بالإلهام أم لا، فإنني مضطر لكتابة حلقة كل يوم.

ودائماً ما أبدأ الحلقة الأولى وأنا أعتزم تدبيج شيء جيِّد، ولكن، بصفة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عامة، فإن الروايات التي كتبتها في الماضي في الصحف كانت تبدأ جيِّدة، وتنتهي ضعيفة، وذلك لأنني كنت أجبر نفسي على الكتابة كرهاً. لكنني أعددت نفسي لذلك، هذه المرّة، ولا أرغب في أن يتكرّر الشيء ذاته من جديد. وأتوقّع أن يستمر إلهامي وحماسي حتى النهاية.»

وتلقّى القراء من الشباب الرواية بحماس، ولكن الرقابة الحكومية أبدت ارتياحاً أقل، وعزّزت اعتراضات القرّاء المحافظين تحذيرات الرقابة. ورضوخاً للضغوط، أوقفت الصحيفة نشر السلسلة في يونيو (حزيران) ١٩٢٤، بعد أن نشرت الصحيفة سبعاً وثمانين حلقة، لتصل الرواية إلى منتصف الفصل السادس عشر. وكتب تانيزاكي في ذلك الوقت:

«لقد طلبت مني المؤسسة الصحفية، لأسباب خاصة بها، أن أتوقّف عن نشر سلسلة روايتي «ناوومي». وإدراكاً مني لعدم وجود أي بديل في ظل هذه الظروف، فقد أذعنت لطلبها.

مع ذلك، فإن هذه الرواية هي الأثيرة إلى نفسي، في السنوات الأخيرة، وإلهامي في ذروته، وسوف أجد، بأسرع وقت ممكن، مجلة أو صحيفة أخرى أنشر فيها ما تبقّى... وهذا وعد مني لقرّائي.»

وبالفعل، استأنف تانيزاكي نشر السلسلة، بعد خمسة أشهر، في مجلة جوسي، واستكملت دون توقّف إلى أن استكملت فصولها.

ويمكن أن نستنتج من أحداث الرواية أن **ناوومي** ولدت في عام ١٩٠٤، و جوجي في عام ١٨٩١. وكان أول لقاء بينهما في عام ١٩١٨، ليستمر حتى عام ١٩٢٦. وحيث أن الحلقة الأخيرة من السلسلة نشرت في يونيو (تموز) ١٩٢٥، فإن تانيزاكي يكون قد كتب الفصل الأخير من القصة، وقد أوغل في المستقبل نحو عام.

أنطوني تشيمبرز

- ١ -

سأحاول أن أروي حقائق علاقتنا كزوج وزوجة كما حدثت، بكل ما أستطيعه من أمانة وصراحة. من المحتمل أنها علاقة لم يسبق لها مثيل. وروايتي لها سوف تؤمِّن لي سجلاً ثميناً لأحداث لا أريد أن أنساها قط. وفي الوقت نفسه، فإنني على يقين أن قرَّائي سيجدونها مليئة بالعبر. فعندما تطوّرت اليابان لتصبح دولة متحرِّرة، تمازج فيها اليابانيون والأجانب بعضهم ببعض بشغف بالغ، وتغلغلت كل أنواع التعاليم والفلسفات، في المجتمع، وتأثَّر الرجال والنساء على السواء بالطراز الغربي الحديث. وبلا شك، فإن طبيعة الحياة التي كنا نعيشها، ونوع العلاقة الزوجية التي جمعتنا، والتي لم يسمع عنها أحد حتى الآن، ستبدأ في التغيّر بكل جوانبها، تبعاً للتقاليد المتغيِّرة.

وباستعادة الأحداث الماضية، أرى أننا كنا زوجين غريبين منذ البداية. حدث ذلك منذ نحو سبع سنوات، عندما التقيت لأول مرّة بالمرأة التي هي زوجتي الآن، ولكني لا أتذكَّر بالتحديد توقيت ذلك اللقاء. كانت حينذاك مضيفة في مقهى يسمّى «دياموند» بالقرب من بوابة معبد «أساكوسا كانون»، وتبلغ من العمر خمسة عشر عاماً فقط. وكانت قد بدأت العمل لتوّها، كمضيفة ـ مبتدئة قليلة الخبرة، غير ناضجة.

لم أفهم سبب وقوع اختياري على طفلة مثلها، أنا الرجل الذي بلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً. ولكن من المحتمل أن يكون قد شدّني إليها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في البداية اسمها. كان الجميع ينادونها باسم «ناو- شان». وحينما استفسرت عنه في أحد الأيام، عرفت أن اسمها الحقيقي هو ناوومي ويكتب بثلاثة حروف صينية. أثار الاسم فضولي. واعتقدت أنه سيكون رائعاً، إذا ما كتب بحروف لاتينية، بل إنه يمكن أن يصبح كالأسماء الغربية. بدأت أوليها اهتماماً خاصاً. والغريب أنني بمجرَّد أن عرفت أن اسمها بهذه التركيبة المعقّدة، لاحظت أن لها نظرات ذكية ذات طابع غربي، ورحت أفكِّر فيما جعلها تستمر في وظيفتها كمضيفة، في مكان مثل هذا.

في الواقع، كانت ناوومي تماثل في المظهر ممثّلة السينما ماري بيكفورد؛ فثمة ما يوحي بالطبيعة الغربية في مظهرها. لم تكن هذه وجهة نظري أنا فقط، بل إن آخرين عديدين يقولون ذلك، حتى الآن وبعد أن أصبحت زوجتي، عرفت أن ذلك حقيقي. لا يقتصر الأمر على وجهها فحسب، بل إن جسدها أيضاً يبدو غربيّ الملامح، وهي عارية. لم أعرف ذلك سوى في وقت لاحق، بطبيعة الحال. ففي ذلك الوقت، لم يكن باستطاعتي سوى تخيّل جمال أطرافها من الطريقة الأنيقة التي ترتدي بها الكيمونو.

لا أستطيع التحدّث بيقين عن ميولها، خلال الفترة التي كانت تعمل فيها بالمقهى، فليس هناك سوى الأب، أو الأم، أو الأخت، بإمكانه فهم مشاعر فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها. وإذا ما سئلت ناوومي الآن عن ذلك، فقد تقول إنها كانت تتناول كل الأمور بسلبية. مع ذلك بدت للآخرين كفتاة هادئة مكتئبة، تبدو على وجهها إمارات السقم، وقد كساه الشحوب كما لو أنه لوح سميك من زجاج شفّاف عديم اللون. لم تكن قد بدأت في استخدام المساحيق البيضاء، كالمضيفات الأخريات، نظراً لحداثتها في العمل آنذاك، ولم تكن علاقتها قد توطّدت مع زبائنها أو

زملائها بعد. فاعتادت على الإختباء في أحد أركان المقهى، تعمل في صمت وتوتر. وربما جعلها ذلك تبدو ذكية.

والآن يجب أن أقدِّم بعض المعلومات عن شخصيتي. كنت أعمل في ذلك الوقت مهندساً في إحدى الشركات الكهربائية، براتب شهري يبلغ مائة وخمسين يناً. ولدت في «أوتسونوميا» بمقاطعة «توشيجي». وبعد أن أنهيت الدراسة الثانوية، جئت إلى طوكيو، حيث التحقت بالمدرسة الفنيّة العليا في «كوراماي». عُيِّنت مهندساً بعد تخرجي بفترة قصيرة، وكنت أسافر يومياً، باستثناء يوم الأحد، من المنزل الذي أقيم فيه في «شيباجوشي» إلى المكتب في «أويماشي».

كانت الحياة سهلة، فقد كنت أقيم بمفردي في شقة مفروشة، ويدخل جيبي راتب معقول كل شهر. ورغم أنني الابن الأكبر، فلم تكن عليّ أية التزامات تجاه أهلي، ولم أكن مضطراً لإرسال أي مبلغ من المال حيث أن أسرتي تعمل بالزراعة على نطاق واسع. وحين توفي أبي، تولّت أمي وعمتي وخالي كل الأمور، ولم أتحمّل أي شيء على الإطلاق. هذا لا يعني أنني قد استمتعت بحياة صاخبة، سريعة الإيقاع. فقد كنت موظفاً مثالياً، مقتصداً، شغوفاً بالعمل، ملتزماً بقواعده، أؤدّي عملي كل يوم دون أن تبدر مني أية شكوى أو تذمّر. وفي المكتب كنت أنا كاواي چوچي معروفاً بالرجل المهذب «الجنتلمان».

وحتى أجدِّد نشاطي، كنت أذهب في المساء إلى السينما، أو أتجوّل في حي «جنزا» التجاري، أو أسمح لنفسي مرّة بدخول مسرح «أمبريال»، وهذا أقصى ما فعلته. لم أكن أعارض في مرافقة فتاة شابة، خاصة وأنني شاب أعزب. ولكن كنت أخشى الناس، ولم تكن لي صديقات، حيث كان ما يزال بداخلي ذلك الشخص الريفي شديد الارتباك. ولهذا السبب كنت أوصف بالرجل المهذب. مع ذلك فقد كنت رجلاً مهذباً في الظاهر فقط.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فكل صباح، وأنا أستقلّ الحافلة، أو أتجوّل في المدينة، كنت أنتهز أية فرصة للنظر إلى النساء خلسة. وكنت أرى ناوومي أحياناً

لم أكن قد توصّلت إلى رأي بأن ناوومي هي أجمل امرأة في العالم. في الواقع كانت هناك نساء عديدات أكثر جمالاً منها، بين الفتيات اللاتي شاهدتهن وأنا أستقلّ الترام، وفي دهاليز مسرح «أمبريال»، وفي حي جنزا. لم أكن أعرف إذا ما كان مظهرها سيتحسّن، فهو أمر في علم الغيب، فقد كانت في الخامسة عشرة فقط من عمرها، وقد تطلّعت إلى مستقبلها بحذر وقلق. انطوت خطتي الأصلية على تولّي شؤون هذه الصبية، والاعتناء بها، مدفوعاً، من ناحية، بعطفي عليها، ورغبة مني، من ناحية أخرى، بإضفاء قدر من التنوّع على حياتي اليومية الكئيبة، المملّة. فقد كنت أشعر بالضجر من سنوات الإقامة في شقة مفروشة، وتعطشت لقدر من البهجة والدفء في حياتي. تساءلت لماذا لا أقوم ببناء منزل، حتى ولو صغير، أقوم بزخرفة حجراته، وزرع الأزهار، وتعليق قفص للطيور في شرفته المشمسة، وجلب خادمة لإعداد الطعام، وتنظيف المنزل. وإذا ما وافقت ناوومي على القدوم، فإنها ستحل مكان الخادمة والطائر... كان هذا كل ما يدور في ذهني.

قد يتساءل البعض، لِمَ لا أبحث عن عروس من أسرة محترمة، وأؤثّث بيتاً يليق بي؟ الإجابة على ذلك أنني أفتقر ببساطة للشجاعة، التي تجعلني أقدم على الزواج. وهذا يتطلّب تفسيراً مفصّلاً. فقد كنت شخصاً أحكم على الأمور بصورة حصينة، ولا أميل للتصرفات المتهوِّرة، وفي الواقع لم أكن قادراً على اتخاذ هذه الخطوة. مع ذلك اعتنقت آراء متطوِّرة عن الزواج. فالناس تميل عادة إلى اتباع طقوس وعادات معروفة عندما يفاتحهم أحد في موضوع «الزواج». ففي البداية لا بد من وجود «همزة وصل»، تحاول أن تفهم ما يفكر فيه الطرفان. ثم يتم بعد ذلك ترتيب لقاء رسمي

لهما، يعرف باسم «ميامي». وإذا لم يعترض أحدهما على الآخر، يقع الاختيار على وسيط رسمي، ويتم تبادل هدايا الخطوبة، ويُحمل جهاز العروس إلى بيت العُرس. ثم تأتي بعد ذلك زفّة العروس، ورحلة شهر العسل، وزيارة العروس التقليدية إلى أبويها، وسلسلة مملّة للغاية من الرسميات، أمقتها بشدّة. ورأيت أنني إذا ما تزوّجت، فسأفضّل إتمام الزواج بطريقة أبسط وأقل تقيّداً بالشكليات.

في ذلك الوقت، كان هناك عدد كبير من المرشحات، إذا ما أردت الزواج. صحيح أنني من الريف، إلا أنني كنت أتمتّع ببنية جسمانية قوية، سلوك لا تشوبه شائبة، ومظهر مقبول بشكل عام، وأعمل في شركة موثوق فيها. وسيكون أي شخص سعيداً إذا ما قدم لي يد المساعدة. مع ذلك فإنني، في الحقيقة، لا أرغب في أن يساعدني أحد. فحتى لو كانت امرأة رائعة الجمال، فإن «ميامي» أو إثنين لن يكفيا شريكي المستقبل لمعرفة مزاج وشخصية كل منهما. شعرت بمدى حماقة فكرة اختيار شريكة حياتي على أساس انطباع عارض، أو جملة عارضة مثل: «حسنا، بإمكاني العيش مع هذه» أو «إنها تبدو مقبولة». لا أستطيع أن أتماشى مع ذلك. وأفضل طريقة هي أن أجلب فتاة مثل ناوومي إلى منزلي، وأتابعها بصبر وهي تنمو. ثم أقرّر بعد ذلك، إذا ما أعجبتني، أن أتزوّجها. وهذا سيكون كافياً، فأنا لا أهتم بالزواج من ابنة رجل غني، أو من امرأة متعلّمة أنيقة.

علاوة على ذلك، فإن إقامة صداقة مع فتاة صغيرة، ومتابعة تطورها، يوماً بعد يوم. في الوقت الذي نحيا فيه حياة مبهجة هازلة في بيتنا، سيكون لها جاذبية خاصة، مختلفة تماماً عن إقامة منزل حقيقي. وباختصار، فسوف نبني، أنا وناوومي، بيتاً، كما يفعل الأطفال. وستكون الحياة بسيطة مريحة، وليست مضجرة. كانت هذه هي رغبتي. فالمنزل في اليابان الحديثة يتطلّب أن تكون كل خزانة، ووسادة في مكانها الصحيح،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأن تتحدّد بدقة الأعمال اليومية للزوج، والزوجة والخادمة، والحرص على كسب ود الجيران والأقارب الذين من الصعب إرضاؤهم. وكل هذه الأمور ليست مريحة أو مفيدة لموظف شاب، إذ أنها تتطلّب قدراً كبيراً من المال، كما أنها تعقّد الحياة البسيطة. ولذلك وجدت أن خطتي مناسبة لي تماماً.

تحدثت في البداية عن خطتي مع ناوومي، بعد مرور نحو شهرين على تعرّفي بها. وخلال تلك الفترة، كنت أذهب إلى مقهى «ديامونـد» في وقت الفراغ، وأنتهز الفرصة لأتحدّث معها. كانت ناوومي مغرمة بالسينما، وكنا نذهب إلى أحد المسارح في الحديقة، ثم نتوقّف لتناول طعام غربي أو قليل من المعكرونة. ورغم تعدّد هذه المناسبات، فإنها لم تكن تقول شيئاً، وعادة ما ترتسم على وجهها نظرة متّجهمة، لا أفهم منها ما إذا كانت سعيدة أم ضجرة. مع ذلك لم تكن ترفض أية دعوة أوجّهها لها، بل تقول: «ليكن، بالتأكيد». وتتبعني إلى أي مكان أختاره.

لم أكن أعرف ما يدور في ذهنها تجاهي، أو سبب قدومها معي، لكنني افترضت أنها ما تزال طفلة، تنظر إلى الرجال دون شكوك، وأن مشاعرها بسيطة وبريئة. افترضت أنها وافقت على القدوم معي لأنني أصطحبتها إلى العروض التي تحبها، ودعوتها إلى العشاء. ومن جانبي، فقد كنت بمثابة جليسة أطفال، وعم رقيق عطوف. لم أتصرف بأية طريقة أخرى، كما لم أتوقّع منها أي شيء، أكثر من مجرّد ارتباطي بعلاقة معها. وحينما أتذكّر ذلك، تبدو لي تلك الأيام، التي مضت سريعاً كالحلم، مثل القصص الخيالية، ولا أستطيع أن أتمنّى أن نعود مرة أخرى ذلك الثنائي البريء كما كنا.

تعوّدنا أن نقف في مؤخّرة دار العرض، عندما لا نجد مكاناً للجلوس، وكنت أقول لها: هل بإمكانك المشاهدة يا ناوومي؟

فتجيب، وهي تشب على أطراف أصابع قدميها، محاولة الرؤية من بين رؤوس الجمهور في المقدمة: لا أستطيع رؤية شيء.

فأقول لها: لن تتمكّني من المشاهدة بهذه الطريقة. اصعدي فوق الحاجز واستندي على كتفي!

وأساعدها في الصعود، وأجلسها فوق الحاجز. فتتدلّى ساقاها، وتضع يدها فوق كتفي، وتبدو راضية، وهي تحدِّق باهتمام، لتتابع العرض.

وحين أسألها: هل قضيت وقتاً ممتعاً؟

ترد باقتضاب: نعم.

لم تصفِّق مطلقاً، أو تثب فرحة، لكنني كنت أعرف من تعبيرات وجهها، وهي تتابع في صمت، مدى استمتاعها بالأفلام. فعيناها، اللتان يشع منهما الذكاء، تتسعان عن آخرهما، كعيني كلب يقظ، ينصت لصوت آتٍ من البعيد.

ـ ناوومي هل أنت جائعة؟

كانت أحياناً تقول:

ـ لا. لا أريد شيئاً.

ولكن غالباً، حينما تكون جائعة، ترد بدون أي تحفّظ:

ـ نعم.

ثم تختار باقتضاب نوع الطعام الذي تريده، إذا كان غربياً أو معكرونة، عندما أطلب منها الاختيار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢ -

ـ ناوومي إنك تبدين مثل ماري بيكفورد.

قلت لها ذلك ذات مساء، في مطعم على الطراز الغربي، عرجنا عليه، بعد مشاهدة أحد أفلام ماري بيكفورد.

قالت دون أن تبدو على وجهها علامات السرور: حقاً؟

وتطلعت إليّ بفضول، كما لو أنها تسألني عن السبب الذي جعلني أقول ذلك.

قلت بإلحاح: ألا تعتقدين ذلك؟

ردَّت بعدم اكتراث: لا أدري إذا ما كنت أشبهها أم لا، لكن الجميع يقول إنني أبدو أوراسية.

ـ لا يدهشني ذلك. فأنت، أولاً تحملين اسماً غريباً. من الذي منحك اسماً معقّداً مثل «ناوومي»؟

ـ لا أعرف.

ـ ربما يكون أباك أو أمك.

ـ لست متأكّدة...

ـ ما عمل أبيك؟

ـ لا أب لي.

ـ وأمك.

ـ لي أم...

ـ وماذا عن الأخوة والأخوات؟

ـ إنهم كثْر. شقيق أكبر، وشقيقة كبرى، وأخرى صغرى...

أثيرت هذه الموضوعات مرة أخرى من وقت لآخر، ولكن حينما أسألها عن أسرتها، تلوح على وجهها علامات الضيق، وترد بإجابات غامضة.

وعندما نذهب إلى مكان ما معاً، كنا عادة نرتِّب لقاءً في وقت معينٍّ، عند مقعد في الحديقة، أو أمام معبد «كانون». وكانت تأتي دائماً في الميعاد، ولم تتخلَّف مطلقاً عن موعد بيننا. وكنت أحياناً أصل متأخِّراً لسبب أو آخر، وأتوقَّع أن تكون قد عادت إلى بيتها، ولكني كنت أجدها في المكان المتفق عليه، تنتظر وصولي.

ـ آسف يا ناوومي. هل انتظرت لفترة طويلة؟

فترد، وقد لاحت على وجهها علامات الاستياء، أو الغضب: نعم.

وفي إحدى المرَّات، اتفقنا على الالتقاء عند أحد المقاعد بالحديقة، وبدأ المطر ينهمر فجأة. تساءلت ماذا ستفعل. وعندما وصلت إلى المكان، تأثَّرت حينما وجدتها جاثية تحت افريز ضريح بجوار البركة، بانتظاري.

وكانت ترتدي في هذه المقابلات كيمونو من الحرير مهترئاً من كثرة الاستخدام، من المحتمل أن تكون قد اقترضته من أختها، وقد تمنطقت فوقه بحزام من الموسلين متعدّد الألوان. وتصفِّف شعرها بطريقة تقليدية تتناسب مع سنها، وتغطي وجهها بقليل من المساحيق البيضاء، وتضع قدميها الصغيرتين في جوربين يابانيين، لونهما أبيض، تغطيهما الرقع، ومع ذلك يتسم مظهرها بالأناقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحين أسألها عن سبب تصفيف شعرها على الطريقة اليابانية في أيام العطلات، تقول ببساطة: لأنه يشعرني بأنني في بيتي. ولا تقدِّم لي، كعادتها، تفسيراً متكاملاً.

وكثيراً ما كنت أكرِّر على مسامعها، عندما يتأخَّر الوقت، بأنني سوف أصطحبها إلى البيت. لكنها ترد دائماً قائلة: لا. بإمكاني العودة بمفردي. إنه ليس ببعيد. وعندما نصل إلى زاوية حديقة ملاهي «هاتاياشيكي» تودِّعني، وتهرع باتجاه حارات «سنزوكو». كدت أنسى. فليست هناك حاجة للإسهاب في استعراض أحداث تلك الأيام، ولكن جرى بيننا حديث عاطفي رقيق وقتها.

ففي مساء دافيء، في نهاية شهر ابريل (نيسان)، تساقط مطر خفيف، وكانت الحركة ضعيفة في المقهى، فساد الهدوء. جلست لفترة طويلة أمام الطاولة، أحتسي مشروباً. جعلني ذلك أبدو مثل سكير عتيد، لكني في الواقع نادراً ما أشرب. ولتمضية الوقت، طلبت مشروباً عبارة عن شراب مُسكر معد من خمور مختلفة، من النوع الذي تحتسيه النساء، ورحت أحتسيه ببطء، رشفة في كل مرة.

حينما أحضرت ناوومي الطعام لي، سألتها، وقد جعلني الشراب أتجرَّأ على دعوتها:

ـ ألا تجلسين بجانبي دقيقة؟

ـ ما الأمر؟

وجلست طائعة بجانبي، وأشعلت عود ثقاب، حينما أخرجت سيجارة من نوع «شيكيشيما».

ـ هل لديك وقت للتحدث بضع دقائق؟ لا يبدو أنك منشغلة كثيراً الليلة.

ـ قلَّما يحدث ذلك.

ـ هل تكونين منشغلة دائماً؟

ـ نعم.

ـ ماذا تقرأين؟

ـ أتصفَّح جميع أنواع المجلات، وأقرأ أي شيء.

إذا كنت تهوين القراءة إلى هذا الحد، فيتعيَّن عليك أن تلتحقي بمدرسة البنات.

قلت ذلك عن عمد، وتطلَّعت إلى وجهها. ربما تكون قد شعرت بالانزعاج، فرفعت أنفها لأعلى، وأخذت تحدِّق في الفراغ، لكن نظرة عينيها الحزينة اليائسة، لا يمكن أن يخطئها أحد.

ـ ناوومي، هل ترغبين حقاً في التعلم؟ إذا كان الأمر كذلك، فبإمكاني مساعدتك.

ظلَّت على صمتها، فواصلت. قائلاً بلهجة أكثر مرحاً:

ـ هلمي تكلَّمي الآن. ماذا تريدين أن تتعلَّمي؟

ـ أريد أن أتعلَّم الإنجليزية.

ـ الإنجليزية... أهناك أي شيء آخر؟

ـ الموسيقى.

ـ إذن يجب أن تذهبي إلى المدرسة. سوف أدفع مصاريف تعليمك.

ـ لكن، لقد تجاوزت مرحلة الذهاب إلى مدرسة البنات. إنني أبلغ من العمر خمسة عشر عاماً.

ـ خمسة عشر عاماً ليست بالسن المتقدِّمة بالنسبة للفتيات، على عكس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البنين. وإذا كنت تريدين تعلّم اللغة الإنجليزية والموسيقى فقط، فأنت لست بحاجة للذهاب إلى المدرسة. بإمكاننا تدبير معلّم. ما رأيك في ذلك يا ناوومي ـ أتريدين المضيّ في ذلك بجدّية؟

ـ نعم... أتفعل ذلك من أجلي حقاً؟

ـ نعم. ولكن لن يكون بإمكانك مواصلة العمل هنا. هل يناسبك ذلك؟ إذا ما كنت على استعداد لترك هذا العمل، فإنني سوف أعتني بك، وسأتحمّل المسؤولية كاملة في تعليمك لتصبحي شابة رائعة.

قالت بدون أي تردّد:

ـ نعم، سيكون هذا شيئاً رائعاً.

أذهلني ردها السريع الواضح، فسألتها:

ـ أيعني ذلك أنك ستتركين وظيفتك؟

ـ نعم.

ـ قد يكون ذلك قراراً صائباً بالنسبة لك يا ناوومي، ولكن ينبغي أن تأخذي رأي أمك وأخيك.

ـ لست بحاجة لأخذ رأيهما. إنهما لن يقولا شيئاً.

هكذا قالت، لكنني كنت على يقين بأنها كانت أكثر قلقاً مما بدت. فقد تظاهرت بأنه ليس هناك ما يستحق القلق، حتى لا تضطر لرواية أشياء تخص شؤون أسرتها الداخلية. لم أرغب في استطلاع الأمر، حين مانعت في ذلك، ولكن لتحقيق رغباتها، كان ينبغي عليّ الذهاب إلى منزلها، وبحث الأمور بدقة مع أمها وأخيها. وعندما أخذت خططنا تحقق قدراً من التقدّم، ألحيت عليها مراراً لتعرّفني بأسرتها، لكنها أبدت فتوراً غريباً. وأصرّت على القول بأنه ليس هناك ما يدعو لمقابلتها، وأنها سوف تتحدّث معهما بشأني.

لم يكن هناك سبب يدعو أي إثارة لغضب ناوومي بمناقشة خلافاتها مع أسرتها. إنها زوجتي الآن، ومن أجلها، ومن أجل اسم «السيِّدة كاواي» حسن السمعة، فإنني قرَّرت عدم الخوض في هذا الموضوع قدر الإمكان. ولكن سيثار كل شيء في أحد الأيام، وحتى إن لم يثر، فسيكون باستطاعة أي شخص التخمين عن طبيعة أسرتها، إذا ما أدرك أن بيتها في «سنزوكو»، وإنها قد اضطرت للعمل نادلة في مقهى، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، ولا تريد أن يعرف أحد المكان الذي تقيم فيه. وليس الأمر قاصراً على ذلك فقط بل عندما انتصرت، في نهاية المطاف، والتقيت بأمها وأخيها، وجدت أنهما غير مهتمين بأمر فتاتهما وعفّتها. قُلت لهما إنه سيكون أمراً يدعو للأسف إذا ما ظلَّت تعمل في المقهى، وهي ترغب في التعلّم. وسألتهما إذا كان بإمكانهما أن يعهدا بها إليّ. ليس هناك الكثير الذي أستطيع تقديمه لها، ولكنني في حاجة إلى خادمة، وإذا ما قامت بأعمال طهي الطعام والتنظيف، فإنني سأحاول إتاحة الفرصة لها للتعلّم في أوقات الفراغ. شرحت لهما بصراحة ظروفي، وإنني ما زلت أعزب. وعندما تقدّمت برغبتي، جاءني ردّهما مفاجئاً:

ـ سيكون هذا رائعاً بالنسبة لها.

أدركت عندئذ صدق قولها، بأنه ليس هناك ما يدعو للالتقاء بهما.

رحت أفكِّر في أن العالم يشارك بدور في وجود الآباء، الذين لا يتحمَّلون أية مسؤولية، لكن الأمر كان بالنسبة لي أن حالة ناوومي أكثر الحالات المؤثرة التي تدعو للشفقة. تكوَّنت لديّ فكرة، مما قالته أمها، بأن ناوومي حالة أكبر من أن تستطيع الأسرة التعامل معها. فقد قالت أمها لي: إننا كنا نعتزم أن نجعلها من فتيات الجيشا، لكنها لم تبد اهتماماً، لذلك فقد اضطررنا لإرسالها إلى المقهى. لم يكن باستطاعتنا تركها تواصل لهوها. لقد أدركت أنهم سيشعرون بالارتياح إذا ما تحمَّل شخص آخر مسؤوليتها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتولّى تربيتها. فهمت في نهاية المطاف بعد حديثي مع الأسرة، سبب ذهاب ناوومي دوماً إلى دور العرض في أيام العطلات، فقد كرهت البقاء في البيت.

مع ذلك، فإنه لحسن الحظ بالنسبة لي وناوومي أنها قد جاءت من مثل ذلك البيت. فبمجرّد توصلي إلى نوع من التفهم مع أسرتها، كانت تستأذن من عملها بالمقهى، لنخرج سوياً للبحث عن بيت مناسب للإيجار. كنا نريد مكاناً مناسباً قدر الإمكان لموقع عملي في «أويماشي». وكنا نلتقي أيام الآحاد، في وقت مبكر من الصباح عند محطة «شيمباشي» ـ أمّا بقية أيام الأسبوع، فكنا نلتقي في «أويماشي» بعد انتهاء عملي مباشرة ـ لتمشيط الضواحي في كاماتا، أوموري، شيناجاوا وميجورو، وفي المدينة، والمنطقة المحيطة بتاكاناوا، تاماشي، وميتا. وعند العودة، كنا نتناول العشاء معاً، ونشاهد فيلماً أو نتنزه في منطقة «جنزا» إذا ما سمح الوقت. ثم تعود إلى بيتها في سنزوكو، وأعود إلى شقتي المفروشة في شيباجوشي. واستمر الحال بنا على هذا المنوال لنحو أسبوعين. وكانت البيوت المعروضة للإيجار في تلك الفترة نادرة، ووجدنا صعوبة في العثور على مبتغانا.

لو أن شخصاً قد لاحظنا، فماذا كان سيظن وهو يرى موظفاً وفتاة ترتدي ملابس متواضعة، تصفِّف شعرها على الطريقة اليابانية، يسيران جنباً إلى جنب بشوارع ضاحية أوموري، التي تنتشر فيها الخضرة، في صباح يوم أحد مشرق من شهر مايو (أيار)؟ كنت أناديها «ناوومي» بينما تناديني «سيِّد كاواي». كان من السهل أنه يخمِّن كل من يرانا أننا سيِّد وخادمة، أخ وأخته، رجل وزوجته، أو صديقان. ولكني أعتقد أننا كنا نشكل نموذجاً غير متكرّر للأزواج، إذ أن التعامل بيننا كان يشوبه بعض الحياء، نسير سعيدين طوال اليوم، نبحث عن العناوين، ونحدِّق في المناظر حولنا، وننظر إلى الأزهار اليانعة في موسم الربيع وسط سياج الأشجار، أو

في حديقة، أو على جانب الطريق. ذكّرتني الأزهار بحبها للزهور الغربية ومعرفة أسمائها الإنجليزية المزعجة، غير المألوفة لي، التي من الواضح أنها تعلّمتها في المقهى، حيث كانت مسؤولة عن أصص الزهور. كنا أحياناً نرى بيتاً زجاجياً لزراعة النباتات، خلف إحدى البوابات التي نمرّ من أمامها، فتتوقّف وقد تنبّهت حواسها، وتصبح في سعادة: آه، ما أجمل هذه الأزهار!».

ـ ما هي الأزهار التي تفضلينها عن دونها، يا ناوومي؟

ـ أحب الزنابق كثيراً.

يبدو أن تعطشها للحدائق والحقول مترامية الأطراف، وحبها للأزهار يأتي كرد فعل لأزقة «سنزوكو» الضيّقة التي ترعرعت فيها. وكانت كلما رأينا أزهار الڤيوليت، الهندباء البريّة، اللوتس، أو زهور الربيع تنمو فوق رابية، أو على طريقة ريفيّة، تهرع نحوها وتقطفها. وفي نهاية اليوم، تكون قد جمعت العديد من الزهور، وصنّفتها في باقات، وتبقى حريصة عليها طوال رحلة العودة.

ـ لقد أصبحت ذابلة. لماذا تحتفظين بها؟

ـ سوف تنتعش إذا ما وُضعت في الماء. يتعيّن عليك أنِ تضعها فوق مكتبك، يا سيّد كاواي.

وكانت تعطيني دائماً الباقات، عندما نفترق في نهاية اليوم.

واستمر بحثنا، حيث لم يكن من السهل العثور على بيت مناسب. وفي نهاية المطاف، استأجرنا بيتاً متواضعاً على الطراز الغربي، يجيء بعد اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة بناية من محطة «أوموري»، بالقرب من الخط الكهربائي الوطني. كان حديثاً وبسيطاً، ومن النوع الذي يصفه الناس هذه الأيام بالبيت العصري، رغم أن الوصف لم يكن شائعاً في ذلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوقت. كان أكثر من نصفه مغطّى بسقف منحدر مكسو بألواح أردوازية حمراء. وجعلته الجدران البيضاء من الخارج يبدو مثل علبة ثقاب، وله نوافذ زجاجية في مواضع عديدة من الجدران، بالإضافة إلى فناء صغير عند المدخل المسقوف، وبدا البيت صالحاً كنموذج للرسم، وليس للسكن، وهو أمر لا يثير الدهشة، إذ أن الذي شيَّده كان فناناً تزوَّج من إحدى موديلاته، وقد توزعت حجراته بطريقة غير متناسقة أبداً. ففي الطابق الأرضي مرسم رحب على نحو غريب، ودهليز ضيِّق، ومطبخ ـ ولا شيء غير ذلك. وفي الطابق العلوي توجد حجرتان صغيرتان، على الطراز الياباني مساحتهما ست أقدام في تسع أقدام، وتسع أقدام في تسع على التوالي. كانا بمثابة مستودعين لا منفعة منهما وللوصول إليهما يتعينَّ ارتقاء سلّم خشبي في المرسم. وبعد ارتقاء السلّم، يواجه المرء أرضاً محاطة بدرابزين، تماثل صندوقاً في المسرح، يمكن منها النظر إلى أسفل على المرسم.

أثار البيت ابتهاج ناوومي، منذ الوهلة الأولى، وقالت:

ـ يا له من بيت عصري! إنه الطراز الذي أريده.

وعندما لاحظت مدى سرورها، قرَّرت في الحال استئجاره.

لم يكن هناك شك في أن تصميمه الغريب ـ الذي يبدو مثل لوحة في قصة خيالية ـ هو الذي أثار فضول ناوومي الطفولي، رغم ترتيب الحجرات غير العملي. ومن المؤكّد أنه يصلح لزوجين يريدان الحياة المرحة، وتجنّب الوقوع في شرك البيت التقليدي. ولا شك أن هذا النوع من الحياة هو الذي وضعه الفنّان وموديلته في الاعتبار، عندما اختارا الإقامة في المنزل. وفي الواقع فإن المرسم في حد ذاته كان رحباً بالقدر الذي يلبّي احتياجات شخصين.

- ٣ -

كان الوقت في أواخر مايو (أيار)، عندما توليت مسؤولية ناوومي بالكامل، وانتقلنا إلى البيت، الذي يحاكي بيوت القصص الخيالية. أدركت، حين أقمت فيه، خطأ اعتقادي بعدم ملاءمته. فالحجرات الضيِّقة كانت تدخلها الشمس، وتطل على البحر، والفناء الأمامي يتعرَّض أيضاً لأشعة الشمس، ويصلح تماماً لزراعة الزهور. وكانت أصوات القطارات تتردَّد بين فترة وأخرى، على خط السكك الحديدية القومية، ولكن حقل أرز صغيراً امتدّ بين البيت والقضبان فقلَّل من الضجيج. وجدت في النهاية أنه مكان مناسب تماماً للإقامة. الأكثر من ذلك أن الإيجار يعد منخفضاً على نحو مدهش. بل إن إيجاراً في تلك الأيام، التي تمتاز بانخفاض الإيجارات، يبلغ عشرين ييناً في الشهر، بدون تأمين، كان يمثل عنصر جذب مهم بالنسبة لي.

قلت لها في اليوم الذي انتقلنا فيه إلى المنزل:

ـ يا ناوومي من الآن فصاعداً، ناديني باسم «چوچي» وليس «السيّد كاواي» ولنعش معاً كصديقين، اتفقنا؟

أحطت أسرتي علماً، بطبيعة الحال، بأنني تركت شقتي المفروشة، وانتقلت إلى بيت استأجرته، وأنني عثرت على فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، لتقوم بخدمتي، ولكنني لم أقل إننا سنعيش معاً «كصديقين». كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نادراً ما يأتي أقاربي من الريف لزيارتي، وإذا ما وجدت في يوم من الأيام ضرورة لإبلاغهم، فإنني كنت سأفعل ذلك.

قضينا أياماً عديدة مفعمة بالعمل والسعادة، نقوم بشراء الأثاث الملائم لبيتنا الجديد الغريب، وتوزيعه على الحجرات المختلفة. وكنت أستشير ناوومي في كل شيء تقريباً قبل ابتياعه، حتى أساعدها على تطوير ذوقها، وأطبق أفكارها كلما أمكن ذلك. لم يكن هناك مكان لوضع أشياء منزلية عادية، مثل الخزانات والأواني النحاسية، في منزل كهذا، لذلك فقد كنا أحراراً في اختيار الأشياء، تنفيذ التصميمات التي تستهوينا. ابتعنا بعض الأقمشة الهندية زهيدة الثمن، وقامت ناوومي، بقصّها وحياكتها، بأصابعها غير الخبيرة، لتصبح ستائر. عثرنا في أحد محلّات شيباجوشي، المتخصصة في الأثاث الغربي، على مقعد قديم من خشب الروطان، أريكة، كرسي، وطاولة، ووزعنا كل هذه الأشياء في أركان المرسم. وعلّقنا على الجدران صور ماري بيكفورد، والعديد من ممثّلات السينما الأميركية. كنت أرغب أيضاً في تأثيث حجرة نوم على الطراز الغربي، لكني تخلّيت عن الفكرة، لأن ابتياع فراشين سيكون مكلفاً، وكان بإمكاني الحصول على حجرة نوم يابانية من بيتي في الريف.

وعندما وصل فرش حجرة نومها، بدا من النوع الذي تستخدمه خادمة: لحاف متصلّب من القطن، رفيع وخشن، مثل إحدى الفطائر الرقيقة الجافة، مطرّز بالمنمنمات. شعرت بالأسف حيالها، وقلت لها:

ـ هذا لن يفيدك. سأعطيك لحافي، وسأستعمل أنا هذا.

ـ لا. إنه مناسب.

وتغطّت به بعد أن استلقت بمفردها في الحجرة، التي تبلغ مساحتها ست أقدام في تسع.

نمت في الحجرة المجاورة التي تبلغ مساحتها تسع أقدام في تسع، ولكن كل منا كان ينادي الآخر من حجرته، دون أن ينهض.

ـ يا ناوومي، هل استيقظت؟

ـ نعم. ما الوقت الآن؟

ـ السادسة والنصف. هل أطبخ لك الأرز هذا الصباح؟

ـ أتفعل؟ لقد قمت بذلك أمس، وعليك أنت أن تقوم بذلك اليوم.

ـ حسناً. ولكنه يسبِّب لي الكثير من المتاعب. هل نطبخه مع الخبز؟

ـ باستطاعتنا ذلك. لكنك تحاول التملّص من واجبك يا چوچي.

عندما كنا نريد تناول الأرز، نقوم بطهيه في وعاء خزفي، نضعه مباشرة على المائدة، دون أن نكلِّف أنفسنا عناء إفراغه في طبق خشبي. وكنا نأكل بجانبه شيئاً من المعلبات المحفوظة. وفي حالة عدم توافرها، فإننا نأكل معه الخبز، والحليب والمربى، أو شريحة من الفطائر الغربية. أمّا العشاء فكان عبارة عن معكرونة، وإذا أردنا إضفاء قدر من الرفاهية على حياتنا، نذهب إلى مطعم غربي في الجوار.

كانت غالباً ما تقول لي:

ـ يا چوچي، أريد شريحة من اللحم اليوم.

وبعد الإفطار، أتركها بمفردها، وأذهب إلى العمل، لتقضي هي فترة الصباح في التريّض وسط الزهور، وفي الأصيل تغلق البيت، وتمضي لتلقّي دروسها في اللغة الإنجليزية والموسيقى. وتذهب كل يومين إلى «مجيرو» لتتعلّم المحادثة والقراءة الإنجليزية مع امرأة أميركية تدعى «الآنسة هاريسون»، فقد كنا نعتقد أنه من الأفضل أن تبدأ تعلّم اللغة مع مدرِّسة غربية. وفي المنزل كنت أساعدها في استرجاع نقاط ضعفها في الدروس. لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكن لديّ فكرة عما يمكن عمله بالنسبة لدروس الموسيقى، لكننا سمعنا بامرأة، خريجة حديثة في مدرسة للموسيقى في «أوينو» تعطي دروساً في البيانو والأصوات بمنزلها في «اساراجو» في «شيبا وورد» فذهبت ناوومي إليها لتتلقّى درساً لمدة ساعة يومياً. بدت مثل تلميذة، وهي ترتدي تنورة رسمية من الكشمير ذات لون أزرق داكن، فوق كيمونو من الحرير، وجوربا أسود، وتنتعل حذاء صغيراً فاتناً. كانت تنطلق، مفعمة بالانفعال، وهي ترى حلمها يتحقّق، لتتلقّى دروسها باجتهاد. كنت أمرّ عليها، من حين إلى آخر، وأنا في طريقي إلى المنزل، ولم أعد أصدِّق أنها قد تربَّت في «سنزوكي» وعملت نادلة. لم تعد تصفِّف شعرها على النمط الياباني، بل راحت تعقصه، وتربطه بشريطة.

أعتقد أنني ذكرت من قبل أنني «سأحتفظ بها مثل طائر صغير». ومنذ أصبحت تحت مسؤوليتي، تحسَّن لون بشرتها، وتغيَّر مزاجها بالتدريج، حتى باتت الآن كطائر صغير تشعُّ منه الحيوية والنشاط، وكان المرسم الرحب هو قفصها. قارب شهر مايو على الانتهاء، وبدأنا نشعر بطقس أوائل الصيف المشرق. ازدادت الزهور في الحديقة طولاً، وتعدَّدت ألوانها يوماً بعد يوم. وفي المساء، عندما أعود إلى البيت من عملي، وتعود هي من دروسها، تتخلَّل أشعة الشمس الستائر ذات الطباعة الهندية، وتتلاعب فوق الجدران البيضاء، كما لو أن الوقت ما يزال ظهراً. كانت ناوومي، التي تنتعل خفّين في قدميها العاريتين وترتدي كيمونو صيفياً خفيفاً، تمضي الوقت في شدو الأغاني التي تعلَّمتها، وأحياناً ما تلعب معي لعبة المطاردة أو الغميضة، فتجري حول المرسم، وتقفز فوق الطاولة، وتنكمش تحت المقعد، وترتقي السلّم بسرعة، ثم تعدو هابطة وهكذا. وفي إحدى المرَّات تقمّصت دور الحصان، وأخذت أزحف في أنحاء الحجرة، وهي فوق ظهري، وقد جعلتني أضع منشفة في فمي مثل اللجام.

وفي أحد الأيام ونحن نمارس هذه اللعبة. انفجرت في نوبة ضحك، ثم راحت تعدو صاعدة السلّم بسرعة فائقة، لكنها فقدت اتزانها، وسقطت من فوق السلّم إلى أسفل، وأخذت تبكي.

قلت لها: دعيني أرى مكان إصابتك.

وعندما رفعتها من الأرض، أخذت تشهق، وسحبت كمها لتريني إصابتها. لا بد وأن مسماراً أو شيئاً مماثلاً قد جرحها عندما سقطت، فقد خدش جلدها عند كوعها الأيمن، وراح الدم ينزف، ولكن ليس بغزارة.

قلت لها: هنا. إنه لا يستحق كل هذا البكاء. سوف أضع لك ضمّادة.

وضعت نوعاً من المرهم، ومزّقت منشفة لأستخدمها كضمّادة. أخذت تنتحب مثل طفل صغير طوال الوقت، وأغرورقت عيناها بالدموع، وتقطّر الرزاز من أنفها. لكن الجرح تلوّث، لسوء الحظ، واستغرق خمسة أو ستة أيام ليلتئم. كنت أغيّر الضمادة كل يوم، وكانت تبكي في كل مرّة أقوم فيها بذلك.

هل وقعت فعلاً في غرامها؟ لست متأكّداً من ذلك. على فرض أنني أحببتها، إلّا أن نيّتي كانت متجهة لتربيتها، كي تصبح شابة رائعة، مما كان يشعرني بالبهجة، وأعتقد أنني كنت راضياً بهذا الدور، ولا شيء أكثر منه.

ولكن في ذلك الصيف، عندما ذهبت إلى بيتي، مثل كل عام، لأمضي عطلتي، التي تستمر أسبوعين، في الريف، تاركاً ناوومي مع أسرتها في «أساكوزا» بعد أن أغلقت البيت في «أوموري»، اكتشفت أن أيامي في الريف مملّة على نحو لا يطاق، ووجدت نفسي وحيداً. تساءلت بيني وبين نفسي: أيمكن أن تصبح حياتي بدونها مملّة إلى هذا الحدّ؟ لقد أدركت للمرّة الأولى أنني أمرّ بتجربة بدايات الحب. اعتذرت لأمي، وعدت إلى طوكيو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل انتهاء إجازتي. وصلت بعد الساعة العاشرة مساء، وانطلقت بسيارة أجرة من محطة «أوينو» إلى بيت ناوومي، رغم تأخّر الوقت.

ـ يا ناوومي. لقد عدت. هلمّي نذهب إلى أوموري. معي سيارة تنتظر عند الناصية.

ـ سوف أكون جاهزة في غضون دقائق.

انتظرتها عند الباب، حتى خرجت حاملة صرّة صغيرة. كانت ليلة شديدة الحرارة والرطوبة، ارتدت ناوومي كيمونو خفيفاً أبيض من نسيج «الموسلين»، وعقصت شعرها بشريطة عريضة قرنفلية اللون. كنت قد ابتعت لها نسيج الموسلين في إحدى المناسبات، وطلبت من أحد الخياطين حياكته أثناء فترة غيابي. سألتها، حينما جلست بجوارها في السيارة، التي انطلقت نحو الطريق العام، الذي يموج بالحركة:

ـ ماذا كنت تفعلين كل يوم يا ناوومي؟

ـ كنت أذهب يومياً إلى العرض.

ـ إذن لم تشعري بالوحدة، أليس كذلك؟

فكّرت للحظة، ثم أجابت:

ـ ليس تماماً.

ثم استطردت:

ـ لقد عدت قبل موعدك، أليس كذلك يا چوچي؟

ـ شعرت بالملل في الريف، لذلك قطعت إجازتي وعدت. ليس هناك مكان يماثل طوكيو.

ثم تنفّست بارتياح، وحدّقت من خلال النافذة في الأضواء المرحة المتلألئة للمدينة أثناء الليل.

ـ لكنني أعتقد أن الريف في فصل الصيف يكون رائعاً.

ـ ذلك يعتمد على المكان. إن أسرتي تقطن في مزرعة نائية، والمشاهد حولها مملّة، ولا يوجد بها أماكن للترفيه، ويئزّ الذباب والبعوض في وضح النهار، كما أن الجو حار بشكل لا يطاق.

ـ آه يا عزيزي. لهذا الحد؟

ـ نعم.

قالت بشكل مفاجيء، وبطريقة تنمّ عن الإلحاح، مثل طفل يصرّ على طلبه:

ـ أريد الذهاب إلى الشاطىء.

ـ حسناً. سأصطحبك في يومّ قريب إلى مكان تشعرين فيه بالانتعاش. ما رأيك في «كاماكورا»؟ أو «هاكوني»؟

ـ أفضِّل المحيط على أحد الينابيع الساخنة. آه، إنني متعطِّشة للذهاب.

ذكّرني صوتها الصريح بناوومي التي أعرفها، ولكن يبدو أن أطرافها قد طالت ونمت على نحو واضح خلال العشرة أيام التي غبت فيها عنها. لم أستطع مقاومة اختلاس نظرة عجلى إلى كتفيها الممتلئتين، وإلى الكيمونو الذي ترتديه، وصدرها، وهي تتنفّس بعمق.

ـ تبدين جميلة في هذا الكيمونو. من الذي قام بحياكته؟

ـ أمي.

ـ ماذا قالت عني؟ أقالت إنني وفقت في اختيار نوع النسيج؟

ـ نعم. قالت إنه ليس سيئاً، ولكنه عصري ويساير الموضة.

ـ أقالت أمك ذلك؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ نعم. إنها لا تفهم شيئاً.

وأضافت بطرف عينيها:

ـ الكل يقول إنني تغيّرت.

ـ تغيّرت في أي اتجاه؟

ـ يقولون إنني أصبحت عصرية على نحو مزعج.

ـ أعتقد أنهم على صواب. فأنا أظنّ ذلك أيضاً.

ـ يطلبون مني أن أصفِّف شعري على الطريقة اليابانية. وأنا لا أريد ذلك.

ـ وماذا عن تلك الشريطة؟

ـ هذه؟ لقد ابتعتها بنفسي من محل أمام معبد «كانون». ما رأيك فيها؟

وأدارت رأسها حتى أتمكّن من رؤيتها.

ـ إنها رائعة، أفضل كثيراً من تصفيف شعرك على الطريقة اليابانية.

افترّ فمها عن ابتسامة تدلّ على الموافقة، صحبتها حركة من أنفها، بطريقتها الخاصة في التعبير عن الأشياء. إنها ضحكة جريئة تبدأ من الأنف، لكنني أحسست بأنها تضفي عليها صفة الذكاء.

- ٤ -

كانت ناوومي تتوسَّل إليّ باستمرار أن أصطحبها إلى «كاماكـورا». ذهبنا إلى هناك في أوائل أغسطس (آب) بنية البقاء ليومين أو ثلاثة أيام.

سألتني: لماذا نقضي يومين أو ثلاثة أيام فقط؟ إن الإجازة لن تكون ممتعة ما لم نمكث لمدة أسبوع أو عشرة أيام.

بدت على وجهها إمارات الاستياء، ونحن نغادر البيت. لقـد عدت من الريف قبل انتهاء إجازتي، بحجة أن لديّ عملاً كثيراً لا بدّ أن أنجزه، ولا أريد المخاطرة بكشف حيلتي، مراعـاة لشّعور أمي. وإذا مـا عرضت الأمـر بهذه الطريقة أمام ناوومي، فسوف تشعر بالإهانة. لذلك فقد قلت لها:

ـ حاولي الاقتناع بيومين أو ثلاثة أيام هذا العام. وفي العام المقبـل سوف نبقى لفترة أطول في مكان آخر. اتفقنا؟

ـ ولكن يومين أو ثلاثة أيام فقط...

ـ أعرف، ولكن إذا شئت السباحة عندما نعود، فبإمكانك الذهـاب إلى الشاطيء في أوموري.

ـ لا أستطيع السباحة في مكان قذر كهذا.

ـ لا ينبغي عليـك قول ذلـك وأنت لا تعرفـين شيئاً. كـوني فتاة طيِّبـة. سوف أبتاع لك شيئاً تـرتدينـه. ألم تقولي بـأنك في حـاجة لبعض المـلابس الغربية؟ سوف أشتري بعضها من أجلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وافقت في نهاية المطاف، بعد أن أسرتها فكرة شراء ملابس غربية. وعندما وصلنا إلى كاماكورا، نزلنا في فندق «جولدن ويف باڤيليون» وهو خان صغير للذين تستهويهم السباحة. عندما أفكّر فيه الآن، أجد نفسي أضحك من أعماقي. لم تكن هناك حاجة للاقتصاد، لأنه كان ما يزال معي معظم المكافأة نصف السنوية. أردت أن أجعلها تشعر بأنها تقضي أروع لحظاتها، خاصة وأن هذه هي أول رحلة لي معها. نزلنا في فندق فاخر، ولم أشعر بالضيق من تكاليف الإقامة. ولكن حينما طلع النهار، واستقلّينا قطاراً متجهاً إلى «يوكوسوكا»، وجلسنا في الدرجة الثانية، أصابتنا حالة من الجبن. فقد كان القطار مملوءاً بالنساء والفتيات المتجهات إلى «زوشي» و «كاماكورا»، جلسن في صفوف متألّقة. بدت ناوومي وسطهنّ رثّة الثياب، في نظري على الأقل.

ولأن الوقت كان ضيقاً، لم تستطع النساء، بطبيعة الحال، التباهي بما لديهن من ثياب. ولكن عند مقارنتهن بناوومي، تشعر باختلاف لا تخطئه عين في الأناقة بين النساء اللاتي ولدن في الطبقة العليا بالمجتمع، وغيرهن. ورغم أن ناوومي بدت مختلفة عن فتاة المقهى، فإن العين تلحظ بسهولة وضاعة المكان الذي ولدت وتربّت فيه. وإذا كان هذا ما كنت أفكّر فيه. فلا بدّ أنها كانت تشعر بما هو أكثر منه. كم تبدو رقيقة الحال في هذه اللحظة، رغم ذلك الكيمونو المصنوع من نسيج الموسلين، الذين جعلها تساير الموضة. إن بعض النساء الجالسات حولنا يرتدين فساتين صيفية بسيطة، لكن أصابعهن تتألّق بالمجوهرات، وأمتعتهن تدلّ على الثراء، كل شيء يتحدّث عن الثراء والوضع الاجتماعي، في حين ليس لدى ناوومي ما تظهره سوى بشرتها المخمليّة. ما زلت أتذكّر الطريقة التي أخفت بها مظلتها تحت كمها. ورغم أنها جديدة فإن أحداً لا يمكن أن يخطيء رخصها، فهي لا تساوي أكثر من سبعة أو ثمانية ينات.

في البداية، التقطنا صوراً لأنفسنا أمام خان متسوهاشي، وأيضاً في فندق «كيهن». ولكن عندما اقتربنا من البنايات، شعرنا بالرهبة من فخامة بوّاباتها، ورحنا نزرع شارع «هيس» جيئة وذهاباً، مرّتين أو ثلاث مرّات، حتى وجدنا أنفسنا في النهاية أمام «جولدن ويف» وهو فندق من الدرجة الثانية أو الثالثة، بالمستويات المحلية.

كان هناك العديد من الطلاب المقيمين في الفندق، يثيرون ضجة لا تسمح بالاسترخاء، لذلك فقد قضينا كل وقتنا تقريباً على الشاطيء، ابتهجت ناوومي بمجرَّد أن رأت المحيط، ونسيت ما شعرت به من اكتئاب أثناء رحلة القطار.

قالت، وقد تعلّقت بذراعي، وراحت تخبط بقدميها في المياه الضحلة:

ـ لا بدّ وأن أتعلَّم السباحة هذا الصيف.

أمسكتها بكلتا يديّ، وشرحت لها كيف تطفو على بطنها، وعلَّمتها طريقة ضرب الماء بقدميها، بينما تشبَّثت بعمود في الماء، وكنتُ أتخلَّى عنها فجأة، كي تتذوّق ملوحة الماء. ولما شعرت بالإجهاد، مارسنا رياضة ركوب الأمواج، ولعبنا بالرمل على الشاطيء، وفي المساء، استأجرنا قارباً وأخذت أجذف باتجاه الخليج. جلست على الدفة، وقد لفّت منشفة كبيرة حول ثوب السباحة الذي ترتديه، أو استلقت مستندة برأسها على حافة القارب، محدّقة في السماء الزرقاء وراحت تشدو بأغنية «سانتا لوشيا» الإيطالية الأثيرة لديها، بصوت عال:

آه يا نابولي الجميلة
آه يا نبض الفؤاد

وحينما تردد صوتها فوق مياه البحر في سكون الليل، أخذت أجذف بهدوء وأصغي مسلوب اللبّ. صاحت: «ابتعدنا أكثر، أكثر، كأنما تريد أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نسافر فوق الأمواج إلى ما لانهاية. غربت الشمس، قبل أن ندرك ذلك، وأخذت النجوم تتألّق، وأصبحت هيئة ناوومي، الملتفّة في منشفة بيضاء، بعد أن ازدادت ظلمة الليل، غير مميّزة المعالم، لكن صوتها الساحر استمر في غناء «سانتا لوشيا» المرّة تلو الأخرى، ثم انتقلت إلى أغنية «لوريلي»، و «زيجونرليبن» واستمرت في الغناء، في الوقت الذي واصل القارب تقدّمه بهدوء.

أعتقد أن الجميع قد مرّ بتجربة ما تماثل هذه في شبابه، ولكن بالنسبة لي فقد كانت التجربة الأولى. فبحكم كوني مهندس كهرباء، فقد كانت معرفتي بشؤون الأدب والفن دون معرفة الآخرين، كما أنني لم أقرأ سوى القليل جداً من الروايات، ولكن في ذلك المساء، فكّرت في رواية «وسادة العشب» للقاص ناتسومي سوسيكي التي قرأتها. وتتضمّن الرواية عبارة «كما غرقت البندقية، كما غرقت البندقية»، وقد تذكّرتها والقارب يندفع بي وناوومي، بينما تحدّق، من خلال ضباب المساء نحو الأضواء المتردِّدة على الشاطيء. أردت، وأنا في نشوة غامرة، الابتعاد مع ناوومي إلى عالم بعيد مجهول. كان هذا الإحساس، لشخص ريفي يفتقر إلى التجربة مثلي، كافياً في حدّ ذاته لجعل إقامتنا القصيرة في «كاماكورا» شيئاً ذا قيمة.

وفي الواقع، فإن أيامنا الثلاثة في كاماكورا سمحت لي باكتشاف أمر مهم آخر. فرغم أنني كنت أقيم مع ناوومي، إلا أنه لم تتح لي الفرصة لمشاهدة شكل جسدها العاري، ولكن في هذه الرحلة، تمكّنت من ذلك. فعندما ظهرت على الشاطيء في يوجاهاما، وهي تعتمر القبعة الخضراء الداكنة، وترتدي لباس البحر الذي ابتعناه من حي جنزا مساء أمس، أثار تناسب أطرافها البديع ابتهاجي. نعم ابتهجت، من الطريقة التي كسى بها الكيمونو جسدها، والتي جعلتني أفكّر في ثنياته، وقد كنت محقاً في ذلك.

صرخ فؤادي: ناوومي، ناوومي عزيزتي ماري بيكفورد! ما أروع تناسب أطرافك. ما أجمل ذراعيك وساقيك المستقيمتين اللتين تماثلان ساقي صبي! ولم استطع سوى التفكير في فيلم «السابحات الفاتنات» الذي شاهدته من قبل.

أظن أنه ليس هناك أحد يرغب في عرض تفاصيل جسد زوجته. وإنني لا أشعر بالمتعة في التفاخر بعرض تفاصيل جسد الفتاة التي أصبحت فيما بعد زوجتي، على عدد كبير من الناس. ولكن إذا تجنّبت ذلك، فإنه سيكون من الصعب رواية قصتي على نحو صحيح، وسوف أفقد الهدف من وراء عرض هذا السجل. ويجدر بي أن أذكر في هذا المقام طبيعة الجسد، الذي كانت ناوومي تتمتّع به عندما وقفت على شاطيء «كاماكورا» في أغسطس من عامها الخامس عشر. في ذلك الوقت كانت أقصر مني بمسافة تبلغ نحو بوصة. (أرجو أن تضعوا في الاعتبار أنه رغم بنيتي الجسمانية القوية، فقد كنت رجلاً قصيراً، لا يزيد طولي عن حوالي خمسة أقدام وبوصتين). ولكن السمة المميّزة في جسم ناوومي هي أن جذعها كان قصيراً، وساقيها طويلتان، مما يجعلها تبدو من بعد أطول مما هي عليه في الواقع. ويتدرج جذعها القصير ليصل إلى خصر نحيل رائع، ثم يزداد عرضاً ليعطي مجالاً لفخذين يضجان بالأنوثة.

كنا قد شاهدنا فيلماً يسمّى «ابنة نبتون» عن حورية بحر تلعب دور البطولة فيه السبّاحة الشهيرة «أنيت كلرمان»، قلت:

ـ يا ناوومي، لم لا تقلّدين كلرمان؟

نهضت واقفة، ورفعت ذراعيها بشكل مستقيم لأعلى رأسها، في وضع الاستعداد للغطس. بدت وهي واقفة، وقد ضمّت فخذيها، وشدّت ساقيها، حتى لم يعد هناك أي فراغ بينهما، مثل مثلّث طويل من وركيها حتى كاحليها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تشعر بالإعجاب تجاه ساقيها، فسألتني:

يا چوچي، هل ساقاي غير مستقيمتين؟

ثم تقدّمت بضع خطوات، ووقفت، وأخذت تتمشّى على الرمل، وتتفحّص بسعادة شكل ساقيها.

كانت السمة المميّزة الأخرى لجسمها هي الخط الممتد بين عنقها وكتفيها. لقد اتيحت لي فرص عديدة للمس كتفيها. وقد جعلتني، منذ بدأت في ارتداء لباس البحر، أزرِّر أزرار الكتف. وعادة ما تكون الكتفان نحيفتين لفتاة مثل ناوومي لها كتفان منحدرتان، وعنق رفيع، إلاّ أنها تتمتّع مع ذلك بكتفين ممتلئتين على نحو مدهش، وبصدر عريض يوحي برئتين قويتين. وفيما كنت أزرِّر لها الأزرار، في إحدى المرات تنفّست بعمق، وحرّكت ذراعيها، حتى تموّجت عضلات ظهرها وانتفخت. كما تمدُّد لباس البحر، الذي بدا أنه قد وصل إلى نقطة الانفجار، وأصبح مشدوداً فوق كتفيها الممتلئتين، مما يهدِّد بتمزّقه. باختصار، كانت كتفاها قويتين، ومترعتين بالشباب والجمال. وعندما قارنتها، بنظرة اختلستها، بالفتيات الآخريات على الشاطىء بدا بالنسبة لي أنه ليست هناك من لديها كتفان قويتان، وعنق رشيق مثلها.

قلت لها:

ـ لا تتحرّكي يا ناوومي، حتى أتمكّن من أن أزرِّر الأزرار.

أمسكتُ بطرف لباسها، ودفعت كتفيها بداخله، كما لو كنت أدخل شيئاً ضخماً في كيس صغير.

ومن الطبيعي بالنسبة لفتاة تمتلك كل هذه المواهب أن تكون ميّالة للألعاب الرياضية، فهي تجيد كل أنواعها. وبعد ثلاثة أيام من إقامتنا في «كاماكورا» دأبنا على الذهاب إلى شاطىء «أوموري» يومياً لممارسة رياضة

السباحة، التي أتقنتها مع نهاية الصيف. كما تعلّمت التجذيف وركوب المراكب الشراعية. كانت تعود إلى المنزل، بعد يوم كامل من اللهو، وقد أمسكت بلباس البحر المبلّل، وهي تصيح «إنني أتضوّر جوعاً، ثم تلقي بنفسها منهكة فوق أحد المقاعد. وعندما يصيبنا الملل من طهي العشاء كل ليلة، نتوقّف أحياناً عند مطعم غربي في طريق عودتنا للبيت من الشاطىء، ونلتهم ما يقدّم إلينا، وكأننا في سباق على الطعام.

الحديث لا ينتهي عن ذكرياتي السعيدة خلال ذلك الصيف، ولذلك فإنني سأتوقّف عند هذا الحد. ولكن ثمة تطوراً آخر لا أستطيع حذفه. ففي ذلك الوقت كنت قد اعتدت أن أحمّم ناوومي بالأسفنج. وهذه العادة بدأت عندما عادت في إحدى المرّات، وهي تشعر بالرغبة الشديدة في النوم، مما جعلها غير قادرة على الذهاب إلى الحمّام العام. فمضت إلى المطبخ، وصبّت الماء فوق جسدها، للتخلّص من المياة المالحة. فقلت لها:

ـ يا ناوومي، لو ذهبت إلى الفراش بهذا الوضع فإن جسمك سيكون شديد اللزوجة. هلمّي إلى حوض الغسيل وسوف أحمّمك! فعلَت كما قلت لها، وتركتني أحمّمها. وتحوّل ذلك بالتدريج إلى عادة. واستمر الاستحمام في حوض الغسيل خلال فصل الخريف البارد، إلى أن قمت في النهاية بتركيب حوض استحمام على النمط الغربي، عند زاوية المرسم، ونصبت حاجزاً حوله، وفيه كنت أحمّمها طوال أشهر الشتاء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٥ -

قد يظنّ بعض قرّائي، الأكثر حصانة، أنني وناوومي قد أصبحنا أكثر من صديقين. لكننا لم نكن كذلك، في الواقع. صحيح أن نوعاً من التفاهم الصامت قد تطوّر بيننا على مرّ الشهور، لكنها لم تكن مجرّد فتاة في الخامسة عشرة. وأنا رجل مهذب كثير الوساوس، ليست لديه أية تجربة مع النساء، بل إنني كنت أشعر أيضاً بالمسؤولية تجاه براءتها، لذلك لم أترك نزوة اللحظة تدفعني لما هو أبعد من حدود تفهمنا. بالطبع تشعّبت في ذهني، بصورة تدريجية جذور فكرة أن ناوومي هي المرأة الوحيدة، التي يمكن أن أفكّر في الزواج منها، بل لو أن هناك امرأة أخرى، فإنني ما كنت أستطيع التخلّي عنها الآن. وهذا سبب آخر جعلني لا أريد اتخاذ الخطوة الأولى بطريقة طائشة، أو على نحو قد يؤذيها.

كان ذلك في ربيع العام التالي ـ ٢٦ إبريل (نيسان) من العام السادس عشر من عمر ناوومي ـ عندما دخلت علاقتنا في مرحلة جديدة. أتذكّر اليوم بالتحديد لأنني في ذلك الوقت ـ بل حينما بدأنا نستخدم حوض الاستحمام ـ شرعت في تدوين مذكرات سجّلت فيها كل شيء عن ناوومي لفت انتباهي. كان جسمها يزداد أنوثة كل يوم. رحت أدوّن كل شيء ألاحظه كأم جديدة تتابع مراحل تطور رضيعها بعبارات مثل «ضحك لأول مرّة»، أو «تكلّم لأول مرّة». ومازلت أتصفّح هذه المذكرات بين فترة وأخرى. وإليكم ما كتبت يوم ٢١ سبتمبر (أيلول) من خريف عام ناوومي الخامس عشر.

في الساعة الثامنة مساءً، حمَّمتها في حوض الاستحمام. ما تزال بشرتها متأثِّرة بأشعة الشمس التي لوَّحتها على الشاطيء. لون بشرتها قاتم، ما عدا الأجزاء التي يغطيها لباس البحر. كانت بشرتي قاتمة أيضاً، لكنها ذات بشرة فاتحة اللون، لذلك فإن التناقض حادٌّ بين بشرتينا. بل إنها عندما تكون عارية، يظنّ المرء أنها ترتدي لباساً. قلت لها:

ـ تبدين مثل حمار وحشي.

فضحكت:

وبعد نحو شهر، في يوم ١٧ اكتوبر (تشرين الأول)، كتبت:

بدأت بشرتها تعود لحالتها الطبيعية، ولم يعد جلدها يتقشَّر، بل أصبح أكثر نعومة وجمالاً عن ذي قبل. ولما غسلت ذراعيها، راحت تتابع بهدوء فقاعات الصابون وهي تتحلَّل، وتذوب فوق جلدها. فقلت لها: رائع. فردَّت قائلة: نعم، أليس كذلك؟ ثم أضافت: أعني فقاعات الصابون».

يوم ٥ نوفمبر (تشرين الثاني):

حاولنا استخدام حوض الاستحمام الغربي الليلة، للمرّة الأولى. وانزلقت قدما ناوومي، التي لم تكن معتادة عليه، وصرخت، وهي تضحك من الموقف. وعندما قلت لها: يا لك من طفلة كبيرة، نادتني قائلة: يا بابا!.

وبعد ذلك كنا أحياناً ننادي بعضنا البعض: «يا طفلة» و «يا بابا»، وكانت دائماً تناديني «بابا» حينما تحاول تملّقي للحصول على شيء مني.

«ناوومي تواصل النمو» كان عنوان يومياتي. لم أكتب سوى عن ناوومي فقط بطبيعة الحال. وقبل مضيّ وقت طويل، ابتعت آلة تصوير، ورحت ألتقط صوراً لوجهها، الذي ازداد شبهاً بوجه ماري بيكفورد، من زوايا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إضاءة مختلفة، وألصقتها فوق صفحات عديدة من اليوميات.

لقد ابتعدت عن صلب الموضوع. ولكن وفقاً لليوميات، بدأت أنا وهي علاقة أكثر عمقاً يوم ٢٦ إبريل من العام الذي انتقلنا فيه إلى «أوموري». وبسبب حالة التفهم الصامتة بيننا، فقد حدث الأمر في هدوء وبشكل تلقائي. لم يبادر أحد منا، بل لم نتبادل كلمة واحدة. وضعت، في نهاية المطاف، فمها على أذني، وهمست:

ـ يا چوچي، ألن تتركني أبداً؟

ـ أتركك؟ كلاّ. لا تقلقي بهذا الشأن. أعتقد أنك تعلمين صدق شعوري تجاهك.

ـ نعم، أعلم.

ـ منذ متى وأنت تعلمين ذلك؟

ـ لنر، منذ متى تكوّن شعورك تجاهي؟

ـ ماذا كنت تعتقدين عندما قلت إنني سأتولّى رعايتك؟ أكنت تظنين أنني أعتزم الزواج منك في النهاية؟

ـ نعم، اعتقدت أن هذا هو ما تفكّر فيه.

ـ إذن فقد وافقت على القدوم معي لأنك كنت ترغبين في أن تصبحي زوجتي؟

احتضنتها بكل ما أوتيت من قوة، دون أن أنتظر ردّها، وقلت لها:

ـ أشكرك يا ناوومي، أشكرك. لقد فهمت الأمر. سوف أكون أميناً معك الآن. لم أكن أعتقد قط أنك ستصبحين قريبة إلى هذا الحد من امرأتي المثالية. إنني محظوظ. سأحبك دوماً... أنت فقط ولا أحد سواك... لن أسيء معاملتك كما يفعل العديد من الأزواج. سأعيش من

أجلك. امضِ قدماً في الدراسة، وفي النمو كشابة جميلة! وسأعطيك كل ما تريدين.

ـ آه، نعم، سأتعلّم بجدٍّ واجتهاد. وسأكون من نوعية المرأة التي تريد، وأعدك بذلك.

اغرورقت عيناها بالدموع، وبدأت أبكي أنا الآخر. تبادلنا الأحاديث طوال الليل عن المستقبل.

بعد ذلك بفترة قصيرة قضيت عطلة نهاية الأسبوع في الريف، وأحطت أمي علماً بكل شيء عن ناوومي. كانت هناك عدة أسباب دفعتني لإبلاغها بما يجري بسرعة. فقد أردت أن أطمئن ناوومي، التي شعرت بالقلق على ما يبدو إزاء رد فعل أسرتي، وأردت أن يصبح كل شيء معلناً. طرحت على أمي أفكاري عن الزواج، وشرحت لها سبب رغبتي في الزواج من ناوومي، بطريقة حاولت أن تكون مؤثرة على امرأة مسنّة. كانت أمي تتفهّم ظروفي دائماً، وتصدقني القول. قالت لي باقتضاب:

ـ إذا كانت تلك رغبتك، فيتعيّن عليك أن تتزوّجها. ولكن إذا كانت أسرتها على هذه الشاكلة، فقد تواجه المتاعب في المستقبل، فكن على حذر.

قرّرنا الانتظار لمدة عامين أو ثلاثة أعوام قبل إعلان زواجنا، لكنني أردت أن أسجّلها رسمياً زوجة لي في التوّ واللحظة. ذهبت إلى «سنزوكو» لأفاوض أمها وأخاها، فأبديا عدم اكتراث، كما فعلا من قبل، ومضى كل شيء بهدوء. قد يكونا متهاونين، لكنهما ليسا سيئين، كما لم يتلفّظا بشيء يوحي بأن الجشع هو الذي يدفعهما إلى ذلك.

تطوّرت علاقتنا بسرعة بعد ذلك. لم يعلم أحد بالتغيّر الذي طرأ بعد، وفي الخارج كنا مجرّد صديقين. ولكن قانوناً كنا زوجين، ولم يعد هناك شيء لنخفيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت لها ذات يوم:

ـ لتستمر علاقتنا معاً كصديقين. أيمكن ذلك؟

ـ إذن ستستمر في مناداتي باسم ناوومي؟

ـ بالطبع. أم هل أناديك يا زوجتي؟

ـ لا. لا أحب ذلك.

ـ وهل سأظل دائماً چوچي؟

ـ بطبيعة الحال. أهناك اسم آخر أناديك به؟

استلقت ناوومي على الأريكة، وهي تمسك بوردة في يدها. قرَّبتها من شفتيها. وضغطت عليها للحظة، ثم قالت فجأة:

ـ يا چوچي!

وفتحت ذراعيها، وتركت الوردة تسقط، واحتضنت رأسي.

قلت وأنا ألهث، ووجهي في ظلمة كميها:

ـ يا عزيزتي ناوومي، إنني لا أحبك فحسب، بل أعبدك. أنت كنزي. أنت ماسة اكتشفتها وصقلتها. سأجلب لك كل ما يجعلك رائعة الجمال. سأعطيك كل راتبي.

ـ لا تفعل ذلك، فدروس اللغة الإنجليزية والموسيقى أهم من كل شيء.

آه، نعم. سأبتاع لك بيانو قريباً. ستكونين سيِّدة عظيمة ولن تشعري بالخجل مطلقاً من الاختلاط بالغربيين.

لقد اعتدت على استخدام عبارات مثل «الاختلاط بالغربيّين» و «مثل امرأة غربيّة»، فقد كان واضحاً أنها تدخل السرور إلى قلبها.

كانت تقول، وهي تقف أمام المرآة، وتقوم برسم تعبيرات مختلفة بقسمات وجهها:

ـ ما رأيك؟ ألا تعتقد أنني أبدو كامرأة غربيّة عندما أفعل ذلك؟

من الواضح أنها حفظت حركات الممثّلات من أفلام السينما التي شاهدناها، إذ أنها أتقنت تقليدهن، وتقمّص شخصياتهن، وكانت تقول:

ـ بيكفورد تضحك هكذا، وبينا منيشيلي تحرّك عينيها هكذا، وجيرالدين فارار تصفّف شعرها هكذا.

ثم تفكّ شعرها، وتمشّطه بطريقة معيّنة.

ـ ممتاز، أفضل كثيراً من أية ممثّلة. إن وجهك قريب الشبه كثيراً بالوجه الغربي.

ـ صحيح؟ أي جزء منه يبدو غربيّاً؟

ـ أنفك وأسنانك.

ـ أسناني؟

وتقلب شفتيها لتفحص صف أسنانها في المرآة. وفي الواقع كانت أسنانها مستقيمة وبرّاقة بشكل مدهش.

أنت، على أية حال، مختلفة عن اليابانيات الأخريات. ولا تغيّر الملابس اليابانية التقليدية من الأمر شيئاً. كيف سيكون شكلك إذا ما ارتديت ثياباً غربيّة؟ أو ثياباً يابانية حديثة الطراز؟

ـ أي طراز؟

ـ النساء سيزددن نشاطاً في المستقبل، ولن تصلح لهن الأشياء الثقيلة المشدودة، والتي يرتدينها الآن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ماذا عن كيمونو ضيِّق الأكمام له نطاق عادي.

ـ سيكون رائعاً. وأي شيء سيكون مناسباً طالما تختارين الطرز الأصلية. لا أدري إذا ما كانت هناك ثياب أخرى ليست يابانية أو صينيّة، أو غربيّة...

ـ لو أن هناك ثياباً أخرى، هل ستبتاعها من أجلي؟

ـ نعم، بالطبع. سأبتاع لك كل أنواع الثياب، لتبدلي فيها كل يوم. أنت لست بحاجة لنسيج باهظ الثمن، بل يكفيك الموسلين، والحرير العادي، ولكن الأهم هو التصميمات المبتكرة.

ثم ذهبنا، بعد هذه المناقشة، إلى المحلّات التجاريّة، للبحث عن نسيج مناسب. كنا نقضي كل يوم أحد في «ميتسوكوشي» و«شيروكيا»، ولكن لم نستطع العثور على الأنماط التي نبغيها، لأن أحدنا لم يشعر بالارتياح تجاه الأشياء النسائية العادية. لم نكن نسعى وراء الأجواخ، لذلك فقد ذهبنا إلى محلات الأقمشة القطنية، محلات السجّاد، والمتاجر المتخصِّصة في الأنسجة الغربيّة. بل إننا قضينا يوماً بكامله في يوكوهاما، حيث رحنا نتنقّل من محل لآخر في الحي الصيني، وقصدنا متاجر المستوطنة الأجنبية، بحثاً عن الأقمشة المناسبة. كنا نعاين الثياب الغربية المعروضة في المحلات، التي نمرّ أمامها، ونتوقّف أمام كل واجهة ونتفحّص محتوياتها بعناية. وإذا ما وقعت عين أحدنا على شيء غير عادي، كان يصيح: «انظر، ما رأيك في هذا؟»، ثم نندفع إلى داخل المحل، ويأتي العامل بالنسيج من الواجهة، وأدقّق في شكله على ناوومي وهي تضعه عند ذقنها وتلفّه حول جذعها. كنا نقضي أوقاتاً رائعة ونحن نتجوّل، ونتفحّص واجهات المحلات بهذه الطريقة، حتى من دون أن نشتري شيئاً.

كانت موضة النساء هذه الأيام هي الكيمونو الصيفي من أنسجة

الأورجندي، الجورجيت، والقطن، ومن المرجح أن ناوومي وأنا كنا أول من استخدم مثل هذه الأنسجة. لم نكن نهتم بالكيمونو التقليدي، بل صمَّمناه على شكل كيمونو ضيِّق الأكمام، ومنامات وفساتين تبدو مثل قمصان النوم. أحياناً كانت تلفّ قطعة من النسيج حول جسمها، وتشبكها بدبوس زينة، وتسعرض نفسها في أنحاء البيت، وتقف أمام المرآة، وتأخذ وضعاً خاصاً، بينما ألتقط لها الصور الفوتوغرافية. كانت تبدو مثل زهرة رائعة كبيرة في إناء، وهي ملفوفة بثياب شفّافة بيضاء، وردية، أو أرجوانية شاحبة.

كنت أقول لها:

ـ جرِّبيها بهذه الطريقة، أو بتلك الطريقة.

وأجعلها تقف، أو تستلقي على الأرض، أو تجلس، أو تمشي. وأظل أحدِّق فيها بالساعة.

زاد معدل مقتنياتها من الثياب في غضون عام. ولم يكن من الممكن أن تحفظها كلها في حجرتها، فكانت تعلِّق بعضها، و تجمع البعض الآخر في أكوام في كل مكان. كان بإمكاننا شراء خزانة، ولكن أدركنا أن ذلك سيخفض من ميزانية شراء الثياب، كما لم تكن هناك حاجة لمعاملة ثيابها بعناية. فرغم أن لديها الكثير منها، إلا أنها لم تكن باهظة الثمن، وبالتالي سرعان ما تبلى. وكان من الأنسب أو توزِّعها في أماكن مختلفة، تستطيع رؤيتها فنصنع منها مجموعات حينما نجد وقتاً لذلك. كما استخدمناها كديكور للحجرات. وبدا المرسم مثل غرفة الثياب في المسرح، حيث تنتشر الملابس في كل مكان ـ على المقاعد، وفي الزوايا، بل وعلى الدرج. كانت معظم الثياب متّسخة، لأن ناوومي اعتادت على ارتدائها فوق جسمها مباشرة، وقلما كنا نقوم بغسلها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت معظم التصميمات فاضحة، لذلك لم تستطع ارتداء سوى نحو نصفها فقط خارج المنزل. وكان الأثير لديها من الثياب، الذي عادة ما ترتديه عندما نخرج معاً، كيمونو مقلَّم من الحرير مبطَّن بالقطن، وسترة مناسبة. وكان لون الكيمونو والسترة بنياً مشوباً بالحمرة، مثلما سيور الخف وقيطان السترة. أما بقية الأشياء، الوشاح حول العنق، إبزيم النطاق، بطانة الكيمونو، طرفا الكمّين، فلونها أزرق شاحب. أما النطاق الرفيع، فهو مصنوع من الحرير المبطَّن الخفيف، وتشدّ رباطه عالياً فوق صدرها. وبالنسبة لمنطقة العنق، فقد ابتاعت شريطة، حيث كانت تريد شيئاً يماثل النسيج الحريري. كانت غالباً ما ترتدي هذه الثياب عندما نذهب إلى المسرح في المساء، فيتطلَّع الكل إليها، وهي تسير في دهليز مسرح «يوراكوزا»، أو مسرح «أمبريال» في هذه الملابس البرَّاقة.

ـ من تكون هذه المرأة؟

ـ ربما تكون ممثِّلة.

ـ أهي أوراسيّة؟

كنا نسير وسط هذا الهمس، ونحن نشعر بالتيه.

كانت هذه الملابس تثير الدهشة، ولذلك نادراً ما خرجت بثيابها ذات التصميمات غير التقليدية، رغم حبها لها. لكنني كنت أجعلها ترتديها في البيت، وأجلس محدِّقاً فيها. كان ذلك بمثابة وضع زهرة جميلة في إناء، ثم في آخر. لم يكن هناك ما يثير الدهشة في ذلك، فعلى الرغم من كونها زوجتي، إلا أنها أيضاً دمية نادرة ثمينة. لم ترتد قط ثياباً عادية في البيت. وكان أغلى ثوب ترتديه داخل المنزل عبارة عن حلّة مخمليّة سوداء من ثلاث قطع. قالت إنها تحاكي حلة رأت رجلاً يرتديها في أحد الأفلام الأميركية. وعندما ترتديها، وتعقص شعرها تحت قبعة رياضية، تبدو مثيرة كقطة.

كانت غالباً ما ترتدي وزرة فضفاضة، أو لباس بحر سواء في الصيف أو الشتاء (حيث كنا نستعمل الموقد لتدفئة الحجرة). كما كان لديها أزواج لا تحصى من الخفاف، من بينها خف مطرّز من الصين، اعتادت انتعاله بدون جوارب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٦ -

رغم أنني كنت أدلِّلها بهذه الطريقة، فإنني لم أتخلَّ عن رغبتي الأصلية، وهي أن أجعلها تتلقّى قسطاً معقولاً من التعليم، وتنشأ كفتاة جيِّدة تحظى بالإحترام. لم تكن لديّ فكرة واضحة عما تعنيه فتاة «جيدة» و «محترمة»، ولكن لا بد وأنني كنت أفكِّر في أمر ما غامض وبسيط مثل «فتاة عصرية متطوِّرة»، لا يتنابني الخجل عندما أقدِّمها لرفاقي»: فهل يتماشى ذلك مع «تدليلها مثل دمية»؟ يبدو الأمر لي الآن غير منطقي، ولكن حبي لها جعلني لا أشعر بعدم الاتساق الواضح في معاملتي لها.

كنت دائماً أقول لها:

ـ يا ناوومي ثمة وقت للهو، ووقت للتعلم. فإذا ما عملت بجد واجتهاد لتحقيق شيء لنفسك، فسوف أبتاع لك كل الأشياء الأخرى التي تريدينها.

وكانت دائماً تردّ على ذلك بقولها:

نعم سوف أستذكر دروسي، وأعدك بأن أصبح امرأة ممتازة.

كنت أقضي نصف الساعة، كل يوم بعد العشاء، لأسترجع معها القراءة والمحادثة الإنجليزية. ورغم كل ما قلته، فقد كان «اللهو» و «الاستذكار» يمتزجان معاً، حيث تجلس وهي ترتدي حلّتها المخملية أو قميص نومها، مسترخية على الكرسي، ويتدلّى خف من أحد أصابع قدمها مثل دمية.

ـ يا ناوومي ماذا تصنعين؟ أحسني تصرفاتك عندما تستذكرين دروسك! فتعتدل في جلستها، وتحني رأسها، وتقول بنبرة تلميذ ابتدائي متملّق: «آسفة، يا أستاذ» أو «أرجو المعذرة، يا سيّد كاواي». ثم تختلس نظرة عجلى، وتطبع قبلة سريعة على خدّي. لم تكن تواتيني الشجاعة لأكون حازماً مع تلميذتي المعبودة، ودائماً ينتهي الأمر بأن ألهو معها بلعبة الحصان الطفولية.

لم أكن أعرف مدى التقدم، الذي تحرزه ناوومي في تعلّم الموسيقى، لكنها دأبت على تلقّي دروس في اللغة الإنجليزية مع الآنسة هاريسون لمدة عامين. وبدا لي أنها قد أحرزت تقدماً. كانت قد بدأت بكتاب القراءة الأول، وقطعت الآن أكثر من نصف المقرَّر في الكتاب الثاني، أما كتاب المحادثة فهو «صدى الإنجليزية». وبالنسبة للقواعد فقد استخدمت كتاب القواعد الوسيط لكاندا نايبو. وهذا يعادل الصف الثالث بالمدارس الإعدادية. مع ذلك فإن مستواها كان أقل من الصف الثاني الإعدادي، على أفضل الأحوال. وبعد أن ازدادت حيرتي، ذهبت لزيارة الآنسة هاريسون.

قالت لي العانس البدينة بعطف، وقد ندت من شفتيها ابتسامة مرحة:

ـ لا. الأمر ليس كذلك. إنها ممتازة، وتؤدي واجباتها على خير وجه.

ـ نعم إنها فتاة ممتازة، لكني لا أعتقد أن لغتها الإنجليزية جيِّدة كما ينبغي، فهي تستطيع القراءة، ولكن عندما يتعلّق الأمر بالترجمة إلى اليابانية، أو بتحليل القواعد...

قاطعتني بابتسامة، وقالت بلغة يابانية غريبة إلى حدٍّ ما:

ـ لا. إنك تعتنق فكرة خاطئة. إن اليابانيين يفكِّرون دائماً في القواعد والترجمة، وهذا أمر سيّء للغاية، إذ لا ينبغي التفكير في القواعد والترجمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عند تعلّم الإنجليزية. ولكن ينبغي قراءة النص الإنجليزي أكثر من مرّة، فهذه هي أفضل طريقة. والآنسة ناوومي تجيد نطق الكلمات الإنجليزية، وهي ممتازة في القراءة. وسوف تكون لغتها الإنجليزية ممتازة في المستقبل القريب.

كانت مصيبة في رأيها، ولكني لم أقصد أنه يجب على ناوومي أن تختزن بصورة منتظمة قواعد النحو. ولكن كان يتعيّن عليها، بعد أن درست لمدة عامين، وانتهت من كتاب القراءة الثالث، أن تعرف كيفية استخدام الماضي التام، وتركيب جملة مبنية للمجهول، وطريقة استخدام الصيغة الشرطية. ويتضح ذلك عندما تترجم من اليابانية إلى الإنجليزية، حيث يصبح جلياً أنها لم تتعلّم شيئاً. لم تكن أفضل من أكثر تلاميذ الإعدادي تخلّفاً. وبهذا المستوى، فإنها لن تتحدَّث الإنجليزية بطلاقة، مهما كان المستوى الجيِّد الذي تتمتّع به الآن في القراءة. ورحت أتساءل عن الذي تعلّمته خلال عامين كاملين. لكن المرأة تجاهلت نظرة الامتعاض وأومأت برأسها في ثقة، وردَّدت مرّة أخرى:

ـ الآنسة ناوومي فتاة ذكية.

خمنت أن المدرسين الغربيين ينحازون لتلاميذهم اليابانيين، وإذا كان لفظ «انحياز» قوياً، فلا بدّ من القول إن لديهم أفكاراً مسبقة عن أولئك التلاميذ. ويبدو لي أنهم عندما يرون صبياً أو فتاة، متطوراً، وسيماً، يميل في تصرفاته للنمط الغربي، يستنتجون، دون إمعان التفكير، بأنه ذكي. ويتضخّم هذا الشعور بشكل خاص بين العوانس. وهذا ما يفسِّر سبب إشادة الآنسة هاريسون بناوومي ـ فقد اقتنعت منذ البداية بأنها «فتاة ذكية». كان نطق ناوومي للكلمات ناعماً ورقيقاً للغاية، كما قالت الآنسة هاريسون. فصوتها رائع عند سماعه، وذلك بفضل دروس الغناء، وأسنانها المستقيمة. كان نطقها للإنجليزية رائعاً، وتأكدت من أنني لا أباريها في هذا

المجال. وليس هناك شك في أن صوتها بهر الآنسة هاريسون. أدركت مدى حبها لناوومي عندما رأيت، وسط دهشتي، صوراً لناوومي معلّقة حول مرآة زينتها.

ورغم أنني شعرت بالاستياء من آراء الآنسة هاريسون، وأساليبها التعليمية، إلا أنها على الأقل امرأة غربية تنحاز إلى ناوومي، وتقول عنها إنها ذكية. وهذا ما كنت آمله، وقد سررت، رغماً عني، كما لو أن السيِّدة هاريسون تمتدحني أنا شخصياً. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنني شعرت بالضعف، مثل معظم اليابانيين، عندما يواجهون الغربيين، وفقدت شجاعتي في التعبير عن وجهات نظري بوضوح، ولم أقل ما كان ينبغي أن أقول، خاصة وأن الآنسة هاريسون تتحدَّث بلغة يابانية غريبة، وبثقة كبيرة في نفسها. قلت لنفسي لا يهم، طالما أنني قلت ما أريد.

وإذا كانت تلك هي مشاعرها، فسوف أسدّ الفجوات في البيت. قلت للآنسة هاريسون:

ـ نعم، ما تقولينه صحيح. لقد فهمت الآن، ولن أشعر بالقلق بعد الآن.

واستأذنتها بابتسامة باهتة مداهنة، وعدت إلى البيت محبطاً، حيث أنني لم أسوِّ أي شيء.

سألتني ناوومي في ذلك المساء:

ـ ماذا قالت لك الآنسة هاريسون، يا چوچي؟

أوحت طريقة طرحها للسؤال مدى ثقتها في وقوف المرأة إلى صفّها، ولم تأخذ الأمر بجدية.

ـ قالت إنك تحرزين تقدماً. ولكن الغربيين لا يفهمون نفسية الطلاب اليابانيين. إنها مخطئة إذا كانت تعتقد أن النطق الجيِّد، والقراءة السلسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كافيان. أنت ممتازة في الحفظ، ولكن عندما أطلب منك الترجمة، أجد أنك لم تفهمي النص على الإطلاق. وذلك ليس أفضل مما يستطيع البيغاء عمله. وبهذا المعدل فإن لغتك الإنجليزية لن ترقى مطلقاً إلى مستوى الاستخدام العملي.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أوجِّه فيها لناوومي توبيخاً حقيقياً. وقد أثارتني نظرتها المنتصرة، واقتناعها بصحة كلام الآنسة هاريسون، كما لو أنها تقول: «ألم أقل لك ذلك؟». ولكن الأكثر من ذلك أنني بدأت أشك الآن فيما إذا كان من الممكن أن تصبح ناوومي «المرأة الذكية» التي تحدثنا بشأنها. وبالنسبة للغتها الإنجليزية، فليس من الصعب التخمين بمستقبل ذهن لا يستطيع إدراك قواعد النحو. لماذا يدرس الصبية الهندسة والجبر في المدرسة الإعدادية؟ لا شك أن الهدف ليس مجرَّد تزويدهم بأداة عملية، بل لزرع القدرة فيهم لاستخدام أذهانهم بدقة.

في الماضي كان بإمكان المرأة المضي قدماً بدون أن تتمتّع بذهن تحليلي. والمرأة التي تريد أن تكون ذكية على قدم المساواة مع الغربيات، لن تصل إلى ما ترمي إليه ما لم تكن لديها القدرة على التفكير والتحليل المنظم.

كنت أقضي، من قبل، نحو ثلاثين دقيقة فقط في اليوم لأراجع معها الدروس. أما الآن فقد زاد الوقت، حيث أقوم بتعليمها الترجمة من اليابانية إلى الإنجليزية، والنحو لمدة تتراوح بين ساعة وساعة ونصف، أو أكثر يومياً. ولم أعد أسمح بجو اللهو السابق، بل أوبِّخها بعنف. ونظراً لأنها ضعيفة الفهم، فقد ابتعدت عن التفسيرات التفصيلية، وركّزت على التلميحات القليلة، كي تتمكّن من معرفة بقية الأمر بنفسها. فإذا ما كانت تدرس المبني للمجهول، على سبيل المثال، فإنني أقدِّم لها تمريناً لتحلّه، وأقول لها:

ـ ترجمي هذا إلى الإنجليزية. وإذا فهمت ما تقرأينه، فسوف تتمكّنين من حلّ هذا التمرين.

ثم أنتظر صابراً، حتى تتوصّل إلى الإجابة. وإذا كانت إجابتها خاطئة، لا أكشف لها موقع الخطأ، بل أقول لها: «إنك لم تفهمي، أليس كذلك؟ اقرأي النحو مرّة أخرى» وأجعلها تعيد قراءة الكتاب المرّة تلو الأخرى.

فإذا لم تستطع الدرس، أقول لها:

ـ كيف يمكن لك أن تحرزي تقدماً، يا ناوومي، إذا لم تتمكّني من فهم هذا الدرس البسيط؟ كم عمرك الآن؟ لقد تم تصحيح إجابتك أكثر من مرّة، وما زلت لا تفهميني. أين ذهنك؟ تقول الآنسة هاريسون إنك ذكية، لكني لا أعتقد ذلك مطلقاً. إذا لم تتمكّني من الإجابة، فسوف تكونين في ذيل قائمة الفصل، بافتراض أنك ستظلّين في المدرسة.

وفي النهاية يتزايد انفعالي، وأبدأ في رفع صوتي. فتنتفخ أوداج ناوومي، وتتجهّم، ثم تنتحب.

كنا، في العادة، أسعد وأحب زوجين، وكنت أضحك عندما تضحك، ولم نتعارك مطلقاً، ولكن حينما يأتي وقت مراجعة دروسها في اللغة الإنجليزية، يتغيّر الحال، ويصبح الجو خانقاً لكلينا. ذات يوم فقدت أعصابي، بينما قطّبت هي جبينها. كنا قبل لحظة مرحين، ولكن فجأة جلسنا متجهمين يحدِّق كل منا للآخر، بعيون يملأها العداء. نسيت رغبتي الأصلية في أن أجعلها امرأة ممتازة، وأثارت عدم فعاليتي إحباطي، وبدأت أبحث عن سبب لغضبها. لو كانت صبياً، لفقدت أعصابي وضربتها. ولكن نظراً لأنها فتاة، كنت أصيح في وجهها قائلاً: «غبية». في إحدى المرّات ضربتها على جبهتها ببراجمي. كان رد فعلها معاكساً، فلم ترد رغم معرفتها الإجابة. وجلست صامتة كالحجر، تحاول مغالبة دموعها المنهمرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على خدّيها. ذات مرّة تشبّثت بهذا الأسلوب المعاكس، وأبدت عناداً أثار ذهولي، ولم يكن في طبعها أن تعود إلى حالتها الطبيعية بسهولة. وفي النهاية شعرت باليأس، فغادرت المكان، وتركت المسألة دون حل.

وذات يوم، وبعد أن أفهمتها مراراً أن المضارع المستمر مثل «يفعل» و «يذهب» وغيرهما يجب أن يسبقه فعل الكينونة، لم تستطع الاستيعاب. وظلّت تستخدمه دون إضافة فعل الكينونة. صحت فيها قائلاً: «غبية» وكرّرتها المرّة تلو الأخرى. وشرحت لها الأشكال المختلفة للفعل «يذهب» في صيغه المختلفة؛ الماضي، المستقبل، والماضي البعيد. لكنها لم تفهم شيئاً. وراحت ترتكب أخطاء فاحشة في تركيب هذه الصيغ. صحت فيها مرّة أخرى قائلاً: «غبية! يا لك من غبية! كم مرّة أشرح لك صيغ الأفعال؟ إن لم تفهمي، فسوف نظلّ عند هذا الدرس. ولن أتركك قبل أن تتمكّني من صياغة الأفعال على نحو صحيح، حتى لو قضينا الليلة بأكملها هنا». ودفعت القلم الرصاص والكراسة بعنف نحوها. لاحظت أن وجهها قد شحب، وضغطت شفتيها بشدة، ونظرت إليّ شذراً، وفجأة قبضت على الكراسة، ومزّقتها، وألقت بها على الأرض، ثم ركّزت عينيها المخيفتين عليّ مرّة أخرى، كما لو أنها تثقب حفرة في وجهي.

قلت لها، وأنا أحاول مواجهة النظرة الثاقبة من عينيها:

ـ ما الذي فعلته؟ تشعرين بالتمرّد، أليس كذلك؟ من الذي يريد أن يتعلّم؟ لقد قلت بنفسك: سوف أستذكر دروسي بجد، وسأصبح امرأة ذكية. هل غيّرت رأيك؟ لماذا تمزقين كراستك؟ اعتذري! وإن لم تعتذري، فسوف أنهي علاقتي بك، وترحلين عن هذا البيت اليوم!

ظلّت صامتة بعناد، وشحب وجهها، وأصبح كملاءة بيضاء. ظهر ظل ابتسامة باهتة حول شفتيها. كما لو أنها ستصرخ.

ـ ليكن. لا تعتذري. اخرجي الآن، وفي الحال!

لم يعكس وجهها أي تعبير. فنهضت واقفاً، وجمعت قطعاً عديدة من ملابسها ووضعتها داخل صرّة. أحضرت حافظتي من الطابق الثاني، وأخرجت منها ورقتين من فئة العشرة ينات. وقلت لها:

ـ يا ناوومي، لقد وضعت بعض أشيائك في هذه الصرّة. خذيها وعودي إلى «أساكوسا» الليلة. وإليك عشرين يناً. أعرف أنها لا تكفي، ولكن يمكن أن تصرّفي بها أمورك في الوقت الحاضر. سوف أنتهي من التفاصيل في غضون بضعة أيام، وسأرسل لك بقية أشيائك غداً... ناوومي، لِمَ لا تقولين شيئاً؟

رغم نظرة التحدي التي نحدت منها، إلا أنها ما تزال طفلة. جفلت من تصميمي، ونكست رأسها باكتئاب، وانكمشت.

ـ أنت عنيدة، ولكن عندما أقول شيئاً فلن أتراجع عنه. إذا كنت تشعرين بخطأك، فعليك إما أن تعتذري، أو تعودي إلى بيتك. قرّري، هل تريدين الاعتذار؟ أم العودة إلى «أساكوسا»؟.

هزّت رأسها، علامة الرفض.

ـ إذن لا تريدين العودة إلى بيتك؟

هزّت رأسها مرّة أخرى.

ـ هل ستعتذرين؟

أومأت موافقة.

ـ في هذه الحالة، سأصفح عنك. دعيني أرى انحناءة اعتذار مناسبة.

ضغطت يديها على مضض فوق الطاولة، ولكنها بدت كأنها تسخر مني، إذ قامت بانحناءة صغيرة، بشيء من الإهمال، وأشاحت بعينيها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسواء كانت هذه الطبيعة، التي تتسم بالغطرسة والإصرار، مزروعة فيها منذ البداية، أو أنها نتيجة لتدليلي لها، فإنها قد زادت سوءاً بمرور الأيام. ورغم أنني كنت أتغاضى عنها، وأعتبرها فتنة طفولية، حينما كانت ما تزال في الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة من عمرها، فإنني وجدت من الصعب تحمّلها بعد أن نضجت. كانت كثيرة المشاكسة، والطلبات من قبل، تذعن للقليل من التوبيخ، لكنها تغضب هذه الأيام بمجرّد أن يثيرها أي شيء. وحين تنتحب، تظل جذّابة، ولكن عندما أعنّفها بشدة، تثيرني بنظراتها الحادة التي تصوبها إليّ. لو أن هناك شيئاً اسمه الكهرباء الحيوانية، فإن عيني ناوومي تتوفّر فيها هذه الكهرباء بكثرة. وأكاد لا أصدِّق أنهما عينا امرأة. فهما حادتان لامعتان، مخيفتان، وفي الوقت نفسه مترعتان بإغراء غريب. وأحياناً ما أشعر برعدة تسري في أوصالي، عندما تصوِّب إليّ نظرة سريعة غاضبة.

- ٧ -

كان فؤادي حلبة صراع لعواطف الحب والإحباط المتضاربة. لقد أسأت الاختيار، فناوومي لم تكن فتاة ذكية كما كنت آمل. وإنكاري لذلك لم يعد مجدياً. باستطاعتي الآن إدراك أن رغبتي لجعلها امرأة ذكية لم تكن سوى مجرّد حلم. فاستسلمت للأمر، وأيقنت أن الاختيار الخاطىء يؤدي إلى نتيجة سيِّئة؛ فتاة من «سنزوكي» ينبغي أن تكون نادلة في مقهى، وليست هناك فائدة من تزويد شخص بعلم غير مناسب له. وهكذا تخلّيت عن طموحاتي. ولكن في الوقت ذاته، جذبني جسدها بقوة أكبر. وأقول «جسدها» عامداً. فبشرتها، أسنانها، شفتاها، شعرها، وعيناها ـ أي جمال شكلها ككل، هو الذي جذبني إليها. ليس هناك أي شيء معنوي آخر. لقد أحبطتني إمكانياتها الذهنية، لكن جسدها سيطر الآن على أفكاري. قلت لنفسي، إنها امرأة غبية، وأخذت أفكّر فيها بيأس وحزن، وكلما استغرقني التفكير بهذه الطريقة، أحسست أكثر بجمالها يشدّني. وكان هذا أمراً مؤسفاً بالنسبة لي. فقد نسيت بالتدريج رغبتي البريئة في «تعليمها»، ووجدت أنني قد استدرجت، ولكن أدركت في الوقت المناسب ما يحدث، وإنه ليس هناك شيء أستطيع القيام به تجاهها.

قلت لنفسي: دائماً ما تسير الأمور على غير ما يشتهي المرء. فقد كنت أود أن أجعل من ناوومي امرأة رائعة الجمال على المستويين الروحي والمادي. وقد فشلت على الجانب الروحي، ولكني حقّقت نجاحاً باهراً على الجانب المادي، لم أكن أتوقّع قط أن تصبح على هذا القدر من الجمال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد عوّضني نجاحي في الجانب الأخير عن فشلي في الجانب الروحي . . . حاولت، بهذا النمط من التفكير، إدخال الشعور بالارتياح إلى نفسي.

لاحظت ناوومي التغيير، الذي طرأ عليّ، فقالت:

ـ يا چوچي، لا تدعيني بالغبية بعد الآن خلال مراجعتنا لدروس اللغة الإنجليزية.

ورغم أنها لا تمتلك أية موهبة في النحو، إلا أنها تتمتّع بذكاء خدعتني.

ـ لقد اكتشفت أن توبيخك لن يغيّر من الأمر شيئاً، لأنه يزيدك عناداً. ولذلك فقد قرّرت تغيير أسلوبي معك.

ـ نعم بالطبع. فأنا لن أنصاع لما تقوله إذا ما زجرتني على هذا النحو. فأنا في الواقع باستطاعتي تأدية معظم تلك التمارين، لكني أردت أن أضعك في موقف صعب، لذلك فقد تظاهرت بعدم الفهم. ألم تدرك ذلك؟

لاحظت أن ما تقوله نابع من مجرّد عجزها، لكني تظاهرت بأنني فوجئت به، فقلت لها:

ـ ماذا تقولين؟

ـ ذلك أمر طبيعي، فأي شخص باستطاعته حل تلك التمارين. إنك تبدو غريب الشكل عندما يجنّ جنونك.

ـ إذن لقد خدعتيني.

ـ ما رأيك الآن؟ ربما أكون أكثر ذكاءً مما كنت تعتقد.

ـ حسناً. أنت فتاة ذكية، ولا أستطيع أن أباريك.

شعرت بالزهو من نفسها، وراحت تضحك، وتضحك.

فيما يتعلق بهذه النقطة، لديّ قصة غريبة أريد أن أقصّها. وآمل أن ينتبه إليّ قرّائي بأناة، دون أن يضحكوا مني. عندما كنت في المدرسة

الإعدادية، درست في التاريخ قصة أنطونيو وكليوباترا. وكما تعرفون فإن أنطونيو دخل في معركة بحرية ضد قوات أغسطس فوق صفحة مياه النيل. دخلت كليوباترا المعركة بجانبه، ولكن عندما أدركت أن مجرى الأحداث لا يسير لصالحها، أدارت في الحال دفّة سفينتها، ولاذت بالفرار، وحين أدرك أنطونيو أن الملكة، قاسية الفؤاد، قد تخلّت عنه، انسحب من المعركة في اللحظة الحرجة، ليقتفي أثرها.

قال لنا مدرِّس التاريخ:

ـ هذا الرجل أنطونيو، يا أولاد، طارد امرأة، وفقد حياته. إنه أعظم أحمق في التاريخ. إنه، في الواقع، أضحوكة على مرّ العصور. شيء مؤسف أن يلقي ذلك البطل المغوار نهايته على هذا النحو...

كان أسلوب المدرِّس في الشرح غاية في الغرابة، فانفجرنا ضاحكين في وجهه. وقد ضحكت أنا أيضاً، بطبيعة الحال.

ولكن هنا يكمن جوهر القصة. لم أستطع أن أفهم السبب الذي جعل أنطونيو يقع في غرام امرأة مثل هذه لا قلب لها. ولم يكن أنطونيو فقط، بل لقد وصم العظيم يوليوس قيصر، من قبله، نفسه بالوقوع في حبائل كليوباترا وثمة أمثلة أخرى عديدة. فعندما يدقِّق المرء في حقيقة المعارك التي دارت بين الأسر إبّان فترة توكوجاوا، أو نشوء وسقوط الدول، سيجد دائماً، في خلفية الأحداث، خدعاً لامرأة فاتنة رائعة الجمال. ولكن، هل هذه الخدع بريئة ومحبوكة ببراعة، تحول دون أن يكتشفها أحد؟ لا أظن ذلك. وقد تكون كليوباترا داهية، ولكن من غير المرجح أنها كانت أكثر دهاءً من قيصر أو أنطونيو. وإذا كان الرجل يقظاً، وليس من الضروري أن يكون بطلاً، فسيدرك ما إذا كانت المرأة مخلصة وتقول الحقيقة، أم لا. والذي يسمح لامرأة بخداعه، هو رجل ضعيف القلب. وإذا كانت هذه هي حالة أنطونيو، إذن ليس هناك شيء جدير بالإعجاب في الأبطال...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت هذه هي معتقداتي السريّة في ذلك الوقت، وقد تقبّلت الحكم الذي أصدره مدرّسي على مارك أنطونيو عندما قال إنه «أضحوكة العصور» و «أعظم أحمق في التاريخ».

في لحظة خاطفة جالت كلمات المدرِّس في خاطري، وتذكّرت نفسي وأنا أضحك مع الطلاب الآخرين. وفي كل مرّة أسترجع ذلك المشهد، أدرك أنني لم أعد في وضع يؤهّلني للضحك على أنطونيو، فقد تفهّمت الآن السبب الذي أدّى إلى أن يجعل بطل روماني من نفسه أحمق ـ السبب الذي أوقع أنطونيو في شرك امرأة فاتنة من دون أن يبدي أية مقاومة. ووجدت نفسي متعاطفاً معه.

يقال عادة إن «النساء تخدع الرجال»، ولكني أقول، من وحي تجربتي، إن البداية لا تكون بخديعة المرأة للرجل. ولكن ما يحدث هو أن الرجل يبتهج، دون أي سبب، عندما يتعرّض للخديعة، وعندما يقع في حب إمرأة، يكون لكل كلمة تقولها، سواء صادقة أو كاذبة، وقع خاص على أذنيه. بينما تضع رأسها على كتفه، وتذرف الدمع الكاذب، يعتنق وجهة النظر الكريمة ويقول: «آه، تحاولين النجاح في التعامل معي، والوصول إلى شيء ما. لكنك كائنة لطيفة معبودة. أعرف ما تسعين إليه، سأتركك تغرينني. امض قدماً واجعليني شخصاً أحمق». ويستمر في اللعبة، وكأنه يريد إدخال السعادة إلى قلب طفل صغير ولا تكون لديه نية الموافقة على الانقياد لتضليلها. بل على العكس يكون مقتنعاً بأنه هو الذي يخدعها.

أنا وناوومي كنا حالة إلى حدٍّ ما. عندما قالت لي: «أنا أذكى منك يا چوچي اعتقدت أنها نجحت في خداعي. ولعبت أنا دور الأحمق وتظاهرت بأن خداعها قد انطلى عليّ. كنت أشعر بالسعادة عندما أتركها تحس بالرضا عن نفسها، وأراقب المرح على وجهها، بشكل يفوق سعادتي

لو اكتشفت أن كذبتها السخيفة لم تنطل عليّ. وتصرّفي بهذا الشكل جعل ضميري مرتاحاً.

فإذا لم تكن ناوومي امرأة تتمتع بذكاء خاص، فليس من الخطأ أن أمنحها الثقة في ذكائها. ذلك أن أكبر نقطة ضعف في المرأة اليابانية هي افتقارها للثقة في نفسها. ونتيجة لذلك فإنها تبدو رعديدة بالمقارنة مع المرأة الغربية. وبالنسبة لمقاييس الجمال العصرية، فإن الذكاء، سرعة البديهة، والتصرف، أهم بكثير من مقاييس جمال الجسم. وإذا ما افتقرت المرأة للثقة الحقيقية، فإن أية كلمة بسيطة وتافهة تكفيها. وتعتقد أن قولها «أنا ذكية» أو «أنا جميلة» تجعل منها فعلاً امرأة جميلة. ولأنني كنت مؤمناً بهذا في ذلك الوقت، لم أتسرّع في إحباط مزاعم ناوومي بشأن ذكائها، بل إنني بذلت كل ما أستطيع لتعزيز هذه المزاعم. ولأنها كانت على استعداد لأن تُخدع، فقد ناورتها لتشعر بثقة أكبر في نفسها.

ومن الأمثلة على ذلك، أنه كان بوسعي الفوز في ألعاب الشطرنج والورق، التي كنا عادة ما نلعبها في تلك الأيام، لكنني كنت غالباً ما أتركها تفوز عليّ. وفي النهاية تشعر بالزهو، وتقول: «إنني أفضل كثيراً منك في اللعب». وتتحدّاني بازدراء قائلة: «هلمّ يا چوچي! سألحق بك هزيمة أخرى قاسية». فأردّ عليها قائلاً:

ـ ليكن. تعرفين أنني لن أخسر مباراة أمام مثيلاتك، إذا ما لعبت بجدية. ولكن بكونك طفلة، فأنا ألعب باستهتار.

ـ لا أعذار. سوف أصغي لخطبك الرائعة بعد أن تفوز.

ـ لنبدأ. سوف أفوز هذه المرة، وسترين.

ثم ألعب بشكل سيء متعمِّداً، وأتركها، كالعادة، تهزمني.

ـ ما رأيك يا چوچي؟ كيف تشعر وأنت تُهزم على يد طفلة؟ لا أمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيك. مهما تقول، فلن تباريني. يا للعجب يا چوچي! رجل ناضج في الحادية والثلاثين من عمره تهزمه فتاة في الثامنة عشرة من عمرها! أنت لا تعرف طريقة اللعب.

ويتزايد زهوها بنفسها فتقول: أظن أن الذكاء أكثر أهمية من العمر، أليس كذلك؟ أو تقول: أنت أحمق... لا بد أن تتقبّل ذلك.

كانت نتيجة كل هذا مثيرة. ففي البداية كنت أتقبّل كلام ناوومي، من قبيل المسايرة، أو على الأقل هذا ما كنت أظنّه. ولكن بالتدريج، أصبحت هزيمتي عادة، فزادت ثقة ناوومي بنفسها، لم أعد الآن أستطيع التغلّب عليها مهما بذلت من جهد.

ليس الذكاء وحده هو الذي يحسم الفوز أو الهزيمة. بل إن هناك شيئاً آخر مثل الروح، أو بمعنى آخر، الكهرباء الحيوانية. وينطبق هذا على المقامرة، بوجه خاص. فعندما نلعب مباراة فاصلة، تهاجم ناوومي منذ البداية، بتركيز وقوة عجيبين، فأفقد توازني، ولا تتاح لي فرصة المبادرة على الإطلاق.

قالت في نهاية المطاف:

ـ لن يكون الأمر ممتعاً، ما لم نلعب من أجل المال.

وبعد أن تعودت على ذلك، لم تعد تلعب بدون المقامرة. وكلما زادت المقامرات، تعرّضت لخسائر مالية أكبر. ورغم أنه لم يكن باسمها فلس واحد، إلا أنها كانت تحدِّد دائماً قيمة الرهان: عشرة أو عشرون سناً(*)، وتسحب ما تريد من أموالي.

(*) السن: عملة يابانية صغيرة.

وتقول بلهجة تحدٍّ:

ـ باستطاعتي ابتياع ذلك الكيمونو لو كان معي ثلاثون ينـاً. هلمّ لنلعب الورق لأحصل على ما أريد!

وحينما تخسر كانت تلجأ لحيل أخرى للحصول على المال الـذي تريـده. وتفعل كل ما في وسعها لتحقيق ذلك.

كـانت ترتـدي، بصفة عـامة، ثـوباً فضفـاضاً، عنـدما نلعب، يكشف أجـزاء من جسدهـا، حتى تستطيـع توظيف «حيلهـا» حينما تكـون بحاجـة لـذلك. وعنـدما يجـانبها الحظ السيّء في اللعب، تـتراخى على مقعـدها، وتفك أزرار ثوبها، وتكشف عن ساقيها، وإذا ما فشلت كـل هذه الحيـل، تستلقي في حجري وتلاطف خدي، وتلاعب ركن فمي. باختصار تحاول، بكل الطرق، إثارتي. وكانت مقاومتي ضئيلة أمام هذه الحركـات، وخاصـة عندما توظف حيلتها الأخيرة (التي لا أستطيع وصفها كتـابة)، حيث يـدور رأسي، وتظلم الأشياء من حولي، ولا أتمكّن من متابعة اللعبة.

ـ ليس هذا عدلاً يا ناوومي.

ـ بـل إنه عـدل. من المسموح استخـدام هذا النـوع من الحيـل، وأنت تعرف ذلك.

وكلما انصرف انتباهي أكثر فأكثر عن اللعبة، يصبح كـل شيء أمام عيني ضبابياً، وأكاد بصعوبة أتعرَّف على ملامح وجهها المثير.

ـ ليس عدلاً، ليس عدلاً، هذه ليست طريقة لعب الورق.

لِمَ لا؟ حين يلعب الرجال والنساء، يستخـدمون كـل أنواع الحيـل. لقد رأيتهم. فعنـدما كنت صغـيرة، كثيراً مـا كنت أشاهـد أختي الكبـيرة وهي تلعب الورق مع الرجال، وكانت تمارس كل أنواع الحيل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعتقد أنه عندما هزمت كليوباترا أنطونيو، حدث الأمر بهذه الطريقة. شيئاً فشيئاً سُلبت منه مقاومته، ووقع في الشرك. أمر رائع أن يمنح المرء الثقة للمرأة التي يهواها، ولكنه سيفقد، نتيجة لذلك، ثقته في نفسه. وعندما يحدث ذلك لن تكون هناك طريقة للتغلب على إحساسها بالتفوّق، الأمر الذي يفضي إلى سلسلة من المآسي لا يمكن تخيّلها.

- ٨ -

في مساء يوم حار من أوائل شهر سبتمبر (أيلول) في خريف العام الثامن عشر من عمر ناوومي، غادرت المكتب مبكراً ساعة عن موعد انتهاء دوامي. نظراً لقلّة العمل، وعدت إلى البيت. دهشت حينما وجدت شاباً، لم أره قط من قبل، يقف في الحديقة، ويتحدّث مع ناوومي.

بدا لي في عمر ناوومي تقريباً أو أكبر بعام على الأكثر. كان يرتدي كيمونو أبيض سادة، وقبعة من القش على نمط «اليانكي» الأميركي، مزيّنة بشريطة زاهية. راح ينقر، وهو يتحدَّث، على مقدمة خفه الخشبي بعصاه. كان وسيم الملامح، كثيف الحاجبين، لكن وجهه اكتسى بالبثور.

جثت ناوومي عند قدميه، وراء حوض الزهور، حيث لم أتمكَّن من رؤيتها جيِّداً، لكني لمحت جزءاً من وجهها وشعرها، وسط الأزهار.

رفع الشاب قبعته، عندما رآني، وانحنى لناوومي، وقال لها، وهو يحث الخطى باتجاه البوابة: أراك فيما بعد.

قالت ناوومي، وهي تهم بالوقوف:

- إلى اللقاء.

فردّ، دون أن يلتفت إليها:

- إلى اللقاء.

وحين مرَّ أمامي، لمس حافة قبعته، كما لو أنه يحاول إخفاء وجهه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سألتها، بدافع الفضول عن المشهد الغريب الذي رأيته لتوّي، أكثر من الغيرة:

ـ من ذلك الشاب؟

ـ إنه صديقي. يدعى هامادا.

ـ منذ متى تعرفينه؟

ـ آه. منذ فترة طويلة. إنه يتلقّى دروساً في الأصوات، في «إيساراجو» أيضاً. إن البثور تكسو وجهه، لكنه مدهش عندما يغنّي. وقد غنّينا معاً لحناً رباعياً، في الحفل الموسيقي الأخير.

أمعنت النظر في عينيها، فقد أثار تعليقها غير المبرّر عن وجهه شكوكي، لكنها بدت طبيعية، وتصرّفت بطريقة عادية، كما تتصرّف دائماً.

ـ هل يأتي إلى هنا عادة؟

ـ لا. هذه هي المرّة الأولى. كان في الجوار، فعرج عليّ، ليخبرني أنهم افتتحوا نادياً للرقص، ويطلب مني الاشتراك فيه.

شعرت، في الواقع، بالحيرة، لكني بدأت، بعد أن استمعت إليها، أقتنع بما قالته. ربما كان هذا هو كل ما جاء الشاب من أجله. لقد كانا يتحدثان معاً في الحديقة، في وقت من المحتمل أن أعود فيه إلى البيت، وذلك يكفي لتبديد شكوكي.

ـ هل ستسمح لي بالاشتراك؟

ـ سأفكّر في الأمر.

فقالت بلهجة ملاطفة:

ـ هل ستوافق؟ أرجوك أن توافق! لِمَ لا تنضم أنت أيضاً؟ بإمكاننا الذهاب معاً.

ـ أيمكنني الانضمام للنادي، أيضاً؟

ـ يمكن لأي شخص الاشتراك. فالمدرّسة روسية، وتعرفها الآنسة سوجيزاكي في «إيساراجو». لقد فرَّت من سيبريا إلى هنا، وليس معها أي مال، لذلك افتتحت الآنسة سوجيزاكي هذا النادي لتساعدها. وكلما زاد عدد الطلاب، أصبح الوضع أفضل. آه. أرجو أن تسمح لي بالانضمام!

ـ ليكن. ولكني لا أعرف إذا كنت أستطيع تعلّم الرقص الغربي.

ـ بالطبع تستطيع، وسوف تتعلّمه بسرعة.

ـ لكني لا أعرف شيئاً عن الموسيقى.

ـ سوف تتعوَّد عليها، وأنت تتعلَّم الرقص. إنها ليست مسألة صعبة. يتعينَّ أن تنضم للنادي يا چوچي. لا أستطيع أن أذهب بمفردي لأرقص، وهذا سيجعلنا نخرج معاً أحياناً. شيء ممل أن نظل في البيت طوال الوقت.

لقد واتاني شعور من قبل أن ناوومي قد بدأت تملّ الحياة التي نحياها. قد مرَّ أكثر من ثلاثة أعوام على إقامتنا في عشنا في «أوموري». قضينا كل وقتنا بمفردنا معاً في بيت «الروايات الخيالية» باستثناء إجازات الصيف. تجنبنا الاتصال بالآخرين في الخارج، ومهما كان نوع الألعاب التي نلعبها معاً، لتمضية الوقت، فإنها تشعر بالملل في نهاية المطاف، ويتلاشى اهتمامها بأي نوع من أنواع التسلية، وهو ما أدَّى إلى تفاقم الأمور. ففي البداية تنهمك تماماً في أي نشاط جديد، لكن اهتمامها هذا سرعان ما يتلاشى. وكانت، من ناحية أخرى، تحاول أن تجد شيئاً تفعله، لتشغل نفسها فعندما تملّ ورق اللعب، الشطرنج، وتقليد ممثّلات السينما، تتحوَّل إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حوض الزهور، الذي أهملته فترة طويلة، فتعتني بالأزهار، وتقلب التربة، وتبذر البذور وترويها، لكن هذا أيضاً لم يكن سوى مجرّد نزوة عابرة.

كانت تقول:

ـ حياة مملّة، أليس هناك شيء أفعله؟

وتستلقي على الأريكة، وتنحي الرواية التي بدأت في قراءتها لتوها جانباً، وتتثاءب. كنت أتمنّى، عندما أراها في هذه الحالة، أن أجد طريقة لإضفاء قليل من التنوع على حياتنا المملّة. وحين طرحت فكرة الرقص في ذلك الوقت، رأيت أنها ليست فكرة سيِّئة. فناوومي لم تعد الفتاة التي عرفتها منذ ثلاث سنوات حين ذهبنا إلى «كاماكورا» معاً. لقد تغيّرت الأمور. فإذا ما ابتعت لها ثياباً فاخرة، وقدّمتها للمجتمع الراقي الآن، فقد تستطيع مجاراة معظم السيدات الأخريات. شعرت بالزهو، وأنا أفكّر في كل هذا.

لم يكن لديّ، كما قلت من قبل، أي أصدقاء مقرَّبين، ولا حتى أيام الدراسة، وحاولت تجنّب إقامة أية علاقات غير ضرورية، ولكني لم أمانع بالتأكيد في مسألة الاختلاط بالمجتمع الراقي. ولكوني من الريف، ولا أجيد المزاح الاجتماعي، والتعامل مع الناس، فقد أصبحت خجولاً، أنسحب من أية لقاءات اجتماعية. ولذلك السبب كان للمجتمع الساحر جاذبيته الخاصة لديّ. لقد تزوّجت ناوومي لأنني أردت، في المقام الأول، أن أجعلها امرأة جميلة، أخرج معها كل يوم، وأجد من يمتدحها. كنت أريد أن أسمعهم يقولون في المجتمع الراقي: «إن زوجتك سيّدة أنيقة للغاية». ومن منطلق هذا الطموح، لم أكن أرغب في أن أتركها في «قفص الطائر» إلى الأبد.

قالت لي ناوومي إن مدرِّسة الرقص الروسية كونتيسة، تدعى ألكسندرا

شلمسكايا، اختفى زوجها، الكونت، خلال الثورة. كان لديها ابنان، لكنها لا تعرف مكانهما، بل إنها نجحت بصعوبة في الهرب إلى اليابان. وبما أنه لم يكن لديها أي مورد للرزق، فقد قرَّرت في النهاية تدريس الرقص. وقامت الآنسة سوجيزاكي، مدرِّسة ناوومي للموسيقى، بتأسيس النادي، لمساعدة الكونتيسة، أما سكرتير النادي فهو صديق ناوومي هامادا، وهو طالب في جامعة كيو.

تُقدَّم الدروس في الطابق الثاني من محل يسمى «يوشيمورا»، يتعامل في الآلات الموسيقية الغربية، ويقع عند منحدر «هيجيري» في «ميتا». وتأتي الكونتيسة مرّتين في الأسبوع، يومي الإثنين والجمعة، وباستطاعة أعضاء النادي اختيار أية ساعة ملائمة بين الرابعة والسابعة مساءً. ويبلغ رسم الاشتراك عشرين يناً للشخص في الشهر، يُدفع مقدماً. وسيتعيّن عليّ وناوومي دفع أربعين يناً. رأيت أنه من السخف دفع مبلغ كبير مثل هذا، حتى لو كانت المدرسة غربية، لكن ناوومي أصرَّت على أن الرقص الغربي يماثل الرقص الياباني التقليدي ـ نوع من الترف، وعلى المرء أن يدفع ثمناً لهذا. لم يكن من الضروري أن أتلقّى دروساً لفترة طويلة جداً؛ فشهر واحد يكفي لشخص يتمتع بموهبة، بل إن باستطاعة شخص قليل الموهبة أن يتعلَّم الرقص في ثلاثة أشهر، ولن تكون الدروس مكلفة على الإطلاق.

قالت ناوومي:

ـ أولاً يتعيَّن علينا مساعدة السيِّدة شلمسكايا، هذه المرأة المسكينة، التي تعوَّدت أن تكون كونتيسة. تخيَّل مدى معاناتها في هذا العالم! يقول هامادا إنها راقصة ممتازة، باستطاعتها تدريس الرقص المسرحي أيضاً، إذا ما أراد أحد تعلّمه. فالمحترفون لا يعرفون كيفية تدريس الرقص، ولذلك يتعيّن أن تتعلَّم من راقصة مثلها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت ناوومي تتحدَّث عنها، كما لو أنها تعرف كل شيء عن الرقص، بل راحت تشيد بحرارة بالكونتيسة، التي لم ترها حتى الآن.

لذلك انضممت أنا وناوومي للنادي، اتفقنا على الالتقاء كل يوم إثنين وجمعة في الساعة السادسة مساء عند محل الآلات الموسيقية الكائن عند منحدر «هيچيري». كانت ناوومي تذهب إليه بعد الانتهاء من درس الموسيقى، وأنا بعد الانتهاء من عملي. قابلتني ناوومي، في اليوم الأول، في الساعة الخامسة عند محطة «تاماشي» وصحبتني إلى محل الآلات الموسيقية، وهو عبارة عن متجر ضيِّق، صغير يقع عند منتصف المنحدر، وبداخله تصطف آلات عديدة: بيانو، أرغن، صاكي، وآلات أخرى متراكمة في مكان ضيِّق. سمعنا صوت الخطوات الراقصة، وموسيقى الفونوغراف الآتية من الطابق الثاني؛ يبدو أن دروس الرقص قد بدأت بالفعل. راح خمسة أو ستة شباب، يدل مظهرهم على أنهم من طلاب جامعة كيو، يتسكَّعون عند سفح الدرج، ويحدِّقون فينا بطريقة غير مريحة.

ثم صاح أحدهم بصوت عال، ولكنه ودي: «ناوومي!». إنه أحد الطلاب، وكان يحمل آلة تماثل إلى حدٍّ ما الغيتار الياباني. أيمكن تسميتها بالمندولين المفلطح؟. أخذ يجذب أوتارها السلكية، وهو يعزف عليها.

ردَّت ناوومي:

ـ أهلاً. كيف حالك يا ماشان؟ هل سترقص؟

قال مقطباً، وهو يضع المندولين على الرف:

هذه الدروس لا تناسبني. إن عشرين يناً في الشهر، بالنسبة للمبتدئين، مبلغ كبير جداً.

ـ ولكن ماذا بوسعك أن تفعل، وأنت مجرَّد مبتدىء؟

ـ في وقت قريب جداً ستتعلّمون جميعاً أصول الرقص، وسوف تعلّمونني. إذن لماذا أنفق هذا المبلغ الكبير؟ المسألة بسيطة، أليس كذلك؟

ـ يا لك من ماكر يا ماشان! قل لي هل هاما فوق؟

ـ نعم إنه هناك. اصعدي لتلقي نظرة.

بدا المحل كمأوى للطلاب المقيمين في الجوار. شعرت أن ناوومي قد تردَّدت كثيراً على المكان، فقد كان الجميع يعرفها.

قلت لها، وهي تتقدمني على الدرج:

ـ من أولئك الطلاب يا ناوومي؟

ـ إنهم أعضاء نادي مندولين بجامعة كيو. شباب غير مهذبين، لكنهم ليسوا سيئين.

ـ أهم جيمعاً أصدقاؤك؟

ـ ليسوا أصدقاء بالمعنى الحقيقي. لقد تعرَّفت عليهم أثناء تواجدهم هنا، حين جئت لأبتاع بعض الأشياء.

ـ هل سيكون أعضاء النادي، من هذه النوعية؟

ـ أنا مندهشة، ولكن لا أظن ذلك. أعتقد أن معظمهم سيكون أكبر سناً. على أية حال سنرى.

كانت قاعة التمرين تقع عند رأس الممر بالطابق الثاني. وبمجرَّد أن وصلنا إلى أعلى الدرج، رأينا خمسة أو ستة أشخاص يراوحون الخطى بأقدامهم وهم يكرِّرون: «واحد، إثنان، ثلاثة» بالإنجليزية، وقد أزيلت الحواجز بين حجرتين على النظام الياباني، لتشكّل مساحة رحبة، ووضعت أرضية خشبية كي نضع عليها الأحذية. أخذ هامادا ينثر المسحوق على الأرضية، ليجعلها أكثر انزلاقاً، على ما أظن. كانت الأيام في ذلك الوقت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من العام ما تزال طويلة وشديدة الحرارة، وقد تسلّلت أشعة شمس الأصيل، من خلال النوافذ المفتوحة، في الجانب الغربي. وقفت امرأة بمفردها، وسط وهج الشمس الأحمر الشاحب، في منتصف الحجرة، وقد ارتدت قميصاً من «الجورجيت»، وتنورة من الصوف ذات لون أزرق قاتم. كانت بالطبع السيِّدة شلمسكايا. ولأنني قد عرفت أن لديها طفلين، فقد خمّنت أنها في الخامسة والثلاثين، أو السادسة والثلاثين من عمرها، لكنها بدت في نحو الثلاثين فقط. اتسمت ملامحها بجلال ووقار امرأة أرستقراطية المنبت، وأكّدت بشرتها الشاحبة الصافية ذلك الجلال. وعندما لاحظت تعبيراتها التي تنم عن ثقة كبيرة في النفس، وملابسها، التي تدلّ على ذوق رفيع، والمجوهرات، التي تتلألأ فوق صدرها وحول أصابعها، وجدت من الصعب تصديق ما قيل لي عن مدى فقرها.

أخذت تحدِّق في أقدام الطلاب، وهي تمسك بسوط قصير في يدها، وتكرِّر قائلة: «واحد، إثنان، ثلاثة» وقد أصبحت «ثلاثة» بلهجتها الإنجليزية «تلاتة» لكنها ردّدتها بهدوء ورزانة. وفي أعقاب توجيهاتها، شكل الطلاب خطاً، وتحركوا للأمام والخلف، في خطوات غير متزنة. بدت مثل ضابطة تدرّب جنوداً؛ وذكّرني المشهد بأوبرا **جيش المرأة يتوجه إلى الجبهة** التي شاهدتها على خشبة مسرح «التنين الذهبي» في أساكوسا. كان من بين تلاميذها شاب يرتدي حلّة ربما لم يكن طالباً جامعياً، وفتاة ترتدي ثياباً متواضعة بدت من أسرة محترمة، وقد خرجت لتوها من كلية البنات. كانت تؤدّي الرقص بحماس، مع رجل يرتدي ملابس يابانية. دلّ شكلها على أنها فتاة غاية في الجدية، تترك انطباعاً طيِّباً في النفوس. بمجرَّد أن يقوم أحد الطلاب بخطوة خاطئة، تلفظ الكونتيسة لفظ «لا» بحدّة، وتتجه نحوه، لتريه طريقة تأديتها. وإذا ما وجد أحدهم صعوبة في التعلّم، وارتكب العديد من الأخطاء، تصيح قائلة «أداء غير جيِّد»، وتفرقع

بسوطها على الأرض. وأحياناً ما تلسع به قدمي أحد الطلاب بقسوة، ولا فرق عندها إذا كان المخطىء رجلاً أم امرأة.

ـ يا إلهي! إنها مُدرسة في غاية الحماس، أليس كذلك؟ إن هذه أفضل وسيلة للتعلّم.

ـ نعم حقاً. إن السيّدة شلمسكايا غاية في الحماس، ولا يرقى إلى مستوى تدريسها أي مدرس ياباني. فالغربيون، حتى السيّدات منهم، في غاية البراعة، ولا يتكاسلون أبداً. سوف تستمر في إعطاء دروسها على هذا النحو لساعات إلى أن تنتهي، دون أن تأخذ فترة راحة، حتى في مثل هذا الطقس الحار. عرضت عليها أن أحضر لها بعض البوظة، لكنها رفضت. وقالت إنها لا تريد أي شيء أثناء الدروس.

ـ يا إلهي! إنها أعجوبة. لا تشعر بالتعب.

ـ يتمتع الغربيون بأجسام قوية. فهم ليسوا مثلنا. لكني أشعر بالأسف من أجلها. لقد كانت زوجة لكونت، كما تعرف، وتعيش في بحبوحة، أما الآن وبسبب الثورة، فقد اضطرت للقيام بمثل هذا النوع من العمل.

جلست امرأتان فوق أريكة طويلة في الحجرة المجاورة، تراقبان ما يجري خلال الدرس، وتتحدثان عنه بإعجاب. كانت إحداهما سيّدة في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمرها، بدت بفمها الواسع وشفتيها الرقيقتين، ووجهها المستدير، وعينيها الناتئتين مثل سمكة ذهبية صينية. كان شعرها مصفّفاً من الأمام للخلف، بطريقة تشبه مؤخرة حيوان الشيهم(*)، وشبكت عند مؤخّرة عنقها دبوس شعر ضخماً أبيض اللون من عظم ظهر السلحفاة. كان نطاقها، المغزول على الطريقة المصرية. ينتهي

(*) الشيهم حيوان شائك من القوارض.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمشبك من اليشب. هذه السيّدة هي التي أبدت تعاطفاً وإشادة بالسيّدة «شلمسكايا». أمّا المرأة الأخرى التي تتحدّث معها فبدت في الأربعين من عمرها ـ وظهرت بشرتها المجعّدة المتشقّقة من خلال المساحيق الكثيفة البيضاء، التي تلطّخت بالعرق. كان شعر مؤخرة رأسها الأحمر، سواء كان مصبوغاً أو طبيعياً، أشعث وأجعد. كانت طويلة ونحيفة، وترتدي ملابس مبهجة، ولكنها بدت في هيئة ممرّضة سابقة.

انتظر بعض المحيطين بهاتين السيّدتين دورهم، وهم يشعرون ببعض الخجل، بينما أخذ آخرون، بدوا وقد تلقوا بالفعل بعض الدروس، يرقصون في ثنائيات عند طرف الحجرة.

اندفع هامادا، أمين النادي، ربما بناء على أوامر من الكونتيسة، أو بمبادرة خاصة منه، لتغيير التسجيلات محل الحاكي، وقدَّم نفسه كشريك لأولئك الذين يرقصون عند طرف الحجرة. رحت أتساءل بيني وبين نفسي عن نوعية الرجال الذي يرغبون في تلقّي دروس في الرقص، وتجوّلت بعينيّ بين الرجال الواقفين في الحجرة. اكتشفت أن هامادا هو الوحيد بينهم الذي يبدو أنيق المظهر. أما معظم الآخرين فقد ارتدوا حللاً زرقاء تفتقر إلى الذوق وتتكوّن من ثلاث قطع، فبدوا فيها مثل عمّال معدمين لا يتمتعون بالذوق في اختيار ملابسهم. كانوا جميعاً أصغر سنّاً مني، فيما عدا رجل واحد فقط، قد يكون في العقد الثالث من العمر، يرتدي معطفاً ويضع فوق عينيه نظارة ذات زجاج سميك، وإطارات مذهّبة، وقد أطال شاربه على الطريقة القديمة. وبّخته الكونتيسة، لأنه أبطأ المتعلّمين، وصاحت فيه: «سيّىء»، وفرقعت سوطها عليه، المرّة تلو الأخرى. قطب بغباء، وقد شحب وجهه، وبدأ من جديد يخطو «واحد، إثنان، ثلاثة». تساءلت: ما الذي أتى برجل في هذه السن ليتلقّى دروساً في الرقص؟ لكنني سرعان ما أدركت أنه ليس هناك فرق كبير بينه وبيني. إلا أنني لم أتردَّد من قبل على

مثل هذه الأماكن، ورغم أنني هنا باعتباري مجرّد شريك لناوومي، لكنني اعتقدت أنني سأغرق في حمّام من العرق البارد، حين تصوّرت نفسي محطّ النظرات المتفحصة للسيدات، والتوبيخ المستمر من تلك الكونتيسة الغربيّة. وشعرت بالرعب في انتظار اللحظة التي سيأتي فيها دورنا.

قال هامادا: أهلاً ومرحباً.

جاء للتحية، وهو يجفّف جبهته المغطاة بالبثور بمنديل، بعد أن رقص مرّتين أو ثلاث مرّات.

قال لي بشيء من الاعتداد بالنفس:

ـ فرصة طيّبة أن أراكما مرّة ثانية.

ثم وجّه حديثه إلى ناوومي، قائلاً:

ـ أشكر لك قدومك في هذا الجو الحار. هل معك مروحة أستطيع اقتراضها منك؟ ليس من السهل القيام بمهمة المساعد، أخرجت ناوومي مروحة من نطاقها، وأعطتها له، قائلة:

ـ لكنك ممتاز يا هامادا، بما يؤهّلك لتكون مساعدها. متى بدأت في تلقّي الدروس؟

ـ أنا؟ منذ نحو ستة أشهر. لكنك سريعة الاستيعاب، وسوف تتعلّمين بسرعة.

سألته بدوري.

ـ مَن هؤلاء الشباب الموجودون هنا اليوم؟

ـ معظمهم من موظفي شركة البترول الشرقية. إن أحد أقارب الآنسة سوجيزاكي عضو في مجلس الإدارة، وأعتقد أنه أحاطهم علماً بافتتاح النادي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت لنفسي، شركة البترول الشرقية والرقص، توليفة غريبة، فسألته:

ـ إذن ذلك الرجل ذو الشارب، أهو موظف بالشركة أيضاً؟

ـ لا. إنه طبيب.

ـ طبيب؟

ـ نعم. إنه يعمل مستشاراً صحياً بالشركة. يقول إنه ليس هناك شيء يعادل الرقص كتمرين للجسم، وهذا هو ما يجعله يتلقّى دروساً فيه.

تدخلت ناوومي قائلة:

ـ حقاً؟ هل الرقص رياضة جيّدة يا هامادا؟

ـ بالتأكيد. إنك تتصبّبين عرقاً، حتى في الشتاء، ويبتلّ قميصك. إنه رياضة جيِّدة، خاصة بالطريقة التي تعلّمه بها السيّدة شلمسكايا.

ـ هل تتكلّم اليابانية؟ لقد فكّرت في هذا الأمر بعض الوقت.

ـ لا، على الإطلاق. إنها تتكلّم الإنجليزية معظم الوقت.

ـ الإنجليزية. إنني لا أجيد التحدث بها، وبالتالي فإنه من الأفضل أن....

ـ هراء، إننا جميعاً في قارب واحد، بل إن السيّدة شلمسكايا نفسها تتحدّث بلغة إنجليزية ركيكة للغاية، وقد تكون أسوأ حالاً منا. ليس في الأمر ما يدعو إلى القلق. كما أن دروس الرقص لا تتطلّب منك كلاماً. إنها مجرّد «واحد، إثنين، ثلاثة»، ثم تقلّدين حركاتها.

قالت السيّدة، ذات العينين الناتئتين، التي تبدو مثل سمكة ذهبية صينية، وتضع دبوس شعر أبيض من عظم ظهر السلحفاة:

ـ آه.. الآنسة ناوومي، متى وصلت؟

ـ أهلاً يا آنسة سوجيزاكي.

وأمسكت ناوومي بيدي، وقادتني نحو الأريكة التي تجلس عليها مدرسة الموسيقى، وقالت:

ـ آنسة سوجيزاكي أقدِّم لك السيِّد كاواي چوچي...

نهضت الآنسة سوجيزاكي، قبل أن تنتظر سماع المزيد، وانحنت، ثم قالت:

ـ كيف حالك؟ يسعدني التعرّف بك. اسمي سوجيزاكي. أشكرك كثيراً لحضورك اليوم. أحضري ذلك الكرسي، يا آنسة ناوومي! ثم التفتت إليّ مرّة أخرى، وقالت:

ـ هلاّ جلست، سرعان ما سيأتي دورك، ولا نريدك أن تشعر بالضجر وأنت تنتظر، تفضّل!

لا أتذكّر بماذا أجبتها ولكن يحتمل أنني دمدمت ببعض الكلمات. فأنا لا أجيد التعامل مع نساء يستخدمن مثل تلك اللغة الرسمية المتكلِّفة. ولكني كنت محرجاً طوال الوقت، لأنني نسيت أن أسأل ناوومي عن مدى إطلاع السيدة على علاقتنا.

أشارت الآنسة سوجيزاكي إلى السيدة ذات الشعر المتجعِّد، دون أن تبالي بارتباكي، وقالت:

ـ هل لي أن أعرِّفك بالسيدة چيمس براون من يوكوهاما. هذا السيد كاواي چوچي ويعمل في إحدى الشركات الكهربائية في أويماشي.

قلت لنفسي إذن فالمرأة زوجة لأجنبي. تأمّلتها فبدت أقرب إلى خليلة رجل أجنبي، منها إلى ممرضة. انحنيت لها انحناءة رسمية جداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت:

ـ اسمح لي! هل هذه هي «المرة الأولى» التي تأتي فيها إلى هنا.

لم تعجبني الطريقة التي نطقت بها عبارة «المرة الأولى» بلغة إنجليزية مدلّلة، كما أنها تحدثت في غاية السرعة.

قلت بتململ:

ـ عفواً؟

فتولّت الآنسة سوجيزاكي الرد عني، قائلة:

ـ نعم إنها المرة الأولى له، فهو مجرّد مبتدىء.

ـ آه. هكذا إذن؟ ولكن ألا تعرف أن تعلّم الرجل أكثر صعوبة بكثير من تعلّم المرأة، ولكن بمجرّد أن تبدأ، فإنك تستوعب كل شيء في الحال، ألا تعرف ذلك؟

كانت تتكلّم، وهي تنطق الحروف بطريقة عجيبة، وأحياناً تهمل نطق حرف أو أكثر في الكلمة الواحدة. كما أن طريقة نطقها باللغة اليابانية كانت غريبة هي الأخرى. وراحت تواصل التحدث بهذه الكلمات غير الواضحة، وتلقي بعبارة «ألا تعرف» الواحدة تلو الأخرى.

تحدَّثت عن السيدة «شلمسكايا» مرة أخرى، ثم عن الرقص، واللغات الأجنبية، والموسيقى ـ سوناتا بيتهوفن، السيمفونية الثالثة، وتسجيلات هذه الشركة أفضل من تسجيلات تلك... وهكذا.

لم أتمكّن من مسايرتها في الحديث، وأنا في هذه الحالة من الاكتئاب. ولهذا فقد وجهت حديثها نحو مدرسة الموسيقى. أدركت أن السيدة براون تتلقّى دروساً في العزف على البيانو عند الآنسة سوجيزاكي. ونظراً لأنني لم أتمكّن من انتهاز لحظة مناسبة للانسحاب بهدوء، فقد اضطررت للبقاء

محشوراً بين هاتين السيدتين الثرثارتين، وأنا أندب حظي العاثر.

حين أنهى الطبيب ذو الشارب، وبقية مجموعة شركة البترول درسهم، صحبتنا الآنسة سوجيزاكي، وقدّمتنا للسيدة شلمسكايا بلغة انجليزية سلسة ـ قدّمت ناوومي أولاً، ثم أنا، ربما من منطلق الأصول الغربية بأن تكون السيدات أولاً. دعت الآنسة سوجيزاكي ناوومي بـ «الآنسة كاواي». انتظرت بفضول لأرى طبيعة رد فعل ناوومي حين تواجه سيدة غربية وجهاً لوجه. شَعَرت بالذعر، وهي تقف في مواجهة كونتيسة. ورسمت السيدة شلمسكايا، التي لم تقل سوى كلمة أو إثنتين، ابتسامة فوق وجهها الجلي، ومدّت إليها يدها. تضرّج وجه ناوومي، وصافحتها دون أن تنظر إليها، أو تنطق بكلمة واحدة. كنت أسوأ حالاً منها عندما حان دوري. في الحقيقة لم أستطع التطلّع إلى وجه الكونتيسة الشاحب المهيب. تألّقت يدها بعدد لا يحصى من الماسات الصغيرة، التي لمستها صامتاً، ولم أرفع عيني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٩ -

اتجه ذوقي إلى الأناقة والعصرية، رغم أنني لم أكن أمتلك حساً جيِّداً، وحاكيت النمط الغربي في كل شيء، ويعرف قرّائي بالفعل الكثير في هذا الشأن. ولو كنت أملك قدراً من المال يكفي لتلبية حاجاتي، لذهبت للإقامة في الغرب، وتزوّجت من امرأة غربية، لكن ظروفي لم تسمح بذلك، وتزوّجت ناوومي، وهي امرأة يابانية ذات نكهة غربية. وحتى لو كنت ثرياً، وبإمكاني تحقيق رغبتي، فلم تكن لديّ ثقة في مظهري؛ فطولي يبلغ خمسة أقدام فقط، وبشرتي داكنة، وأسناني ناتئة، وكنت سأشعر بأنني لست في مكاني. لو أنني سعيت للاقتران بزوجة ذات جسم فخم من أجسام الغربيات. ولذلك فقد توصّلت إلى قناعة بأن الياباني يجب أن يتزوّج من يابانية، وباتت ناوومي الأقرب لتلبية احتياجاتي. وشعرت بالرضا.

مع ذلك، فقد أحسست بالسرور، بل بالشرف، لأنني بتّ على اتصال وثيق مع سيّدة غربية. كنت أشعر، في الواقع، بالاشمئزاز من إحساسي بالارتباك وعدم إتقان اللغات، للحد الذي جعلني أفقد الأمل في الالتقاء والتحدث إلى شخصية مثل الكونتيسة. ولتعويض ذلك، حرصت دائماً على الذهاب لمشاهدة عروض الأوبرا الغربية، ودراسة وجوه ممثّلات السينما، فيظل جمالهن مترسِّباً في ذهني، كالأحلام. ثم حقّقت لي دروس الرقص فرصة غير متوقعة للقاء امرأة غربية، بل وكونتيسة. ولو نحينا

الآنسة هاريسون العجوز جانباً، فإن هذه كانت أول مرّة في حياتي أتشرّف فيها بمصافحة سيدة غربية. وحين مدّت السيِّدة شلمسكايا يدها البضّة خفق قلبي وتردّدت، وأنا غير متيقن إذا ما كان من الصواب مصافحتها.

كانت يدا ناوومي رائعتين أيضاً ـ جميلتين ورقيقتين، ولهما أصابع طويلة ونحيلة. لكن يد الكونتيسة البضّة كانت قوية ولطيفة في الوقت ذاته؛ فراحتها ممتلئة وغضّة، وليست رقيقة مثل يد ناوومي، أما أصابعها فلا تعطي الانطباع بالضعف والنحافة، رغم طولها وطراوتها. كانت خواتمها الضخمة، التي تبرق مثل أعين عديدة، ستبدو مبهرجة في يد امرأة يابانية، لكنها جللت أصابع الكونتيسة جذّابة، متألّقة، وعكست ذوقاً رفيعاً، وحياة رغدة. والأمر الذي جعلها تختلف عن ناوومي كلية، وطغى على كل شيء، هو بياض بشرتها الناصع. بدت عروقها الأرجوانية الشاحبة، التي ظهرت بالكاد تحت سطح بشرتها البيضاء، كبقع على الرخام، رائعة الجمال. كنت غالباً ما أطري ناوومي على يديها، وأنا أداعبهما، فأقول لها: «إنك تتمتعين بيدين رائعتين، بضّتين كيدي إمرأة غربية». لكني أستطيع الآن وللأسف، رؤية الفرق. فيدا ناوومي ليستا ناصعتي البياض، فقد كانت شاحبتين بالمقارنة مع يدي الكونتيسة. الأمر الآخر الذي أثار انتباهي هو أظافر الكونتيسة. فالأظافر العشرة كلها متساوية مثل مجموعة من المحار، ومطليّة بلون وردي وهّاج، ومشذّبة على نحو بديع، ربما على أحدث صيحة غربية، كل ظفر على شكل مثلّث.

كنت قد ذكرت أن ناوومي أقصر مني بحوالي بوصة. ورغم أن الكونتيسة تعد قصيرة وسط الغربيات، إلا أنها كانت أطول مني. ربما يرجع ذلك إلى أنها تنتعل حذاء عالي الكعب، ولكن حين رقصنا معاً، كان رأسي على خط متساو مع صدرها البارز، حين قالت لي للمرّة الأولى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«تحرّك معي!» ولفّت ذراعها حول ظهري، وشرحت لي الخطوة الأولى، بذلت قصارى جهدي حتى لا يحتك وجهي الداكن ببشرتها! واكتفيت بمجرّد التحديق في بشرتها الناعمة، الصافية، من على بعد. بل لقد كنت أعتقد أنه من غير المناسب مصافحتها. والآن وبعد أن أصبح لا يفصل بين صدرها وبيني سوى قميص رقيق ناعم، شعرت كما لو أنني أمارس شيئاً محظوراً كلية. خفت أن تكون رائحة تنفّسي كريهة. وقد تسبّب لها يداي الزلقتان بعض الضيق. وحين انزلقت خصلة من شعرها فوقي، لم أتمكّن من كبح جماح الرعدة الباردة، التي سرت في أوصالي.

الأكثر من ذلك، أن لجسدها رائحة معيّنة رائعة. سمعت الطلاب في نادي المندولين يقولون في وقت لاحق إن رائحة إبطيها كريهة. وقيل لي إن رائحة أجسام الغربيات قوية، وليس هناك شك في أن ذلك ينطبق على الكونتيسة. ومن المرجح أنها تستخدم العطور لإخفاء هذه الرائحة. ولكن بالنسبة لي، فإن المزيج الرائع والكريه للعطر والعرق، لم يكن مثيراً للاشمئزاز على الإطلاق، بل على العكس، فقد وجدته جذّاباً للغاية، وجعلني أفكّر في أراضي عبر البحر لم أرها من قبل، وحدائق ذات أزهار فاتنة مثيرة.

قلت لنفسي، وأنا أستنشق الشذا بنهم ونشوة: هذا العطر أفرزه جسد الكونتيسة البضّ!

لماذا واصلت، وأنا الرجل الساذج الذي لا تناسبه كلية مباهج وأجواء الرقص، تلقّي الدروس لمدّة شهر، ثم لشهرين، دون أن يفتر حماسي؟ لم يكن ذلك من أجل ناوومي فقط. أعترف أن ذلك كان بسبب السيدة شلمسكايا. لقد أدخل الرقص معها، وهي تطوّقني لمدة ساعة، من عصر كل يوم إثنين وجمعة، أبلغ درجات النشوة إلى نفسي. كنت أنسى ناوومي

تماماً، حين أقف أمام الكونتيسة. وأنتشي، وكأنني قد احتسيت كأساً من الخمر الفاخر.

قالت لي ناوومي:

ـ إنك تبدي حماساً أكبر مما توقعت، يا چوچي. ظننت أنك ستشعر بالضجر سريعاً.

ـ لِمَ؟

ـ ألم تقل إنك لا تظن أن باستطاعتك تعلّم الرقص؟

كان ضميري يؤنّبني دائماً، حين يثار الموضوع مع ناوومي، وكنت أقول لها:

ـ ظننت أنه ليس باستطاعتي تعلّمه، ولكن حين حاولت وجدته رائعاً، وكما وصفه الطبيب فإنه من التمارين الرياضية الممتازة.

كانت تضحك، وتقول، دون أن تكتشف سرّي:

ـ أرأيت؟ لا يجب أن تتلاعب بك ظنونك، قبل أن تخوض التجربة.

توجهنا، في شتاء ذلك العام، بعد أن تعلّمت الكثير من فنون الرقص، إلى مقهى ألدورادو في حي «جنزا» وذلك للمرّة الأولى. لم يكن في طوكيو في ذلك الوقت سوى القليل من صالات الرقص. كان هذا المقهى واحداً من أفضل الصالات، بالإضافة إلى فندق «أمبريال» و«كاجتسين»، اللذين سمعنا أنهما يتشدّدان في ملابس وسلوك الروّاد، خاصة وأن الأجانب يشرفون على معظم أعمالهما. لذلك فقد بدا من الأفضل البدء بمقهى ألدورادو.

كانت ناوومي قد سمعت عنه من إحدى الصديقات، وأصرّت على الذهاب. لكني لم أكن أمتلك بعد الشجاعة الكافية للرقص في مكان عام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استشاطت ناوومي غضباً، وقالت:

ـ أنت لا تطاق يا چوچي. لا تكن جباناً، لن تتمكّن من اتقان الرقص بمجرّد الاكتفاء بالدروس. لا بد وأن تخرج إلى المجتمع. كن جسوراً، وسرعان ما ستصبح راقصاً ماهراً.

ـ أنا متأكّد أنك على صواب، لكني لا أجيد، حتى أكون جسوراً.

ـ ليكن، سأذهب بمفردي. سأدعو هامادا أو ماشان ليرقص معي.

ـ ماشان، ذلك الشاب بنادي المندولين، أليس كذلك؟

ـ نعم إنه هو. إنه لم يتلقَّ درساً واحداً، لكنه سيرقص في أي مكان، مع أي شخص، وهو الآن ممتاز حقاً. أفضل منك بكثير. ينبغي أن تتمتع بقليل من الجراءة، وإلاّ خسرت كل شيء... أليس كذلك؟ دعنا نذهب. سوف أرقص معك... آه، أرجوك أن تأتي معي... إنك فتى طيّب يا چوچي، إنك فتى طيّب.

وبعد أن حُسمت مسألة الذهاب، دخلنا في مناقشة طويلة حول الملابس التي يتعيّن أن ترتديها ناوومي.

ـ أيهما يبدو أجمل، يا چوچي؟

أصبح المنزل في حالة فوضى، قبل أربعة أو خمسة أيام من ذهابنا، إذ أنها أخرجت كل ثيابها، وأخذت تتفحصها ثوباً تلو آخر.

قلت في نهاية المطاف، وأنا لا أعني ما أقوله؛ لأتخلّص من هذا الموقف:

ـ ذلك جميل.

ـ لست متأكّدة. هل يبدو جميلاً حقاً؟

وراحت تدور وتلفّ أمام المرآة، ثم قالت:

ـ لا. إنه لا يعجبني.

ثم خلعته، ورفسته بعيداً مع الكومة، وارتدت الثوب التالي، ثم آخر. لم يعجبها شيئاً، فقالت في النهاية:

ـ آه، ابتع لي ثوباً جديداً يا چوچي. ينبغي أن أرتدي شيئاً يخطف الأبصار عندما نذهب للرقص. فهذه الثياب لا تظهرني بالمظهر اللائق. هل ستبتاع لي ثوباً؟ آه اشترِ لي ثوباً جديداً!

لم يعد راتبي الشهري، عندئذ، يكفي لتلبية مطالبها الكثيرة. لقد دأبت على الإنفاق بحساب. وعندما كنت أعزب كنت أضع ميزانية لمصروفاتي، وأدخر الباقي، مهما كان ضئيلاً، في المصرف. وحين بدأت الإقامة مع ناوومي، كنت قد ادخرت مبلغاً معقولاً. الأكثر من ذلك أنه رغم شغفي بناوومي، فإنني لم أهمل عملي قط، بل ظللت الموظف المثالي، الذي يكدّ في عمله، وكسبت ثقة مدرائي. وزاد راتبي حتى بلغ نحو أربعمائة ين في الشهر، بما في ذلك المكافآت نصف السنوية العادية. هذا المبلغ كان سيكفي شخصين يعيشان بشكل عادي، لكنه لم يكن يكفينا. ربما لا يتعينّ أن أخوض في التفاصيل، لكن نفقات معيشتنا وصلت إلى مائتين وخمسين يناً على الأقل في الشهر، وأحياناً تبلغ الثلاثمائة ين. كان الإيجار يستقطع خمسة وثلاثين يناً منها (فقد زاد بمعدل خمسة عشر يناً خلال أربع سنوات). وبعد استقطاع مصاريف الغاز، الكهرباء، الماء، التدفئة، الوقود، غسل وكي الملابس، لا يتبقّى من الراتب سوى ما يتراوح بين مائتي ين ومائتين وأربعين يناً، معظمها يُنفق على الطعام.

كانت ناوومي، وهي صبية، تكتفي بطبق من شرائح اللحم، لكنها الآن أصبحت خبيرة في اختيار صنوف الطعام، وعند كل وجبة تطلب أطعمة شهية خاصة. والذي زاد الطين بلّة، أنها لم تعد ترغب في ابتياع الخضر وطهيها، بل تعوّدت على طلب الوجبات من المطاعم القريبة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تقول عندما تشعر بالضجر:

ـ أرغب في تناول طعام فاخر.

كانت في السابق تفضّل دائماً الطعام الغربي، أما الآن، فإنها تقول بعد كل ثلاث وجبات تقريباً: «لنجرِّب الحساء الياباني في مطعم «أ»، أو «لنطلب طعاماً من مطعم «ب».

دأبت ناوومي على تناول الغداء بمفردها، أثناء وجودي في المكتب. ويحدث هذا عندما ترغب في التبذير. وحينما أعود في المساء، غالباً ما أجد صحوناً خشبية من المطاعم اليابانية، أو صحوناً وأوان من مطاعم غربية، متراكمة في المطبخ.

ـ هل طلبت غداء مرّة أخرى يا ناوومي؟ أنت تعلمين أن ذلك يكلّف الكثير من المال. ثم ألا تعتقدين أن هذا الطعام كثير جداً بالنسبة لامرأة بمفردها؟

قالت دون أن تتأثّر بكلماتي.

ـ لقد فعلت ذلك لأنني وحيدة. إن الطهي يثير الكثير من المتاعب لي.

وارتمت على المقعد مقطّبة الجبين.

كان توفير المال بالنسبة لها مسألة لا تهمها. بل إنها عندما لا تشعر برغبة في طهي الأرز تطلبه من المطعم مع أطباق أخرى. وحين تأتي الفواتير في نهاية الشهر من بائع الدجاج، القصّاب، المطاعم اليابانية، المطاعم الغربية، محلات الأسماك، المخابز، وبائعي الفاكهة، تنتابني الدهشة من قيمة كل هذه الفواتير. كيف تستطيع أن تأكل بمثل هذه الشراهة؟ وتعجبت.

كانت فاتورة المغسلة الأعلى، بعد فاتورة الطعام. وهذا يرجع إلى أن

ناوومي كانت لا تحب أن تغسل مجرّد جورب لنفسها، وترسل كل شيء إلى محل التنظيف. قالت، بمجرّد أن بدأت أجأر بالشكوى: أنت تعرف أنني لست خادمتك. وإذا ما قمت بأعمال الغسل، فإن أصابعي سوف تتهدّل، ولن أتمكّن من العزف على البيانو. هل تذكر بِمَ وصفتني في السابق؟ كنزك. إذن ماذا ستفعل عندما تصبح يداي بدينتين؟

كانت ناوومي ترعى المنزل في البداية، وتقوم بالطهي، لكن ذلك لم يستمر أكثر من ستة أشهر أو عام. كانت مشكلة المنزل أضخم من مشكلة غسل الثياب. فقد ازداد فوضى واتساخاً يوماً بعد يوم، إذ أنها تلقي ملابسها في المكان الذي تخلعها فيه، وتترك الصحون في المكان الذي تتناول فيه الطعام. وتراكمت الأطباق، الأواني، وأكواب الشاي، بما تحويه من بقايا طعام وشراب، وتبعثرت ملابسها الداخلية المتسخة في كل مكان بالمنزل. غطّت الأتربة الأرض، المقاعد، والطاولات، وفقدت الستائر، ذات الرسومات الهندية، رونقها الأصلي. لقد تغيّر جو «عشنا» المبهج ـ منزل القصص الخيالية ـ بالكامل، وهاجم الهواء الفاسد، الذي يملأ الحجرات، الأنف برائحة الإهمال. شعرت بالضيق مرّة، فقلت لها: سأنظّف المنزل بنفسي. اخرجي إلى الحديقة! شرعت في العمل، ورحت أكنّس، وأنفض الغبار، ولكن كلما فعلت ذلك، انتشرت الأتربة في كل مكان. ولم أعرف من أين أبدأ في ترتيب الأشياء المبعثرة في كل أنحاء المنزل.

حين أدركت أنه ليس هناك بديل، استأجرت سلسلة من الخادمات، ولكن هربت الواحدة تلو الأخرى، بعد بضعة أيام، من هول الفوضى. لم أخطّط في الأصل لجلب خادمة، كما لم يكن هناك مكان مناسب لنومها. بل إنني لم أستطع، مع وجود خادمة، أن أمارس حياتي مع ناوومي بحرية، كما كنت أفعل من قبل. كما أضحت ناوومي أكثر كسلاً، إذ راحت تقود الخادمة مثل حصان، ولم تعد تضع أصبعها في شيء. وصل تبذيرها إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حدود جديدة، بعد أن أصبح طلب الوجبات من المطاعم أيسر. كانت تقول للخادمة: «اذهبي إلى ذلك المطعم، واطلبي كذا وكذا!». باختصار، لم يكن وجود الخادمة مفيداً بالمرّة، بل إنه تعارض مع نوعية حياتنا «المرحة». كما شعرت النساء اللاتي جلبتهن بالرهبة، مما جعلني لا أصرّ على بقائهن.

كان هذا، إذن، هو ما ندفعه لتغطية تكاليف المعيشة. وحين أردت إدخار عشرة أو عشرين يناً كل شهر من المائة أو المائة وخمسين يناً المتبقية، حالت عادات ناوومي المستهترة في الإنفاق دون ذلك. فعلى سبيل المثال، كانت تقوم بتفصيل كيمونو جديد كل شهر. وإذا كان النسيج من «الموسلين» أو الحرير العادي، فإنها تبتاع نسيجاً إضافياً للبطانة، وتطلب من إحدى الخيّاطات حياكته. والنتيجة أن كل كيمونو كان يكلّف ما بين خمسين أو ستين يناً. وإن لم يعجبها الكيمونو بعد تفصيله، فإنها تلقي به في الدرج، ولا ترتديه مطلقاً، أما إذا أعجبها، فإنها ترتديه حتى تظهر فيه الثقوب عند الركبتين. امتلأت خزانتها بالثياب القديمة الرثة. وكانت الأحذية من مظاهر تبذيرها الأخرى، تصرّ على أن تشتري أخفافاً من القش، ومن الخشب، من كل نوع، منخفض الكعب، وعالي الكعب، الذي يصلح للمناسبات الرسمية، والعادي. تراوح سعر هذه الأخفاف بين ينين وثمانية ينات للزوج، ونظراً لأنها كانت تبتاع زوجاً جديداً كل عشرة أيام أو نحو ذلك، فإن هذه الأخفاف لم تكن رخيصة الثمن.

قلت لها: إنك تنفقين كثيراً على الأخفاف. ألا تؤدّي الأحذية الغرض نفسه؟ كانت تستمتع في السابق بانتعال أحذية، وتنورة مثل الطالبات، ولكنها باتت هذه الأيام تذهب، وهي متأنقة، وإن كان ذلك لتلقي الدروس، دون أن تغيّر ثيابها.

قالت كمن يذكّرني بأصولي الريفية: إنني فتاة مدنية من طوكيو، كما تعرف. انتقي ثيابي جيّداً، كما أحرص على اختيار ما انتعله.

كانت تنفق كل بضعة أيام ما يتراوح بين ثلاثة إلى خمسة ينات على تذاكر الحفلات الموسيقية، وتذاكر الترام، وشراء الكتب والمجلات والروايات. ثم هناك مدفوعات دروس اللغة الإنجليزية والموسيقى، إذ كان يتعينّ دفع خمسة وعشرين يناً شهرياً. لم يكن من السهل تلبية كل هذه النفقات من راتب شهري يبلغ أربعمائة ين. وبدلاً من الإدخار، رحت أسحب من حساب التوفير، وبالتدريج سحبت كل المال الذي أدخرته عندما كنت أعزب. المال ينفد سريعاً، بمجرّد البدء في إنفاقه. وهذا ما حدث خلال تلك السنوات الثلاث أو الأربع. فقد استنزفت مدخراتي، ولم يعد هناك شيء الآن، في حسابي.

الأسوأ من ذلك، أن طبيعتي الخجولة كانت تمنعني من الاقتراض مثل معظم الرجال على شاكلتي. كنت أعاني الكثير في نهاية كل شهر، ولم يكن باستطاعتي أخذ فترة من الراحة، كي أتمكّن من دفع كل الفواتير.

قلت لناوومي مؤنّباً:

ـ إذا واصلت الإنفاق بهذا المعدل، فسوف أجد نفسي مديناً في نهاية الأمر.

ـ إذا لم تتمكّن من السداد، فاطلب منهم أن يمهلوك. مَن قال إنه يتعينّ عليك الدفع في نهاية كل شهر، طالما أنك تقيم في المكان نفسه منذ سنوات؟ سوف يمهلونك إذا وعدتهم بالدفع كل ستة أشهر. إنك شديد الجبن والتزمت يا چوچي.

كانت تدفع نقداً عندما تذهب للشراء، أما الفواتير الشهرية فكانت تؤجّل حتى أحصل على مكافأتي نصف السنوية، ولم توافق أبداً على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاقتراض من أحد، وتقول: «لا أريد ذلك، إنها مهمة الرجال». وعندما يأتي آخر الشهر، لا تظهر أمامي كثيراً.

لست أبالغ إذا قلت إنني أنفقت دخلي بالكامل على ناوومي، وذلك لرغبتي في أن أجعلها أكثر جمالاً، وأحميها من أية أزمات مالية، وأتركها تنمو وتتطوّر بحرية. نعم كنت أزمجر بين فينة وأخرى، لكني سمحت لها بالتبذير. أدّى ذلك إلى استقطاع وضغط المصاريف في مجالات أخرى. ولحسن الحظ لم تكن لي نفقات شخصية، كما تجنّبت الحفلات التي تقيمها الشركة، قدر المستطاع، ولو تسبَّب ذلك في تقليص دوري الاجتماعي. كما قلّصت نفقاتي الأخرى ـ من ملابس وغذاء وأشياء أخرى، لأدنى حد. ابتاعت ناوومي بطاقة درجة ثانية للقطار الذي نستقله يومياً، بينما اخترت لنفسي بطاقة الدرجة الثالثة. ونظراً لأنها تتضايق من طهي الأرز، وحيث أن طلب الطعام من المطعم يكلِّف كثيراً، كنت أحياناً ما أسلق الأرز بنفسي، وأعدّ أطباقاً جانبية. لم يكن هذا التصرّف يرضيها، فتعلّق قائلة:

ـ ليس من الصواب، ولا ينبغي أن يعمل الرجل في المطبخ.

وتضيف:

ـ يتعيّن يا چوچي أن ترتدي ملابس أكثر أناقة، بدلاً من ارتداء الأشياء القديمة ذاتها عاماً بعد آخر. إنني لا أحب أن أكون في كامل أناقتي، وأنت تبدو على هذا الوضع. لا أستطيع الذهاب معك لأي مكان هكذا.

كانت الحياة ستصبح بلا معنى، إذا لم نستطع الخروج معاً، لذلك فقد كنت مضطراً لابتياع بعض الملابس «الأنيقة» لنفسي. وحين نخرج، يتعين عليّ الانضمام إليها في الدرجة الثانية. باختصار، وجدت نفسي مضطراً لمشاركتها التبذير.

كان هذا هو الوضع، وقد واجهت الكثير من المصاعب المالية، حتى قبل

أن أبدأ في دفع أربعين ديناً في الشهر للسيدة شلمسكايا. كان معي بعض المال في أواخر الشهر، ولكن إذا اضطررت لإبتياع ملابس رقص لناوومي، فإنني سأعاني من ضائقة مالية حقيقية، وهي ليست من النوع الذي يصغي لصوت العقل، ولا تحب أن يُرفض لها طلب، فقلت لها:

ـ إذا أنفقت هذا المال الآن، فإنني سأعاني عجزاً في نهاية كل شهر حين يستحق موعد سداد الفواتير. تفهمين، أليس كذلك؟

ـ وماذا سيحدث إذا واجهت عجزاً؟ سوف تجد مخرجاً.

ـ ماذا تعنين؟ ليست هناك طريقة للخروج من المأزق.

ـ إذن لماذا نتلقّى دروساً في الرقص؟ في هذه الحالة سأتوقّف اعتباراً من غد عن الذهاب إلى أي مكان.

فاضت الدموع من عينيها، وهي تحدِّق فيّ مؤنِّبة، واعترتها حالة من السكون.

قلت لها، ونحن على الفراش في تلك الليلة، وأنا أهز كتفها وهي مستلقية وظهرها نحوي متظاهرة بالنوم:

ـ أأنت غاضبة يا ناوومي، انظري إليّ! ثم أدرتها بهدوء نحوي، كما لو كنت أقلب سمكة مقليّة واجهني جسدها المستسلم الليّن طائعاً، وفتحت عينيها قليلاً.

ـ ما الأمر؟ أما زلت غاضبة؟

لم تحر جواباً.

ـ حسناً، لا تغضبي. سأقول لك شيئاً.

ظلّت على صمتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ افتحي عينيك:

رفعت رموش عينيها المرتعشة، فبدت عيناها الجميلتان، مثل لؤلؤتين داخل صدفة. وراحت تحدِّق مباشرة في وجهي.

ـ سوف أبتاع لك شيئاً بذلك المال، اتفقنا؟

ـ ولكن ألن تواجه عجزاً، عندئذ؟

ـ لا يهم، فسوف أجد طريقة لمواجهة ذلك.

ـ ولكن ماذا ستفعل؟

ـ سأطلب من أهلي إرسال بعض المال.

ـ هل سيرسلونه؟

ـ بالطبع. لم أسبِّب لهم قط أية متاعب، وأنا على يقين من أن أمي ستتفهَّم الوضع. هناك نفقات كثيرة يحتاج إليها أي زوجين يؤثِّثان بيتاً.

ـ حقاً؟ ولكن أليس من الخطأ أن تطلب منها مالاً؟

تكلّمت كما لو أن الأمر يسبِّب لها قلقاً، لكني أحسست بأنها تفكّر منذ فترة طويلة بأنه يتعينّ عليّ القيام بمثل هذه الخطوة. وإن هذا ما كانت تريد أن تسمعه.

ـ ليس من الخطأ في شيء، ولكني لم أفعله من قبل لأنه يتعارض مع مبادئي. لقد شعرت بالأسف وأنا أراك تبكين.

تنهدّت، فخفق صدرها مثل موجة تتدافع نحو الشاطيء، وتساءلت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خجولة:

ـ حقاً؟ هل بكيت؟

ـ لقد قلت لن أذهب إلى أي مكان، وامتلأت عيناك بالدموع. ستظلين دائماً فتاة مدلّلة، أليس كذلك، يا طفلتي الكبيرة؟

لفّت ذراعيها حول عنقي، وقالت:

ـ يا أبي! يا أبي العزيز!

وراحت تقبّلني بقوة فوق جبهتي، وأنفي، وفوق رموش عيني، وخلف أذني، وفوق كل بوصة من وجهي، مثلما يفرز موظف بريد بسرعة فيضاناً من الرسائل.

جعلتني هذه القبلات أشعر بإحساس لذيذ، كما لو أن بتلات لا تحصى من زهور الكاميليا الندية الناعمة قد كست وجهي، وتخيّلت رأسي وقد غاص في شذا البتلات.

ـ ما الذي تفعلين يا ناوومي؟ إنك تتصرّفين كما لو أنك قد فقدت عقلك؟

ـ لقد فقدته... إنك في غاية الرقّة الليلة، نعم فقدت عقلي... أيضايقك ذلك؟

ـ يضايقني؟ لا، إنني سعيد، في غاية السعادة، وأشعر أنني أفقد عقلي أنا الآخر. إنني مستعد للتضحية بأي شيء من أجلك... ماذا حدث؟ أتبكين مرّة أخرى؟

ـ شكراً يا أبي. إنني ممتنّة لأبي، ولهذا أبكي. لا أستطيع التحكم في مشاعري. أتفهم ذلك؟ أتريد مني التوقّف عن البكاء؟ إذا كنت تريد ذلك فامسح عيني.

أخرجت منديلاً من ثنايا الكيمونو، ووضعته في يدي. كانت ما تزال تحدّق فيّ مباشرة. قبل أن أتمكّن من تجفيف عينيها، فاضتا مرّة أخرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالدموع. ما هاتان العينان الصافيتان البرّاقتان! تمنّيت أن أتمكّن بطريقة ما من بلورة تلك الدموع الجميلة، والاحتفاظ بها للأبد. في البداية جفّفت خديها، ثم حرصت على عدم لمس الدموع المستديرة المنتفخة، ورحت أجفّف حول عينيها. وحين تتمدّد بشرتها، ثم تسترخي، تتخذ الدموع أشكالاً عديدة، فمرة تأخذ شكل عدسات محدبة، ثم عدسات مقعّرة، إلى أن تفيض وتسيل على خديها، لتخلف خطوطاً من الضوء، وهي تنحدر. جفّفت خديها مرة أخرى، ومسحت عينيها النديتين، ووضعت المنديل على أنفها عندما راحت تشهق، وقلت لها: «تمخّطي!» فتمخّطت المرة تلو الأخرى بصوت عالٍ.

توجهت ناوومي، في اليوم التالي، إلى «ميتسوكوشي» ومعها المائتي ين. وخلال ساعة غدائي، كتبت لأول مرّة أطلب من أمي بعض المال. أتذكّر ما كتبته في الرسالة: «... لقد كانت الزيادة في الأسعار خلال العامين أو الثلاثة أعوام الماضية مذهلة، ورغم أننا غير مبذرين، فقد شكّلت نفقاتنا الشهرية ضغوطاً علينا. إن حياة المدينة ليست سهلة..»

هالني أنني قد أصبحت مستهتراً للحد الذي جعلني أجيد الكذب على أمي. لكن أمي لم تثق فيما قلته فحسب، بل أظهرت حبها لناوومي أيضاً، في الرد الذي وصل بعد يومين أو ثلاثة أيام. فقد كتبت، مع الحوالة التي زادت قيمتها عن المبلغ الذي طلبته بمائة ين، تقول: «اشتر كيمونو لناوومي!».

- ١٠ -

نظّم «ألدورادو» حفلاً راقصاً في مساء أحد أيام السبت، تقرّر أن يبدأ في الساعة السابعة والنصف. حينما عدت إلى البيت، في حوالي الساعة الخامسة، وجدت ناوومي قد خرجت لتوّها من الحمّام، ومنهمكة في تجميل وجهها بالمساحيق.

قالت، في اللحظة التي شاهدت فيها صورتي في المرآة: «أنا جاهزة، يا چوچي». مدّت ذراعها خلفها، وأشارت نحو المقعد، حيث ألقت بالكيمونو، وبنطاق من قطعة واحدة، أسرعت في طلبه من متسوكوشي. كان الكيمونو، المبطّن بالقطن، من نسيج حريري أحمر داكن، وعليه رسومات لأزهار صفراء وأغصان خضراء. أما النطاق فمرسوم عليه مراكب قديمة طافية فوق أمواج خفيفة، بخيوط من الفضّة.

قالت لي، وهي تذيب المسحوق الأبيض في يديها، وتمسح به كتفيها ومؤخّرة عنقها:

ـ اختيار ممتاز، ألا تعتقد ذلك؟

في الحقيقة كان النسيج الرقيق غير لائق على كتفيها الممتلئتين، وفخذيها الكبيرتين، وصدرها البارز. فالثياب المصنوعة من نسيج الموسلين أو الحرير العادي تمنحها جمال الفتاة الأوروبية الآسيوية المثير. ولكن «كيمونو» رسمياً مثل هذا، يجعلها تبدو مبتذلة. وحين ارتدت فوقه النسيج ذا النقوش البارزة، بدت مثل امرأة في مطعم في يوكوهاما تخدم البحارة الأجانب. لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشأ أن أعلّق، حين شعرت بسرورها ورضاها عن نفسها، لكني انكمشت من التفكير في أن يراني أحد في القطار، أو في صالة الرقص مع امرأة ترتدي مثل هذه الملابس المبهرجة.

لما انتهت ناوومي من ارتداء ملابسها، قالت لي:

ـ والآن يا چوچي عليك أن ترتدي حلّتك الزرقاء.

وكانت قد أخرجتها، ونظفتها بالفرشاة، وقامت بكيّها.

ـ أفضل الحلّة بنية اللون على الزرقاء.

رمقتني بغضب، وقالت:

ـ يا چوچي أنت لا تعرف أي شيء. يتعيّن عليك ارتداء حلّة زرقاء داكنة، أو سترة سوداء للسهرة. ولا يصح أن ترتدي ياقة خفيفة، بل لا بد أن تكون ياقة قوية. هكذا تكون آداب حضور حفلات مسائية، وعليك أن تتذكّرها من الآن فصاعداً.

ـ أهكذا تكون الآداب؟

ـ نعم. كيف باستطاعتك التظاهر بأنك رجل أنيق، وأنت لا تعرف هذه الأشياء؟ إن حلّتك غاية في الاتساخ، ولكن هذا لا يهم بالنسبة للملابس الغربية، طالما أن شكلها مقبول وليست بها أية تجاعيد. لقد أعددتها لك، وسوف ترتديها الليلة. مع ذلك لا بدّ أن تشتري سترة للسهرة في وقت قريب، وإلّا فلن أرقص معك.

كان يتعيّن أن تكون ربطة العنق زرقاء داكنة أو سوداء، ويفضل ربطها على شكل فراشة، وأن يكون الحذاء من الجلد الطبيعي، ولو لم يكن ذلك ممكناً، فيكون أسود اللون (الجلد الأحمر غير ملائم)، الجوارب الحرير هي الأفضل، ولكن يمكن استخدام أية جوارب سوداء اللون.

شغلت ناوومي نفسها بكل تفاصيل ثيابي، ومرّ وقت طويل قبل أن نغادر المنزل.

وصلنا بعد الساعة السابعة ونصف الساعة، وكان الرقص قد بدأ بالفعل. تناهت إلى أسماعنا ألحان فرقة «الجاز» الصاخبة، أثناء صعودنا الدرج إلى قاعة الرقص، التي تم استحداثها، بإبعاد الكراسي من حجرة طعام. عُلّقت، عند المدخل، لافتة مكتوب عليها بالإنجليزية: «حفل راقص خاص ـ رسوم الدخول: السيدات مجاناً، والرجال ثلاثة ينات». قام نادل بتحصيل رسم الدخول. وحيث أن المكان لم يكن سوى مقهى، فقد كانت «الصالة» ضيِّقة. رأيت نحو عشرين شخصاً يرقصون، كل إثنين معاً. هذا العدد جعل المكان يبدو مكتظاً. تمّ ترتيب الطاولات والمقاعد في صفين على جانب من الحجرة. اعتقدت، بعد شراء تذكرة الدخول، أن من حق الفرد أن يطلب مقعداً ويستريح عليه، من آن للآخر، لمشاهدة الراقصين الآخرين. جلست مجموعات عديدة من رجال ونساء يتحدثون فيما بينهم. وحين دخلت ناوومي الحجرة، راحوا يتهامسون، وهم يتطلّعون إلى ثيابها المبهرجة، بنظرات غريبة متشكّكلة، يختلط فيها العداء بالازدراء. أحسست أنهم يقولون: «انظروا إلى هذه السيدة التي دخلت الحجرة لتوها» و «ما رأيكم في المهرِّج الذي تصطحبه؟»

شعرت بنظراتهم موجهة ليس إلى ناوومي فقط، بل إليّ أيضاً، وأنا أتوارى خلفها. تردّد صدى الموسيقى صاخبة في أذني، ولاحظت أن الراقصين، وجميعهم أكثر مهارة مني بكثير، قد صنعوا حلقة كبيرة، وراحوا يدورون ويدورون. في أثناء ذلك، تذكّرت أن طولي لا يزيد عن خمسة أقدام وبوصتين، بشرتي قاتمة، وبين أسناني سن مكسور، وأرتدي حلة زرقاء عمرها عامان، تجاوزت فترة رونقها. احمرَّ وجهي وشعرت بالسخونة والارتعاش. قلت لنفسي لن آتي لمكان مثل هذا مرّة أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت ناوومي بصوت خفيف، وقد وضعت فمها على أذني، فشعرت بأنها مرتبكة هي الأخرى:

ـ لا فائدة من وقوفنا هنا... لنذهب إلى هناك، عند الطاولات.

ـ نعم، ولكن أتعتقدين أنه من اللائق أن نمرّ من بين كل هؤلاء؟

ـ لا أظن أن هذا يهم.

ـ ولكن ماذا يحدث إذا ما اصطدمنا بأحد؟

ـ عليك أن تكون حذراً. انظر! ذلك الرجل مرَّ من وسط الجميع. إنه أمر سهل، لنمض!

سرت خلفها مخترقاً الجموع. ارتعشت ساقاي، وكانت الأرضية زلقة، لم يكن الوصول إلى الجانب الآخر للحجرة بسلام، مهمة سهلة. أتذكر أن ناوومي عبست في وجهي حين كدت أسقط على الأرض.

قالت ناوومي، التي بدت أكثر جرأة مني:

ـ هناك مكان خال. لنجلس إلى تلك الطاولة.

ومرّت من بين الجموع، المحدّقة فينا غير مبالية، لتصل إلى طاولة في نهاية القاعة. ورغم أنها كانت تترقّب بفارغ الصبر موعد هذه السهرة، إلاّ أنها لم ترغب أن تبدأ الرقص بمجرّد وصولها. بدت منفعلة، وهي تسحب مرآة من حقيبتها، وتتحسّس وجهها بيدها. ثم همست قائلة، وهي تسترق نظرة إلى أرضية صالة الرقص:

ـ ربطة عنقك منحرفة إلى اليسار.

ـ أليس هامادا هنا يا ناوومي؟

ـ لا تقل لي «ناوومي»، بل قل «آنسة ناوومي».

وجرحتني بنظرة خاطفة، وأضافت:

ـ هاما ـ سان هنا، وكذلك ماشان.

ـ أين؟

ـ هناك.

ثم خفضت صوتها فجأة، وقالت مؤنِّبة:

ـ من غير اللائق الإشارة باليد. هناك يرقص مع الفتاة التي ترتدي ثوباً قرنفلي اللون. إنه ماشان.

قال ماشان، وهو يقترب منا، ويبتسم من فوق كتف شريكته:

ـ أهلاً.

كانت المرأة ذات الثوب القرنفلي ممشوقة القوام، ممتلئة، وقد عرَّت ذراعيها الطويلتين المثيرتين. أما شعرها الأسود الكث، ليس غزيراً، لكنه كثيف، فكان مقصوصاً عند مستوى كتفيها، ومتجعِّداً بطريقة يبدو فيها الإهمال، ومزداناً بشريطة مربوطة حول رأسها وفوق جبهتها. كان خدّاها أحمرين، وعيناها واسعتين، وشفتاها غليظتين، لكن وجهها المستدير، وأنفها الطويل الدقيق، طبعاها بالشكل الياباني الخالص. ركّزت انتباهي على وجوه النساء، فأدركت أنني لم أر قط وجهاً غير متجانس الملامح مثل هذا. خيّل إليّ أن المرأة لم تكن راضية عن ملامحها اليابانية، وأنها بذلت جهداً وأمضت وقتاً إضافياً لتبدو مثل امرأة غربية. لقد بيّضت كل جزء من بشرتها العارية، حتى بدت كما لو أن دقيق أرز قد سقط عليها. كما صبغت حول عينها بألوان خضراء مزرقّة لامعة. أما اللون الأحمر الزاهي فوق خدّيها فهو أحمر التجميل. ولسوء الحظ فإنها بدت بتلك الشريطة الملفوفة حول رأسها مثل مسخ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت بدون تفكير:

ـ ناوومي.

لكني صحّحت نفسي وقلت:

ـ آنسة ناوومي، أهي «فتاة»؟

ـ نعم. لكنها تبدو كعاهرة.

ـ أتعرفينها؟

ـ لا. لكني سمعت عنها من ماشان. أترى تلك الشريطة؟ إن حاجبيها مرتفعان فوق جبهتها، لذلك فقد وضعت الشريطة لتغطيهما، ورسمت حاجبين جديدين تحتهما. دقّق النظر! هذا الحاجبان مزيفان.

ـ لكن وجهها ليس سيِّئاً. إنها ليست بحاجة لوضع كل هذه الصبغة الخضراء. والحمراء.

قالت ناوومي، بطريقتها المغرورة المألوفة في الكلام؛ فبدا أنها استعادت ثقتها في نفسها:

ـ إنها حمقاء. هذا كل ما في الأمر. وهي ليست جذّابة، أهذا هو مفهومك عن الجمال؟

ـ هي ليست جميلة، لكن أنفها لطيف، وجسمها ليس سيِّئاً. ولو أنها وضعت مساحيق عادية، لبدت جذّابة.

ـ أوه. جذّابة؟ لا تكن سخيفاً! أترى وجوهاً مثل وجهها في كل مكان؟ انظر إلى الطريقة التي ترتدي بها ثيابها. أنا لا يهمني أن يحاول أحد تقليد الغربيين، لكنها لا تبدو مثل أحد على الإطلاق. إنها مثيرة للشفقة. إنها قرد.

ـ ولكن المرأة التي ترقص مع هامادا تبدو مألوفة، أليس كذلك؟

ـ نعم. إنها هارونو كيراكو من مسرح «أمبريال».

ـ حقاً؟ أيعرفها هامادا إذن؟

ـ بالتأكيد. إنه راقص ماهر، لذلك فإنه يلتقي بكثير من الممثّلات.

كان واضحاً أن هامادا، الذي يرتدي حلّة بنية، أمهر راقص في الصالة. كانت الطريقة التي أراح بها وجهه على وجه شريكته فاضحة. لا شك أن هذه طريقة الرقص. كانت كيراكو ذات بنية رقيقة، وأصابع نحيفة تماثل العاج. انثنى جسمها، وهامادا يحتضنها بقوة. لاحت أكثر فتنة منها وهي على خشبة المسرح. فقد ارتدت كيمونو فائق الجمال، ونطاقاً من قطعة واحدة، مرسوماً عليه تنين بخيوط الذهب، على أرضية سوداء. حتى هامادا، الذي كان أطول قامة منها، رأسه بزاوية حادة، وقرب أذنه من خصلات شعرها. بدا كما لو أنه يتشمّم شعرها. أما كيراكو، فقد ضغطت جبهتها على خدّه. راحت الرأسان والعيون الأربع ترقص، ولم تنفصل للحظة، حتى عندما يتباعد الجسدان.

ـ أتعرف ذلك النوع من الرقص يا چوچي؟

ـ لا، لكنه ليس محترماً، أليس كذلك؟

ـ لا. إنه مبتذل في الواقع.

وأضافت، كما لو أنها تبصق الكلمات:

ـ يسمّى «رقص الخدود». لا يُمارس في الأماكن المحترمة. في أميركا يطلبون منك مغادرة المكان إذا ما حاولت ممارسته. ذلك ما سمعته. هاماسان يجيد الرقص، لكنه يحاول لفت الأنظار إليه.

ـ لكن المرأة تجيده هي الأخرى.

ـ نعم. ماذا تتوقّع من ممثّلة؟ ينبغي عليهم ألّا يسمحوا بدخول الممثّلات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا المكان. إذا ما استمرّوا على هذا الوضع، فإن السيدات المحترمات لن يأتين إلى هنا.

ـ قليل من الرجال يرتدون حللاً زرقاء، رغم اهتمامك بذلك. انظري إلى ما يرتديه هامادا.

لقد لاحظت هذا منذ البداية. لقد أجبرتني ناوومي، بطريقتها التي تزعم بها معرفة كل شيء، على ارتداء حلّة زرقاء داكنة على أساس ما سمعته عن آداب السلوك. ولكن هنا في صالة الرقص، لا يوجد سوى إثنين أو ثلاثة يرتدون حللاً زرقاء، ولم يكن هناك أحد يرتدي سترة سوداء. كان الرجال الآخرون يرتدون حللاً على أحدث طراز، ألوانها غير تقليدية.

ـ نعم، لكن هاماسان يفعل الشيء الخاطيء. يفترض أن ترتدي حلّة زرقاء.

ـ ذلك ما تقولينه، لكن... حسناً انظري إلى ذلك الرجل الغربي. إنه يرتدي حلّة بسيطة، أليس كذلك؟ أظن أنه لا يهم ما يرتديه الشخص.

ـ ذلك ليس صحيحاً. يتعيّن عليك ارتداء الملابس المناسبة دوماً، حتى لو كنت الوحيد الذي يفعل ذلك. إن هذا الغربي جاء مرتدياً تلك الملابس، لأنه يدرك أن اليابانيين لا يعرفون الأصول الصحيحة في هذا المجال. وعلى أية حال، فإن هاماسان حالة خاصة، لأنه يتمتع بخبرة كبيرة، كما إنه راقص ماهر. لكنك ستبدو غريباً إذا ما ارتديت مثله.

هدأت حركة الراقصين والراقصات، ثم توقفت وسط تصفيق حماسي. كما توقفت الفرقة عن العزف، لكن الراقصين رغبوا في المواصلة. فراح أشدهم حماساً يطلقون الصفير، ويدقون الأرض بأقدامهم مطالبين بالمزيد. تكرَّر هذا مرّتين أو ثلاث مرّات، حتى لم يعد للتصفيق أي تأثير على الموسيقيين. ثم تبع الرجال شريكاتهم مثل الحرس عائدين إلى طاولاتهم.

رافق هامادا وماشان كيراكو وذات الرداء القرنفلي، كلاًّ منهما إلى طاولتها، وأجلساهما وانحنيا بآدب، ثم أقبلا نحونا.

قال هامادا:

ـ مساء الخير، جئتما متأخّرين، أليس كذلك؟

وقال ماشان، بطريقته الخشنة المألوفة:

ـ ألن ترقصا؟

وقف خلف ناوومي تماماً، وحدّق في ثيابها المزركشة، وأضاف:

ـ إن لم يكن أحد قد حصل على وعد منك، فلم لا ترقصين معي الرقصة التالية؟

ـ لا. شكراً. أنت لا تجيد الرقص.

ـ هراء. صحيح أنا لا أدفع مالاً لتلقي دروس، لكني أعرف الرقص على أية حال، هكذا بشكل طبيعي.

ـ أف، لا تتحدَّث بهذه الثقة الزائدة. إنك لا تترك انطباعاً جيِّداً عندما ترقص مع ذات الرداء القرنفلي الجالسة هناك.

بدا غريباً أن تتحدّث ناوومي بهذه اللهجة الجافة مع الفتى.

قال ماشان، وهو يهرش رأسه في حيرة، ويحدِّق باتجاه ذات الرداء القرنفلي، الجالسة أمام طاولتها، التي لا تبعد كثيراً عنا:

ـ لقد ظننت أنني وقح، لكني لا أباريها، فلم آت إلى هنا مرتدياً مثل ذلك الذي ترتديه.

ـ إنها قردة، هذا كل ما في الأمر.

ـ قردة؟ طيّب. إنها قردة، ليكن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ألم تحضرها؟ حقاً، يا ماشان، إنها تبدو مفزعة، ويجب أن تقول لها ذلك. لن تبدو غريبة مطلقاً بذلك الوجه. إنه وجه «ياباني قح» مكتوب فوقه كلمة اليابان بوضوح.

ـ بمعنى آخر، إنها تستحق الرثاء على مجهودها الضائع.

ـ ذلك صحيح. لقد بذلت هذه القردة مجهوداً، وتستحق الرثاء. البعض يبدو غريباً حتى إذا ما ارتدى ملابس يابانية. تعرف ذلك.

ـ مثلك. صحيح؟

ضحكت ناوومي، ضحكتها المألوفة، وقالت:

ـ ذلك صحيح، أبدو أورو آسيوية أكثر منها.

قال هامادا لماشان وهو ينظر إليّ:

ـ كوماچي. لم تلتقِ من قبل بالسيد كاواي، أليس كذلك؟

دعا هامادا ماشان باسم أسرته.

ـ لا. لم ألتقِ به من قبل. لكني أعرف وجهه رغم ذلك.

رمقني ماشان ـ الذي يسمّى الآن «كوماچي» بنظرة ساخرة، وقال:

ـ اسمح لي أن أقدِّم نفسي. اسمي «كوماچي سيتارو».

تطلّعت ناوومي إلى كوماچي، وقالت:

ـ اسم حقيقي، «كوماچي سيتارو». المعروف باسم «ماشان». حسناً يا ماشان. قدِّم نفسك على نحو أفضل.

ـ آه، لقد عرفت نفسي بما فيه الكفاية. أسأل الآنسة ناوومي عن بقية التفاصيل، إذا أردت.

ـ ماذا أعرف عن التفاصيل؟

شعرت بعدم الارتياح وأنا محاط بهذه المجموعة، لكن ناوومي واصلت اللهو بهذه الطريقة، ولم أجد مفراً سوى الابتسام، ثم قلت:

ـ يا سيد هامادا، يا سيد كوماچي، هل لكما أن تنضما إلينا؟

يا چوچي أشعر بالعطش. أطلب لي شيئاً أشربه. ماذا تريد يا هاماسان؟ عصير ليمون؟

ـ أي شيء يناسبني.

ـ وأنت يا ماشان؟

ـ إذا كنتم ستدفعون، فإني أريد ويسكي بالصودا.

ـ أمر يدعو للاشمئزاز. إني أكره السكيرين، فرائحة نفسهم تدعو للغثيان.

ـ وماذا يهم في ذلك؟ إنهم يقولون إن هذا هو الجانب المثير في الرجل.

ـ من قال ذلك؟ تلك القردة؟

ـ آه إنك تحاصرينني، وأنا أستسلم.

نسيت ناوومي الناس حولنا، وراحت تضحك بصوت عالٍ، ثم قالت:

ـ يا چوچي، أطلب النادل. واحد ويسكي بالصودا، وثلاثة عصير ليمون... لا، انتظر، انتظر! ألغ عصير الليمون. أفضّل فواكه مشكلة!

دهشت لمعرفة ناوومي بمشروب لم أسمع عنه قط، فقلت لها:

ـ فواكه مشكلة؟ إذا ما كان هذا المشروب مشكلاً، فلا بد أن به خمراً، صحيح؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لا يا چوچي. أنت لا تعرف شيئاً. استمع يا هاماشان، وأنت يا ماشان إلى ما سأقوله هذا الرجل ساذج.

وربتت على كتفي بسبّاتها، وهي تقول «هذا الرجل». وأضافت:

ـ والشيء المضحك أنني جئت إلى هنا لأرقص معه. إنه يشعر بالدوار من المكان، بل إنه كاد يسقط على الأرض منذ دقيقة.

قال هامادا مدافعاً عني:

ـ الأرضية زلقة للغاية. والكل يشعر بالرهبة في البداية. وحين يتعوّد المرء على المكان، يشعر بأنه في بيته.

ـ إذن ماذا عني؟ ألا تراني أشعر كأنني في بيتي؟

ـ أنت مختلفة، يا ناوومي. أنت أكثر جرأة... أنت عبقرية في الفنون الاجتماعية.

ـ أنت عبقري أيضاً، يا هاماسان.

ـ من، أنا؟

ـ بالتأكيد، تقيم صداقة مع هارونو كيراكو، دون أن ندري!

لوى كوماچي شفته السفلى، وأومأ قائلاً:

ـ هذا صحيح. هل تلاعبت، يا هامادا، بعواطف كيراكو؟

ـ أنا لا أفعل شيئاً مثل ذلك.

قالت ناوومي:

ـ لكن وجهك يحمرّ عندما تدافع عن نفسك. لم لا تدعو كيراكو لتنضم إلينا؟

ـ لتسخري منها؟ إن لسانك غاية في السلاطة.

ـ لا عليك، لن أسخر منها. أطلب منها أن تأتي.

ـ هل أنادي القردة، إذن؟

ـ آه، نعم، نعم. ناد القردة يا ماشان. دعنا نجلس جميعاً معاً.

ـ ليكن. لكن الموسيقى بدأت مرة أخرى. سوف أناديها بعد أن أراقصك.

ـ لا أريد أن أرقص معك، يا ماشان، لكني أعتقد أنه لا مفر من ذلك.

ـ من أنت لتتحدثي هكذا؟ إنك مجرّد مبتدئة.

ـ سأذهب الآن يا چوچي، لأرقص، راقبني! وسأرقص معك بعد ذلك.

كنت على ثقة من أن تعبيراً غريباً حزيناً ارتسم على وجهي، لكن ناوومي نهضت واقفة، وأخذت ذراع كوماچي، وانضمّت إلى سرب الراقصين، الذين استأنفوا مرّة أخرى، حركاتهم النشطة.

قال هامادا، وهو يسحب البرنامج من جيبه:

ـ آه. هذه هي الرقصة السابعة. إنها رقصة «فوكس تروت».

بدا أنه لا يجد شيئاً يقوله، وهو جالس بمفرده معي، فنهض، وقال بتردّد:

ـ أرجو المعذرة، لكني وعدت كيراكو بهذه الرقصة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ تفضّل. أرجو ألا تقلق بشأني.

بعد أن تركني ثلاثتهم، وصل النادل حاملاً الويسكي بالصودا، والأكواب الثلاثة من الفواكه المشكلة. لم يكن هناك شيء أفعله سوى الجلوس بمفردي، وأمامي المشروبات الأربعة، أحملق دون تركيز في باحة الرقص. لم يكن في نيتي الرقص، بطبيعة الحال، فقد كان هدفي أساساً الترفيه عن ناوومي، ومشاهدتها وهي ترقص، لذلك فقد شعرت بالراحة أكثر وأنا جالس في مكاني، مما لو كنت أرقص في الباحة. وبعد أن أحسست بالحرية، رحت أتابع بشوق جسد ناوومي، وهو يهتزّ بمنة ويسرة، وسط أمواج الراقصين.

قلت لنفسي إنها ترقص ببراعة. شعرت بأنه لم يكن هناك ما يدعو للخجل حين سمحت لها بالرقص.

أخذت أكمامها الملوّنة الطويلة تتموج وترقص، وهي تدور على أصابع قدميها بخفيها الصغيرين، وجوربيها الأبيضين الرسميين. كان الطرف الأمامي للكيمونو يرتفع مع كل خطوة تخطوها، ويرفرف مثل فراشة، بينما تقف وسط الراقصين كالزهرة المتفتحة: أصابعها البضّة تمسك بكتف كوماچي، بالطريقة نفسها التي تمسك بها فتاة الجيشا ريشة العزف، النطاق المزركش، الملتفّ حول خصرها، مؤخّرة عنقها، جانب وجهها، كامل وجهها، وشعرها. أدركت، وأنا أتطلّع إليها الآن، أن للملابس اليابانية جاذبيتها. كما لاحظت أن ثيابها المبهرجة، التي أقلقتني سراً، ليست رخيصة على الإطلاق، ربما بسبب الفستان القرنفلي، والملابس الشاذة التي ترتديها النساء الأخريات.

انتهت الرقصة، وعادت إلى الطاولة، ومدّت يدها لتتناول كوب الفاكهة المشكلة، وقالت:

ـ آه. أشعر بالحر. ما رأيك يا چوچي؟ هل تابعتني وأنا أرقص؟

ـ نعم، كنت أتابعك. لا أكاد أصدِّق أن هذه هي أول مرة ترقصين فيها.

ـ حقاً؟ إذن سأرقص معك الرقصة التالية. إنها رقصة الخطوة الواحدة. اتفقنا؟ إنها رقصة سهلة.

ـ أين الآخران، هامادا وكوماچي؟

ـ سيأتيان. لقد ذهبا لإحضار كيراكو والقردة. من الأفضل أن تطلب كوبين آخرين من الفواكه المشكلة.

ـ لقد تذكّرت. إن الفتاة ذات الرداء القرنفلي كانت ترقص مع ذلك الغربي منذ لحظات.

تجرعت ناوومي مشروبها، لترطِّب فمها الجاف، وقالت:

ـ نعم، ألم يكن ذلك أمراً مضحكاً. إنهما ليسا صديقين لقد مضى نحو القردة، وطلب منها أن تراقصه. لقد جعلها تبدو فتاة حمقاء، ألا ترى؟ إنه يطلب منها ذلك دون أن يعرِّفها بنفسه أولاً! لا بد وأنه يعتبرها عاهرة أو شيئاً من هذا القبيل.

ـ ألم يكن باستطاعتها الرفض؟

ـ ذلك هو الأمر المضحك ـ إنها لا تستطيع الرفض لأنه غربي! يا لها من ساذجة! إنها وصمة!

ـ لكن لا ينبغي أن تتحدثي عنها بهذا العنف، فذلك يشعرني بعدم الارتياح.

ـ ليس في الأمر شيء. أعرف ما أقوله. إن أحداً يجب أن ينبّه مثل هذه المرأة إلى تصرفاتها الخاطئة، وإلاَّ فإنها ستثير المتاعب لنا جميعاً. لقد اتفق ماشان معي في ذلك أيضاً، وقال إنها قد تجاوزت حدودها، وأنه سيحذِّرها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ حسناً، أعتقد أنه من الأصوب أن يقول لها رجل ذلك، ولكن. . .

ـ صه! لقد أتى هاما ـ شان مع كيراكو. يتعيّن عليك الوقوف حين تُقبل عليك إمرأة.

وقف هامادا أمامنا مثل جندي في وضع الانتباه، وقال:

ـ لنتعارف. أقدِّم لكما الآنسة هارونو كيراكو.

كنت أعتبر، في ظروف مثل هذه، أن جمال ناوومي هو المقياس، وألاحظ، إذا كان جمال هذه المرأة يتفوّق على جمال ناوومي، أم أنه أقل منه. تقدَّمت كيراكو، برشاقة، من خلف هامادا، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة. قد تكون أكبر سناً من ناوومي بعام أو عامين، لكن حيويتها وطفولتها تغلّبتا على هذا الفرق. بل أن ملابسها الرائعة تفوّقت على ثياب ناوومي.

قالت بتواضع، بعد أن خفضت عينيها المستديرتين، البرّاقتين، اللتين يشعّ منهما الذكاء، وهي تنحني:

ـ كيف حالكما؟

لم يكن في حركتها، المتوقعة من ممثلة، شيئاً من خشونة ناوومي.

تجاوزت ناوومي كل الحدود، وأبدت خشونة في كل حركة أتت بها. كان حديثها، المتكبّر الذي يفتقر لأية رقّة أنثوية، بذيئاً في الأغلب. وكانت، باختصار، مثل حيوان بري، بينما تصرّفت كيراكو بأدب جم، سواء في حديثها، أو في نظرات عينيها، وإعادة رأسها، والإشارة بيديها. تركت انطباعاً بأنها مثل شيء ثمين صقله الفن الراقي. فعلى سبيل المثال، حين جلست أمام الطاولة، وتناولت كوب العصير، بدت يدها، من راحتها إلى الرسغ، رقيقة للغاية، فتكاد لا تستطيع تحمل ثقل كم فستانها الخفيف. لم تكن نعومة بشرتها، أو دفء جلدها أقل من مستوى بشرة ناوومي، ولم

أعرف عدد المرّات، التي تنقّلت فيها عيناي بين أيديهما، وهي تستريح على الطاولة. لكن وجهيهما كانا مختلفين للغاية ـ فلو أن ناوومي هي ماري بيكوفورد، فتاة من «اليانكي» الأميركي، فإن الأخرى تتمتّع بجمال رائع من إيطاليا، أو فرنسا، جمال فائق وجذّاب على نحو غامض. ولو أنهما زهرتان، فإن ناوومي ستكون زهرة في بستان، أما كيراكو فزهرة داخل المنزل. كم يبدو أنفها دقيقاً، يكاد أن يكون شفّافاً على وجهها المستدير. إنها ليست مجرّد طفلة، بل إنها دُمية صنعها أعظم الفنّانين، فهو فقط الذي يمكنه رسم مثل ذلك الأنف الدقيق! ثم لاحظت في النهاية أسنانها، لقد دأبت ناوومي دوماً على الافتخار بأسنانها، أما أسنان كيراكو فكانت عبارة عن صفين من اللؤلؤ، مثل بذور في بطيخ شديد الإحمرار، هو فمها الجميل.

شعرت بضآلتي وتفاهتي، ولا بد أن ناوومي انتابها الشعور ذاته، هي الأخرى، فقد توقّفت فجأة عن الحديث المتعجرف حين انضمّت كيراكو لمجموعتنا. وبدلاً من أن تسخر منها، صمتت عن الكلام، فتوقّف الحديث بيننا بالكامل. كانت أكبر خاسرة عندما طلبت من هامادا أن يحضر كيراكو. إلاّ أنها استعادت في النهاية وقاحتها المألوفة، وقالت:

ـ هاما ـ سان، قل شيئاً، بدلاً من الجلوس هكذا!... متى التقيت يا آنسة كيراكو هاما ـ سان؟

ردّت كيراكو، وقد لمعت عيناها الصافيتان فجأة:

ـ آه. لقد حدث ذلك مؤخراً جداً.

قالت ناوومي بأسلوب أكثر تهذيباً، متأثّرة بطريقة كيراكو في الحديث:

ـ لقد تابعتك وأنت ترقصين الآن. إنك تجيدين الرقص، لا بد وأنك تؤدّين تمارين كثيرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أشكرك. إني أرقص منذ فترة طويلة، ولكن يبدو أنني لا أتحسّن. وأشعر أنني لا أجيده.

ـ لا تقولي ذلك. ما رأيك يا هاما ـ سان؟

ـ إنها تجيد الرقص بالطبع. لقد تعلّمته على أصوله في مدرسة تدريب الممثّلات.

فكست كيراكو عينيها خجلاً، وقالت:

ـ آه، أنا، أتقول ذلك؟

فقالت ناوومي:

ـ لكنك ممتازة حقاً. حين تابعت الراقصين، اكتشفت أن هاماسان الأفضل بين الرجال، وأنت الأفضل بين النساء.

ـ آه. أنا!

انضم كوماچي إلى المجموعة، يجرّ خلفه ذات الرداء القرنفلي، وقال:

ـ ما هذا، مسابقة رقص من نوع ما؟ أنا أفضل الراقصين، أليس كذلك؟

كانت ذات الرداء القرنفلي، وفقاً لتقديم كوماچي لها، ابنة رجل أعمال من «أوياما»، وتدعى إينو كيكوكو، ويتراوح عمرها بين الخامسة والعشرين، أو السادسة والعشرين، وكانت تتجاوز سن الزواج. (عرفت بعد ذلك أنها كانت قد تزوّجت قبل عامين، أو ثلاثة أعوام، لكن زواجها انتهى بالفشل، بسبب استحواذ الرقص عليها). وليس هناك شك في أنها تعمّدت إظهار جمالها المثير بارتداء ثياب سهرة تكشف عن كتفيها وذراعيها، ولكن من ينظر إليها عن قرب، يكتشف أن التأثير الذي تركته هذه الثياب هو أنها جعلتها تبدو امرأة بدينة أكثر منها مثيرة للحواس. فالجسم الممتلىء تلائمه بطبيعة الحال الملابس الغربية أكثر من الجسم النحيف. وكانت

المشكلة الحقيقية تكمن في وجهها. فملابسها لم تكن متمشية على الإطلاق مع ملامحها، فجعلتها مثل دمية غربية برأس دمية من «كيوتو». كان من الأفضل لو أنها تقبَّلت شكلها كما هو، لكنها حاولت بكل الأدوات المتوفرة تحقيق الانسجام بين ملابسها وملامحها، فلم يؤدِّ ذلك سوى إلى إفساد مظهرها العام. بات باستطاعتي الآن أن أرى حاجبيها الحقيقيين وقد اختفيا حقاً وراء عصابة رأسها، أما الحاجبان اللذان رسما فوق عينيها، فهما مصطنعان بشكل واضح. كان كل جزء من وجهها مصطنعاً بدءاً بالمساحيق التجميلية الخضراء حول عينيها، إلى أحمر الشفاه، الخطوط المحدّدة لشفتيها، وخط أنفها.

قالت ناوومي، دون مقدمات:

ـ هل تحب القرود يا ما ـ شان؟

قهقه كوماچي عالياً، وقال:

ـ القرود؟ ذلك سؤال غريب، أليس كذلك؟

ـ لديّ قردان في البيت، وأفكّر في إهدائك واحداً منهما، إذا رغبت هل تحبها؟

قالت كيكوكو بجدية:

ـ ألديك حقاً قردان؟

أسرعت ناوومي، التي شجعها نجاحها، في الرد، وقد التمعت عيناها:

ـ نعم. أتحبين القرود يا آنسة كيكوكو؟

ـ آه. نعم أحب كل أنواع الحيوانات، الكلاب، القطط، و...

ـ والقرود.

ـ نعم، والقرود أيضاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان الحوار هزلياً، مما جعل كوماچي يشيح بوجهه، بينما وضع هامادا منديلاً على فمه ليخفي ضحكه، وقطبت كيراكو مدركة مغزى الحوار. ولكن كيكوكو، وهي امرأة حسنة النية، لم تدرك أنها موضوع السخرية.

اتجه كوماچي وكيكوكو، فور بدء الرقصة الثامنة، وهي رقصة الخطوة الواحدة، إلى باحة الرقص، فقالت ناوومي بخشونة:

ـ أف! يا لها من غبية. لا بد وأنها تضع قطناً في أذنيها. ألا تعتقدين ذلك يا آنسة كيراكو؟

ـ آه، يا إلهي، حسناً...

ـ ألا تبدو مثل قرد؟ لقد تحدثت عن القرود متعمِّدة ذلك.

ـ آه.

ـ لم تستطع فهم ما أقصد رغم استغراق الجميع في الضحك، مما يثبت أنها بلهاء.

اختلست كيراكو نظرة إلى وجه ناوومي، وهي تنظر وقد انتابها شعور هو خليط من الذهول والاحتقار، ولكن لم تزد في ردها على ناوومي عن كلمتي «آه، يا إلهي».

- ١١ -

ـ هلمّ يا چوچي إنها رقصة الخطوة الواحدة، سأرقص معك. أخيراً حصلت على شرف مراقصة ناوومي.

ورغم شعوري بالارتباك، فقد كنت سعيداً، إذ انتهزت هذه الفرصة لتطبيق ما تعلّمته، خاصة وأن شريكتي هي عزيزتي ناوومي. وحتى لو كان عدم إتقاني الرقص سيثير ضحك الحاضرين، فإن ذلك سيجعل ناوومي تبدو في صورة أفضل، فيتحقّق لي الارتياح. أمر آخر جعلني سعيداً، إذ كنت أريد أن يتطلّع الناس إليّ، ويقولوا: «لا بدّ أنه زوج تلك المرأة». بمعنى آخر، أردت أن أقول للجميع: «هذه هي امرأتي. انظروا إلى كنزي!».

جعلتني هذه الفكرة داعياً لذاتي، ومنحتني في الوقت نفسه إحساساً كبيراً بالرضا. شعرت كما لو أنني قد عوّضت عن كل التضحيات والمصاعب التي واجهتها بسببها.

كنت أشعر بأنها لا تريد أن ترقص معي في تلك الليلة، إلى أن يتحسَّن أدائي قليلاً. كنت أنتظر صاغراً قرارها بشأني، إلى أن قالت فجأة: «سأرقص معك». لقد أسعدتني كثيراً تلك الكلمات.

أتذكَّر وأنا أمسك بيد ناوومي، وأبدأ في رقصة الخطوة الواحدة، أنني شعرت بالانفعال والإثارة، ولكن بعد ذلك فقدت كل إحساس بما يدور حولي. لم أعد أستطيع سماع الموسيقى، تخبّطت خطواتي، غام بصري،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتسارعت دقّات قلبي. إنه أمر مختلف تماماً عن الرقص في محل «يوشيمورا» للأدوات الموسيقية. وبعد أن أصبحت وسط هذا البحر الشاسع من البشر، لم يعد هناك مجال للتراجع أو التقدم، ولم أعرف ماذا أفعل.

همست ناوومي في أذني موبِّخة:

ـ لماذا ترتعد يا چوچي؟ تماسك! انتبه! إنك تنزلق مرّة أخرى، لأنك تستدير بسرعة. هوِّن عليك، أقول لك هوِّن عليك!

تزايد انفعالي وهي تتحدَّث. والأمر الذي زاد الطين بلّة أن الأرضية كان قد تم تلميعها خصيصاً للحفل الراقص، وإذا ما نسيت للحظة، ورقصت كما أفعل في قاعة التمرين، أنزلق في الحال.

دفعتني بيدها في كتفي، بعد أن حررتها من قبضتي العصبية، وقالت:

ـ قلت لك لا ترفع كتفك، ألم أقل ذلك؟ اخفض كتفك، اخفضه! لِمَ تلتصق بي هكذا؟ إنك ترفع كتفك مرّة أخرى!

لم أشعر بأية متعة في الرقص، وبدا الأمر كما لو أننا نرقص كي توّبخني وتعنّفني. كنت في حالة لا تسمح لي بمتابعة تعليماتها.

قالت غاضبة:

ـ هذا يكفي يا چوچي.

راح الراقصون الآخرون يطلبون المزيد، بينما تركتني وعادت إلى مقعدها. وقالت لي:

ـ لن أرقص معك مطلقاً. لا أستطيع حتى الآن مشاركتك الرقص، يا چوچي. عليك أن تتدرَّب في البيت.

عاد هامادا وكيراكو، وكذلك كوماجي وكيكوكو، واكتمل العدد حول

المائدة مرة أخرى، واستغرقني الحزن والاكتئاب، فلم أستطع أن أرد على تعنيف ناوومي، وسخريتها مني.

زاد ألمي حين قال كوماچي:

ـ إن أي شريك رعديد يستمع إليك لن يكون باستطاعته الرقص على الإطلاق. توقّفي عن الحديث بهذه الطريقة! اذهبي وارقصي معه! واصنعي معروفاً له.

وقال هامادا:

ـ إنه ليس سيِّئاً كما تقولين عنه يا ناوومي. هناك كثيرون لا يستطيعون الرقص مثله. أليس كذلك؟ أتوافقين، يا آنسة كيراكو، أن تشاركي السيد كواي رقصة «فوكس تروت» التالية؟

أومأت كيراكو، بكل السحر الذي يتوقعه أي شخص من ممثِّلة، وقالت:

ـ نعم، سيسرّني ذلك.

فقلت دون تردّد:

ـ آه. لا، لن أستطيع، لن أستطيع.

ـ تستطيع بالطبع. لا يجب أن تكون متحفّظاً. ألا تعتقدين ذلك يا آنسة كيراكو؟

ـ آه، نعم... سيسرّني ذلك حقاً.

ـ لا، لا. بعد أن يتحسَّن حالي.

قالت ناوومي بشدّة:

ـ تقول إنها سترقص معك، ينبغي أن تقبل عرضها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدا كما لو أنها تعتقد أنني أرفض شرفاً لا أستحقّه، وأضافت:

ـ لا يجب أن ترفض الرقص مع أي شخص سواي. انهض، فقد بدأت رقصة «فوكس تروت»، ذلك سيساعدك على مشاهدة طريقة رقص الآخرين.

تقدَّم رجل نحو ناوومي وخاطبها بالإنجليزية قائلاً:

ـ أتسمحين بمراقصتي؟

كان شاباً أجنبياً نحيفاً، يضع مسحوقاً أبيض على وجهه، الأنيق. إنه الرجل الذي رقص مع كيكوكو. تحدث بسرعة، وهو ينحني أمام ناوومي ويبتسم، في محاولة لتملّقها. وكل ما تمكّنت من التقاطه، كلمتي: «أرجوك، أرجوك»، اللتين قالهما دون أي خجل. بدت ناوومي حائرة، وتضرّج خدّاها، لكنها لم تغضب، بل اغتصبت ابتسامة. أرادت الرفض، لكن مفاجأة السؤال جعلتها لا تستطيع التفكير في كيفية الرفض برقة بالإنجليزية. انتظر الأجنبي، الذي شجعته ابتسامتها، وعكست عيناه نظرة لحوحة، كما لو أنه يتساءل: حسناً؟

قالت ناوومي، وهي تنهض على مضض، وقد ازدادت حمرة خدّيها:

ـ نعم...

قال كوماچي ساخراً:

ـ كانت كلها ثقة بنفسها منذ دقيقة، لكنها انكمشت أمام ذلك الغربي، أليس كذلك؟

روت كيكوكو، قائلة:

ـ الغربيون كثيرو الإلحاح، لقد كدت أفقد صوابي.

لم تكن عيناي ترى أية امرأة سوى ناوومي. كنت بطبيعة الحال أشعر

بجمال أية امرأة جميلة تقع عليها عيناي، لكنني كنت أريد النظر إليها بهدوء فقط، من عـلى بُعـد، دون أن ألمسهـا. لكن السيدة شلمسكـايا كـانت استثناء، فقد كانت نشوتي لا ترجع إلى رغبة جنسية عادية فيها، بل كـانت نشوة سامية، مراوغـة، وحالمـة، حتى ليصعب تصنيفها تحت ذلـك البند. وفوق ذلك، فإنها كانت مختلفة عنا، لكونها أجنبية، ومعلِّمـة رقص، وحتى بالمقارنة مع كيراكو، الممثلة اليابانيـة في مسرح «أمبريـال»، فإنـه من السهل فوز الكونتيسة.

ولكن عنـدما رقصت مـع كيراكـو، فـوجئت بمـدى خفّتهـا. لقـد كـان جسـدها كله نـاعمـاً، مثـل القـطن، ويـداهـا ملسـاوين، كـورقتي نبـات جـديدتـين. تواءمت بسرعـة مع حـركتي في الرقص، وكيَّفت نفسهـا عـلى طريقتي غير البارعة، مثل جواد أصيـل يتعرَّف بـالطريقـة التي يريـدها منـه خيـاله. كـانت خفيفة للغـايـة. فـأدخلت السرور إلى نفسي، وسرعـان مـا غمرتني البهجة، وبدأت قدماي تتحركان بثقة، ورحت أرقص بسلاسة من دون جهد، كما لو أنني أركب لعبة دوامة الخيل.

قلت لنفسي: إنه لأمر مثير، ومدهش، يا لها من متعة!

همست كيراكو في أذني، ونحن ندور مثل دولاب الطاحون:

ـ إنك ممتاز. من السهل الرقص معك.

كان صوتها رقيقاً، خافتاً وناعماً.

ـ الأمر ليس كذلك، فالسبب يرجع إلى مهارتِك الفائقة.

ـ آه، لا، حقاً...

عادت بعد لحظة لتقول لي:

ـ الفرقة الليلة ممتازة، أليس كذلك؟

ـ نعم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لا يكون الرقص ممتعاً إذا كانت الموسيقى سيئة.

لاحظت أن شفتي كيراكو تحت صدغي مباشرة. يبدو أنها معتادة على ذلك، كما فعلت مع هامادا منذ دقائق. لمست خصلة شعرها خدي. أحسست بأنني بين ذراعي امرأة غاية في الأنوثة، لم أتخيّلها قط، وشعرها الناعم يلاطف خدي، وهمساتها الرقيقة تخرج من بين شفتيها من وقت لآخر. شعرت كما لو أن يداً حنونة تضمد جراح الأشواك الغائرة في جسدي، بعد القسوة التي تعرضت لها لفترة طويلة على يد ناوومي، جامحة العواطف.

حين عادت ناوومي أخيراً إلى الطاولة، قالت، وقد بدت علامات اليأس على وجهها:

ـ كنت على وشك أن أرفض طلبه، لكن ليس للأجانب أي أصدقاء، ويتعيّن على المرء أن يتعاطف معهم.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف عندما انتهت الرقصة السادسة عشرة، وهي «الفالس». كانت ماتزال هناك رقصات أخرى. اقترحت ناوومي أن نعود إلى البيت بالسيارة إذا ما تأخّر الوقت، لكني هدأت من روعها وتوجهنا نحو «شيمباشي» حيث لحقنا بآخر قطار في الوقت المناسب. سار كوماچي، هامادا، والمرأتان معنا في شارع «جنزا». كانت الموسيقى مايزال يتردّد صداها في آذان الجميع، وحين يبدأ أحدنا في الغناء، ينضم الباقون إليه. حسدتهم على مهارتهم، وذاكرتهم القوية، وأصواتهم الشابة المرحة، إذ لم أكن أعرف تلك الأغاني.

راحت ناوومي تدندن: لا، لا، لا ـ لا ـ لا، ثم قالت:

ـ أية أغنية أثيرة لديك، يا هاما ـ سان؟ إن أغنية «كارافان» هي أغنيتي المفضّلة.

قالت كيكوكو:

ـ آه، كارافان، إنها أغنية رائعة.

فقالت كيراكو:

ـ لكني أفضّل أغنية «همس». إنه من السهل جداً الرقص عليها.

قال هامادا:

ـ ما رأيكم في أغنية «السيدة فراشة» إنها الأثيرة لديّ.

وراح يصفّر أنغام الأغنية.

افترقنا عنهم عند بوابة قطع التذاكر، ووقفت أنا وناوومي على رصيف، تهب عليه ريح شديدة، في تلك الليلة الشتوية. تحدثنا قليلاً ونحن ننتظر القطار. غمرت الوحشة فؤادي، بعد كثير من المرح.

لم تشعر ناوومي بأي شيء من هذا القبيل، وقالت لي:

ـ لقد قضينا وقتاً ممتعاً، أليس كذلك؟ لنعاود الكرّة قريباً.

أحبطت محاولاتها لبدء محادثة، وقلت لها بوجه كالح:

ـ نعم.

أهذا ما يسمونه رقصاً؟ أأخدع أمي، وأتشاجر مع زوجتي، وأرهق نفسي بالصراخ والضحك من أجل حفل الرقص الأحمق هذا؟ من أجل أولئك التافهين. لاعقي الأحذية، المغرورين، المدعين.

لكن لماذا ذهبت إذن؟ لأستعرض ناوومي أمامهم؟ إذا كان الأمر كذلك، إذن فإنني تافه مثلهم. وماذا عن الكنز الذي كنت أفتخر به؟ ماذا عنه عندما تخرج معها، هل يعرب العالم عن دهشته، كما كنت تأمل؟ إن الرجل الأعمى مضرب الأمثال الذي لا يخشى الثعابين ـ هو أنت. ماذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعني لك الأمر إذا كانت أعظم كنز في العالم؟ كيف سيكون الكنز حين تعرضه على الملأ؟ إنها فتاة تافهة، مغرورة. ألم تكن أكثر الموجودات تفاهة وغروراً؟ تمعَّن في الأمر بموضوعية، مَن كان، في رأيك، أكثر الأشخاص عدوانية هناك؟ شديدة التفاخر بنفسها، تطلق على الناس أسماء بتهور، لم تكن كيكوكو الوحيدة التي أخطأها ذلك الغربي على أنها عاهرة. ثم لم تستطع التعبير عن نفسها بالإنجليزية، وكل ما فعلته هو مراقصته. وماذا عن لغتها؟ إنها ترتدي ثياب سيدة، لكنها تتحدَّث بطريقة فظّة. إن كيراكو وكيكوكو أكثر تهذيباً منها بكثير.

ملأت كل هذه الأفكار السيّئة ـ لا أعرف ما إذا كنت أسمّيها أسفاً أو يأساً ـ قلبي طوال رحلة العودة إلى البيت، في تلك الليلة.

جلست على مقعد القطار في مواجهتها عامداً، حتى أتمكَّن من إلقاء نظرة متفحّصة أخرى على هذه المرأة، التي تدعى ناوومي. ما الذي جعلني أهيم بها بهذا الشكل؟ أنفها؟ عيناها؟ إنه لأمر غريب، ولكن عندما تفحصت كل جزء فيها على حدة في تلك الليلة، وجدت أنه ليس هناك ما يثير الإعجاب. فوجهها، الذي كان غاية في الجاذبية، بدا لي عادياً ولا يستحق شيئاً. ثم استعدت من أعماق ذاكرتي صورة باهتة لها، حين التقيتها في مقهى «دياموند». كانت أكثر جاذبية في تلك الأيام منها الآن، بريئة وساذجة، خجولة وحزينة، لا تحمل أي وجه شبه مع هذه المرأة الفظّة، المتعجرفة. كنت قد وقعت في غرامها في ذلك الوقت، وحملتني قوة الدفع لأواصل هذا الحب حتى اليوم، لكنني أدركت الآن أنها تحوّلت بمرور الوقت إلى امرأة بغيضة لا تطاق. بدت، وهي جالسة أمامي في تكلّف، كمن يريد القول: «أنا امرأة ذكية»، أما تعبيراتها المتكبرة، فتقول: «ليست هناك امرأة في أناقتي، وفي مثل شكلي الغربي. من كانت الأجمل على الإطلاق؟ أنا». لا أحد سواي يعرف أنها لا تستطيع نطق مقطع واحد باللغة

الإنجليزية، بل إنها لا تستطيع التفرقة بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول.

ألقت برأسها إلى الوراء، وأنا أتفحصها سراً، فتمكنّت من رؤية الظلمة داخل ذلك الأنف الصغير، الذي تفخر به كثيراً ـ والذي يعتبر أهم ملمح غربي في وجهها. بدا اللحم سميكاً على جانبي منخاريها، اللذين أعرفهما عن قرب. فكل ليلة، عندما أحتضنها، أحدِّق فيهما من هذه الزاوية. ومنذ بضعة أيام كنت قد ساعدتها على التمخط، وداعبت أنفها، بل وضغطته بأنفي. بمعنى آخر فإن أنفها، هذه الكتلة الصغيرة من اللحم الملتصقة بوجهها، هو جزء مني، ولا يخص شخصاً آخر. ولكن عندما أنظر إليه الآن، وكل هذه الأمور تدور في ذهني، يتحوَّل أنفها إلى شيء كريه ومقزّز. غالباً ما يفترس أي شخص جائع أي طعام، حتى ولو كان غير مستساغ، ولكن حين تمتلىء معدته، سيلاحظ فجأة مدى سوء الطعام، وسيشعر بالغثيان. كنت أمرّ بمثل هذه الحالة، وكلما تصوّرت نفسي مستلقياً وجهاً لوجه مع هذا الأنف مرة أخرى هذه الليلة، أشعر بالانتفاخ والكفاية.

تصوّرت أن هذا هو غضب الأم. فلا خير يأتي من خداع أمك.

ولكن لا ينبغي أن يستنتج القرَّاء أنني فقدت الاهتمام بناوومي. صحيح أنني اعتقدت ذلك لفترة من الوقت، لأنني لم أشعر بمثل هذا الإحساس من قبل، ولكن حين عدنا إلى البيت في «أوموري»، وأصبحنا بمفردنا، تبخّر شعور التخمة الذي انتابني في القطار، وطغت الفتنة على كل جزء من ناوومي مرة أخرى، من عينيها، أنفها، يديها وحتى قدميها. كان كل جزء في غاية الرقّة، وعاودني النهم.

تعوّدت بعد ذلك الذهاب مع ناوومي إلى صالات الرقص. وكنت في كل مرة أواجه بعقد نقصها، وأشعر بالتعاسة ونحن في طريق العودة إلى البيت. ولكن لا يستمر هذا الإحساس طويلاً، وخلال الليل يتغيّر حبي لها، وهكذا المرة تلو الأخرى، مثل عيني هرّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٢ -

كان الهدوء دائماً، يظلّل البيت في «أوموري»، ولكن بمرور الوقت، تزايد تردّد هامادا، كوماچي، وأصدقائهما، ومعظمهم من الشباب الذين التقينا بهم في حفلات الرقص.

تعوّدوا القدوم في المساء، في الوقت الذي أعود فيه من العمل، ويشغلون الحاكي، ويرقصون. كانت ناوومي تعشق الصحبة، ولم يكن بالبيت خدم أو كبار في السن لتصدر أوامرها إليهم، وكان المرسم مكاناً مناسباً للرقص، حيث يستمتعون بأنفسهم، فلا يشعرون بمرور الوقت. أبدوا في البداية لطفاً، إذ كانوا يغادرون البيت بحلول موعد العشاء؛ ولكن بعد ذلك أجبرتهم ناوومي على البقاء، قائلة: «إلى أين أنتم ذاهبون؟ لنتناول بعض الطعام قبل أن تمضوا». وبالتدريج أصبحنا نطلب دائماً طعاماً غربياً من مطعم «بيت أوموري».

وفي ليلة زادت فيها نسبة الرطوبة، في منتصف شهر يونيو، في بداية موسم الأمطار، أقبل هامادا وكوماچي، وأخذا يتبادلان أطراف الحديث، حتى تجاوزت الساعة الحادية عشرة، حين بدأت الأمطار تهطل، وتضرب النوافذ. أبدى كلاهما رغبة في العودة إلى بيته، لكنهما تردَّدا في الخروج.

قالت ناوومي على نحو مفاجيء:

ـ الطقس سيّء، وليس بإمكانكما العودة إلى البيت. امكثا هنا الليلة. لِمَ لا؟ تستطيع البقاء يا ما ـ شان، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد. الأمر سيّان بالنسبة لي. ولكن إذا ما قرَّر هامادا العودة إلى البيت، فسوف أذهب أنا أيضاً.

رمقته ناوومي، وقالت:

ـ بإمكانك البقاء يا هاما ـ سان، أليس كذلك، ليس هناك ما يدعو للخجل. لا يوجد ما يكفي من الأغطية، ولكن بالإمكان استيعاب أربعة أشخاص الآن. وغداً الأحد، وسيبقى چوچي في البيت، وبإمكاننا النوم في أية ساعة متأخِّرة نشاء.

لم يكن أمامي سوى مشاركتها في دعوتها للبقاء، فقلت:

ـ نعم، لِمَ لا تمكثان معنا، فالمطر يهطل بشدة.

قالت ناوومي:

ـ ونستطيع قضاء وقت ممتع غداً أيضاً. خطرت لي فكرة، بإمكاننا الذهاب في المساء إلى «كاجتسوين».

قلت، عندما تقرّر في نهاية المطاف بقاءهما معنا:

ـ ماذا سنفعل بشأن الناموسية؟

ردّت ناوومي بسعادة، مثل طفل في رحلة مدرسية:

ـ توجد ناموسية واحدة فقط، وبالتالي فإننا سننام كلنا معاً تحتها.

ربما كان النوم معاً في مجموعة واحدة أمراً يماثل حدثاً في رواية مثيرة بالنسبة لها.

لم أكن مستعداً لذلك. ظننت أننا سنترك الناموسية لهما، بينما نرش أنا وناوومي مبيداً لقتل البعوض، وننام معاً في المرسم. لم أكن أحسب أننا سننام نحن الأربعة في حجرة واحدة صغيرة. ولكن ذلك ما أرادته، ولم أشأ أن أبدو مثيراً للمتاعب أمام الشابين الآخرين. وكالعادة قرّرت هي كل شيء، بينما بقيت أنا على تردّدي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصدرت ناوومي أوامرها، وهي تتقدمنا نحو الحجرات الأخرى، قائلة:

ـ سأذهب لأرتِّب ما نفترشه لننام فوقه، وأريد من ثلاثتكم مساعدتي.

تساءلت عن الكيفية التي سترتِّب بها الحشايا. فالناموسية ليست كبيرة بالقدر الذي يسمح لنا جميعاً بالنوم تحتها جنباً إلى جنب. والحل هو أن ينام ثلاثة منا متجاورين، وينام الرابع بزاوية يمنى.

قالت ناوومي:

ـ سننام هكذا، أنتم أيها الرجال الثلاثة ستنامون معاً، وأنا سأنام هنا بمفردي.

قال كوماچي، وهو يتطلَّع إلى الناموسية، التي انتهينا من تركيبها:

ـ لن يكون هذا الوضع مريحاً، فسوف نتخبَّط مثل خنازير في زريبة.

ـ وماذا يهم إذا تخبَّطنا؟ لا ينبغي أن تتوقع الرفاهية طوال الوقت.

ـ حتى عندما أتمتّع بضيافة أصدقاء؟

ـ بالطبع. فلن نتمكّن من النوم الليلة على أية حال.

ـ إنني سأنام، وأشخر أيضاً.

قفز كوماچي، وهو مايزال يرتدي الكيمونو، فوق الفراش، فاهتزّ المنزل.

ـ قد تظن أنك ستنام، ولكني لن أتركك تفعل ذلك. يا هاما ـ سان لا تتركه ينام، وإذا غفا، اقرصه.

ـ من يستطيع النوم في هذا الجو الرطب الحار؟

استلقى هامادا بسرواله وقميصه التحتي، على يمين كوماچي، الذي تمدَّد وسط الحشايا، وقد رفع ركبتيه. شكلت بطنه منخفضاً حاداً في جسمه

النحيف. بدا كما لو أنه يصغي بهدوء إلى انهمار المطر في الخارج، وقد أراح إحدى يديه فوق جبهته، وأمسك بمروحة في اليد الأخرى. أكد صوت المروحة عدم ارتياحه، وقال:

ـ إنني لن أستطيع النوم مع فتاة في حجرة واحدة.

ـ لكنني صبي ولست فتاة. لقد قلت من قبل يا هاما ـ سان، إنني لا أبدو لك مثل الفتيات.

بدا ظهر ناوومي الأبيض، للحظة، في الظلال وراء الناموسية، وهي تخلع ثيابها، وترتدي قميص النوم.

ـ نعم، ذلك ما قلته، ولكن...

ـ إذا نمت بجانبك، هل سأبدو لك مثل الفتيات؟

ـ أظن ذلك.

ـ وأنت يا ماشان؟

ـ لن يختلف الأمر. فأنا لا أفكّر فيك كفتاة.

ـ ماذا إذن؟

ـ لنقل إنك فقمة.

ـ ليكن. أيهما أفضل الفقمة أم القرد؟

قال كوماچي، محاولاً اصطناع النوم:

ـ لا أحب كليهما.

تمدّدت على يسار كوماچي، أستمع صامتاً إلى دردشتهم. رحت أفكّر في المكان الذي ستنام فيه ناوومي، عندما تدخل تحت الناموسية ـ هل سيكون رأسها نحو هامادا أم نحوي؟ فقد ألقت بوسادتها في وضع غامض، ليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنا أو هناك. وانتابني شك أنها قد وضعتها هناك عمداً حين قامت بترتيب الفراش، حتى تستطيع الاختيار بين المكانين. دخلت في النهاية تحت الناموسية، وقد ارتدت قميص نومها الخفيف القرنفلي، ووقفت منتصبة، وقالت:

ـ هل أطفيء الأنوار؟

قال كوماچي:

ـ نعم. أتمنّى أن تفعلي ذلك.

ـ حسناً إذن.

صاح كوماچي:

ـ آه. آه.

كانت ناوومي قد قفزت على صدره، لتقف فوقه أثناء قيامها بإطفاء الأنوار.

غمر الظلام الحجرة، لكن النافذة عكست ضوء الشارع، فأنار الداخل بالقدر الذي جعلنا نتعرّف على الوجوه والملابس. قفزت ناوومي، فوق رأس كوماچي، لتصل إلى حشيتها. انفتح الجزء الأسفل من قميص نومها للحظة، ليشم أنفي رائحة جسدها.

وبدلاً من أن تستلقي، جلست على وسادتها، وقد باعدت بين ركبتيها مثل رجل، ونظرت إلى كوماچي، ثم قالت:

ـ ما رأيك في تدخين سيجارة؟ أجب! استدر نحوي!

ـ أف. إنك لن تتركيني لأنام، أليس كذلك؟

ضحكت، وقالت:

ـ استدر! وإذا لم تفعل فسوف أزعجك.

ـ تـوقّفي! توقّفي! قلت لـك توقّفي! عـامليني بقدر من الاحـترام. قـد أكون قوي البنية، ولكن أن تقفي فوقي وتركليني، فهذا كثير.

واصلت ناوومي ضحكها.

كنت أتطلّع إلى قمة الناموسيـة، لذلـك لم أكن متيقناً ممـا يحدث، ولكن من الواضح أن ناوومي كانت تضغط بأصابع قدميها على رأسه.

استدار كوماچي في النهاية، وقال:

ـ إنني أستسلم.

قال هامادا:

ـ هل أنت مستيقظ يا ما ـ شان؟

ـ نعم، إنها تعذبني.

ـ وأنت هاما ـ سان، استدر، وإلّا سأعذبك.

استدار هامادا، ونام على بطنه.

سمعت، في اللحظة ذاتها، قرقعة علبة ثقاب عنـدما أخـرجها كـوماچي من جيب الكيمونو، الذي يرتديه. أشعل عوداً، فأضاء المكان.

ـ لِمَ لا تستدير أنت أيضاً يا چوچي؟ ماذا تفعل؟

ـ آه، ماذا؟

ـ ما الأمر؟ هل أنت نائم؟

ـ أظن أنني غفوت.

ـ محاولة جيّدة، لكني أعتقد أنـك تتظاهـر بالنـوم. ألست عصبياً؟ لقد كانت مصيبة في ذلك. فـرغم أن عينيّ مغمضتان، إلّا أنني شعـرت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بوجهي وقد اصطبغ بالحمرة، فقلت: سأكون على ما يرام.

ـ إننا نلهو قليلاً، بإمكانك الاسترخاء والنوم... أو إذا كنت تشعر بالتوتر، فلِمَ لا تستدير؟ لا ينبغي عليك أن تلعب دور الشهيد.

قال كوماچي، وهو يشعل لفافة تبغ، ويأخذ نفساً:

ـ اعتقد أنه يريد أن يتعذَّب.

ـ لا. ليس هناك ما يدعو إلى تعذيبه. فأنا أقوم بالمهمة طوال الوقت. قال هامادا، دون أن يعني ما يقول، فاعتبرت كلامه مجرَّد إطراء لي:

ـ إنه رجل محظوظ.

ـ يا چوچي؟ أنت تعرف أنك إذا ما أردت أن أقوم بتعذيبك، فسأفعل.

ـ لا. لديّ ما فيه الكفاية.

ـ إذن استدر نحوي. شيء سيّء أن تكون مختلفاً عن الآخرين.

استدرت، وأرحت ذقني فوق الوسادة. كانت ناوومي جالسة، وركبتيها مرفوعتين، وساقيها متباعدتين على شكل الرقم «٧»، وقد وضعت إحدى قدميها أمام أنف هامادا، والأخرى أمام أنفي. أما رأس كوماچي فقد كان بين ساقيها.

ـ ما رأيك في المنظر يا چوچي؟

دمدمت ببعض كلمات لا معنى لها.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا أحب ذلك. أنت حقاً فقمة، أليس كذلك؟

ـ أنت على صواب. فأنا فقمة، وأجلس على الثلج، وهؤلاء الثلاثة الممدّدون أمامي ذكور الفقمة.

تعلّقت الناموسية الخضراء الباهتة فوقنا مثل سحابة كثيفة، وكان شعر ناوومي الطويل، الذي زادته الظلمة سواداً، يلفّ وجهها الأبيض، بينما كشفت فتحات في قميصها عن ثدييها، ذراعيها، وربلتي ساقيها... كان هذا واحداً من الأوضاع التي تعوّدت أن تغريني بها. وعندما أواجهها، أتحوَّل إلى فريسة سهلة. كدت أشعر بعينيها وهي تحدِّق فيّ وسط الظلام الشاحب، بإغرائها المعتاد، وهي تبتسم ظافرة.

ـ تكذب حين تقول إن الوضع لا يعجبك. فأنت تقول دائماً إنك لا تستطيع السيطرة على نفسك عندما أرتدي قميص نوم. لكنك تحاول أن تبدو صارماً، بسبب الآخرين. أليس ما أقوله صحيحاً يا چوچي؟

ـ لا تكوني سخيفة.

ـ إذا كنت ستتكلَّم بهذه الطريقة، فسوف أجعلك تستسلم.

قال كوماچي:

ـ إنك تتجاوزين الحدود. أتمنّى أن توفّري ذلك لليلة غد.

تدخّل هامادا، قائلاً:

ـ وأنا كذلك. يتعيَّن عليك أن تعاملي الجميع على قدم المساواة الليلة.

ـ إنني حريصة على المساواة بينكم. وحتى أكون عادلة، فقد وضعت قدماً أمامك يا هاماسان، والأخرى أمام چوچي.

ـ وماذا عني؟

ـ إنك الأوفر حظاً يا ما ـ شان. فأنت الأقرب مني، إن رأسك ملتصقة هنا، أليس كذلك؟

ـ لقد حظيت ببالغ الشرف.

ـ هذا صحيح، إنك تحظى بأحسن معاملة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لكنك لن تبقي هكذا طوال الليل. ما الذي سيحدث عندما تستلقين؟

ـ حسناً، لنرَ يا هاما ـ سان. أين سأضع رأسي؟ نحوك، أم نحو چوچي؟

ـ ليس مهماً أين ستضعين رأسك.

قال هامادا:

ـ نعم إنه ليس مهماً بالنسبة لك، فأنت في الوسط يا ما ـ شان، ولن يضيرك الأمر في شيء، ولكن ذلك سيثير مشكلة لي.

ـ أحقاً يا هاما ـ سان؟ إذن فسوف أنام ورأسي نحوك.

ـ تلك هي المشكلة. إذا وضعت رأسك في هذا الاتجاه، فسوف أشعر بالقلق، ولكني قد أكون عصبياً أيضاً إذا ما أدرت رأسك نحو السيد كاواي.

تدخّل كوماچي، قائلاً:

ـ إنها كثيرة الحركة أثناء النوم، فالذي سيكون قريباً من قدميها، سيتلقى الركلات في وسط الليل.

ـ أهي كثيرة الحركة أثناء نومها، يا سيد كاواي؟

ـ نعم كثيرة الحركة للغاية.

ـ يا هامادا!

ـ نعم.

ـ سمعت أنك لعقت أخمص قدم أحد الأصدقاء وأنت نائم.

ـ وما الضرر في لعق القدم؟ إن چوچي يفعل ذلك طوال الوقت، بل إنه يقول إن قدمي أحب إليه من وجهي.

ـ ذلك نوع من أنواع الانحراف الجنسي، أليس كذلك؟

ـ ولكن ما أقوله صحيح. أليس كذلك يا چوچي؟ إنك تفضّل قدمي، أليس كذلك؟

راحت ناوومي ترفع قدميها نحوي، ثم نحو هامادا، قائلة:

ـ حتى أكون عادلة.

ثم تغيّر من جلستها كل خمس دقائق، وتدير نفسها للاتجاه المعاكس، قائلة:

ـ والآن حان دور هامادا لرؤية قدمي.

وتدور بجسمها مثل بوصلة، رافعة قدميها وهي تلفّ، فتركل قمة الناموسية، وهي تلقي بوسادتها من طرف إلى آخر. كان نشاط الفقمة عنيفاً، فتهدّلت الناموسية، وتسرّب العديد من البعوض إلى داخلها.

جلس كوماچي بشكل مفاجيء، وصرخ:

ـ اللعنة! لقد تسرّبت مليون بعوضة!

داس أحدهم فوق الناموسية، فحطّم مشاجبها، فسقطت فوقنا. راحت ناوومي تتحرّك، داخل الناموسية التي تغطينا، بشراسة أكبر من ذي قبل. استلزم تثبيت المشاجب، وتعليق الناموسية من جديد وقتاً طويلاً. وحين عاد الهدوء في نهاية المطاف، كان الأفق الشرقي قد سطع بالضوء.

غفوت في النهاية، وسط صوت هطول الأمطار، وعويل الرياح، وشخير كوماچي النائم بجانبي. لكني سرعان ما استيقظت. تكون الحجرة غير مرتبة عادة عندما لم يكن يقيم فيها سوانا نحن الإثنين، ومعبقة بالشذا الذكي، ورائحة العرق المعلّق ببشرة ناوومي وثيابها. أمّا مع وجود رجلين آخرين في تلك الليلة، فإن رائحتها كانت سيّئة، وجوها يماثل الجو الرطب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحار الخانق، الذي يسود قبيل حدوث هزّة أرضية. كانت ذراع أو ساق كوماچي تحتكّ بي كلما تقلّب في نومه. شعرت بوسادة ناوومي عند قدمي، لكنها وضعت إحدى قدميها فوقها. أما الركبة الأخرى فكانت مرفوعة، والقدم تحت حشيتي. اتجهت رأسها نحو هامادا، وذراعاها ملقاتان بجانبها. إن الفتاة المدلّلة ترقد مستنزفة في سعادة.

همست وأنا أتفحص التنفس المنتظم للآخرين، قائلاً:

ـ ناوومي.

تحسّست القدم المستريحة تحت حشيتي، آه هذه القدم الجميلة البيضاء، التي ترقد في سلام، إنها تخصني. لقد دأبت على غسلها بالصابون في الحمّام منذ أن كانت صبية. وبشرتها الناعمة! لقد فار جسدها منذ أن بلغت الخامسة عشرة من عمرها، لكن هذه القدم ما تزال كما هي غاية في الروعة. لا يبدو أنها قد نمت على الإطلاق. نعم فالأصبع الكبير مازال كما كان. وكذلك شكل الأصبع الصغير، واستدارة الكاحل، وامتلاء مشط القدم. وجدت نفسي أضع شفتي بهدوء فوق قمة قدمها.

غفوت مرة أخرى قبل شروق الشمس، لأستيقظ على موجة من الضحك. لقد وضعت ناوومي ورقة مبرومة في منخاري.

ـ هل أنت مستيقظ يا چوچي؟

ـ كم الساعة الآن؟

ـ العاشرة والنصف. ولكن ليس هناك ما يدعو للنهوض من الفراش. لنبق حتى الظهر.

توقفت الأمطار، وصفقت السماء، لكن رائحة العرق اكتنفت الحجرة.

- ١٣ -

لم أتوقّع أن يكون هناك من يعرف بقصتي في العمل. فقد كانت حياتي مقسّمة بالعدل بين البيت والمكتب. صحيح أن صورة ناوومي كانت تراود مخيلتي، وأنا أعمل، ولكن ليس بالقدر الذي يؤثّر على أدائي. اعتقدت أن زملائي مايزالون يرون فيّ الرجل المهذب «الجنتلمان».

ولكن في وقت متأخّر من مساء كئيب خلال موسم المطر، أقيم حفل توديع في «سايوكن» في «تسوكيجن» لزميل مهندس يدعى ناميكاوا نقلته الشركة إلى مكتب في أعالي البحار. وكالمعتاد، ذهبت إلى الحفل من منطلق المجاملة لا أكثر. انتقلنا بعد أن تناولنا العشاء، من حجرة الطعام إلى حجرة التدخين، ورحنا نتبادل أطراف الحديث، ونحن نحتسي المشروبات. نهضت واقفاً، ظناً مني انه الوقت المناسب للانصراف قد حان.

أوقفني رجل يدعى «س»، وقال مقطّباً:

ـ تعال يا كاواي، واجلس هنا!

كان يجلس، نصف مخمور، فوق مقعد، وبجانبه الزملاء «ت»، «ك»، و «هـ»، وحاول أن يجلسني بجانبهم، في منتصف المقعد.

قطب مرّة أخرى، وهو يتطلع إليّ، وأنا أقف، وقد علت وجهي علامات الاستفسار، ثم قال:

ـ تعال! لا تتعجّل هل ستذهب إلى مكان في هذا الجو الماطر؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لا. الأمر ليس كذلك، ولكن...

قال «هـ»:

ـ إذن ستذهب إلى المنزل من فورك؟

ـ نعم، أستميحكم عذراً، فإنني أقيم في «أومـوري»، والطرق تكون سيِّئة في مثل هذا الطقس. وإن لم أنصرف في وقت مبكر، فلن أعثر على عربة «ريكشا».

قال «ت» وهو يضحك:

ـ أصغ إليّ يا كاواي، لقد خرج الهر من الكيس.

ـ ماذا؟

لم أفهم ما يعنيه «ت» بلفظ «الهر»، لكني شعرت بالذعر.

قال «ك» وهو يميل برأسه، وكأنه قد تأثَّر بالحديث:

ـ لم نكن نتوقَّع ذلك منك، إذ كنا نظن دائماً أنك مثال الرجل المهذب. وأضاف «س» بالقرب من أذني، حتى لا يتنصَّت أحد على ما يقوله:

ـ أصغ إليّ يا كاواي. مَن تلك الفاتنة الحسناء التي تخرج معها؟ نريد أن نتعرَّف عليها نحن أيضاً.

ـ إنها ليست ذلك النوع من النساء.

ـ لكني سمعت أنها ممثِّلة في «الأمبريال». أليس كذلك؟ ثمة شائعة تنتشر بأنها ممثِّلة سينمائيّة أيضاً. وتقول إحدى الروايات أنها أوراسيّة. أين هي؟ لن نتركك قبل أن تقول لنا كل شيء.

كان «س» يجلس قبالتي، ويستجوبني باهتمام شديد، دون أن يبدي اهتماماً بضيقي، ودمدمتي المضطربة.

ـ ما الأمر إذن؟ هل تدعوها عندما تذهب لترقص فقط؟

كنت على وشك أن أصرخ في وجهه قائلاً: «أيها الأحمق!». لم أكن أتوقَّع أن هناك من يعرف بقصتي في العمل. ولكني دُهشت، لأنهم لم يكتشفوا قصتي مع ناوومي فحسب، وذلك من الطريقة التي تحدَّث بها «س»، بل إنهم لم يعتقدوا أنني وناوومي متزوِّجان. اعتقدوا أنها إمرأة يمكن طلبها وقتما يشاءون.

كنت على وشك أن أصرخ، في ثورة الغضب، رداً على هذه المواجهة غير المحتملة: «حمقى! كيف تجرأون على التحدّث عن زوجة رجل على هذا النحو!»

واصل «هـ» ضغطه عليّ بلا رحمة، قائلاً:

ـ هلمّ يا كاواي، أخبرنا!

ثم التفت إلى «ك»، وقال:

ـ مَن قال لك أنه سمع عنها؟

ـ طالب بجامعة كيو.

ـ وماذا قال؟

ـ إنه أحد أقربائي، ومهووس بالرقص، يقضي كل وقته في المراقص، وهناك تعرَّف عليها.

سأل «ت» وقد مال نحو «ك»:

ـ ما اسمها؟

ـ اسمها... دعني أفكِّر... إنه غريب... ناوومي... أعتقد أنه ناوومي.

رمقني «س» بنظرة ثاقبة، وقال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ناوومي؟ . . . إذن قد تكون أوراسيّة. وإذا كانت كذلك، فهي ليست ممثّلة.

ـ على أية حال، سمعت أنها امرأة سريعة. إنهم يقولون إنها تمارس الحب بسرعة ومجاناً مع بعض طلاب جامعة «كيو».

كنت أنتفض، وأنا أغتصب ابتسامة من فمي المرتعش، ولكن عندما بلغت رواية «ك» هذه النقطة، تجمّدت الابتسامة على وجهي، وبدا أن عيني تغوصان في محجريهما.

صاح «س» مبتهجاً:

ـ آه! آه! ممتاز. هل فعل قريبك الطالب شيئاً معها؟

ـ لا أعرف شيئاً عن ذلك. ولكنه قال إن صديقين أو ثلاثة فعلوا ذلك.

ـ توقّفوا، توقّفوا! لقد ضايق ذلك كاواي. انظروا إلى وجهه! عندما قال «ت» ذلك.

نظروا جميعهم إليّ، وضحكوا.

ـ لِمَ لا نتركه يتضايق قليلاً؟ إنه لا يتمتع بروح رياضية، إذ يحتكر امرأة بذلك الجمال لنفسه، ويخفيها عنا.

ـ ماذا بك يا كاواي؟ من الطبيعي أن يواجه أي رجل عادي بعض المشاكل بين فترة وأخرى، أليس كذلك؟

ضحكوا جميعاً

لم أعد أشعر بالغضب، إذ لم أكن أسمع شيئاً مما يقولونه. كنت مدركاً فقط لصدى ضحكاتهم في أذنيّ. كان كل همي هو اختيار أفضل السبل للخروج من الموقف. هل أصرخ؟ هل أضحك؟ إذا ما قلت شيئاً خاطئاً، ألا يزيد ذلك الطين بلّة؟

خرجت من حجرة التدخين، وأنا في حالة دوار. لم تلمس قدماي

الأرض، حتى وصلت إلى الشارع، الذي يغطيه الوحل، وواجهت المطر البارد، هرعت باتجاه حي جنزا، وأنا أخشى أن يكون هناك من يتبعني.

استدرت، عند أول منعطف بعد «أواريشو»، وسرت باتجاه «شيمباشي». تحرّكت ساقاي، دون وعي، في ذلك الاتجاه، ولم يكن لرأسي أي تدخل في الأمر. عكس الرصيف المبلّل أضواء الشارع على عيني. بدا أن هناك عدداً من المارّة في الشارع، رغم الطقس... فتاة جيشا تحت مظلة، شابة ترتدي ثوباً من الصوف، عربات ترام، وسيارات.

ناوومي امرأة سريعة؟ تمارس بسرعة ومجاناً مع الطلاب؟... أهذا ممكن؟ نعم، ممكن. فمن خلال تصرفاتها الأخيرة، كان من الغريب ألاّ أفكّر على هذا النحو، رغم أنني كنت أشعر سراً بالقلق. لكني شعرت بالطمأنينة مع وجود العديد من الأصدقاء الشبّان حولها. فهي طفلة، وفي غاية النشاط. بل إنها تقول عن نفسها إنها صبي. ولذلك فإنها تحب أن تحيط نفسها بالكثير من الصبية، وتلهو معهم ببراءة ومرح. وإذا كان لديها أي دافع خفي، فما كانت تستطيع إخفاءه عن عيون كثيرة. بالتأكيد أنها... ولكن لا ينبغي علي أن أقول «بالتأكيد».

ولكن «بالتأكيد»... بالتأكيد ليست هذه الرواية صحيحة. فرغم أن ناوومي امرأة مندفعة، إلاّ أنها تتمتّع بشخصية نبيلة. أعرف ذلك جيّداً. فظاهرياً تعاملني بازدراء، ولكنها تشعر بالامتنان نحوي لأنني قمت بتربيتها منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها.

ستقول لي، ونحن على الفراش في وقت متأخّر من الليل، والدموع في عينيها، إنها لم تخني قط. لن أشك في كلماتها. لا بد وأن بعض الأوغاد قد لفّقوا قصة «ك» ليسخروا مني. يا له من شعور بالراحة... ولكن من هو الطالب الذي تربطه صلة قرابة بـ «ك»؟ إن لها علاقات بصديقين أو ثلاثة أصدقاء. إثنين أو ثلاثة... هامادا؟ كوماچي؟... هذان الإثنان تحوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حولهما الشكوك. ولكن إذا كان الأمر كذلك، لِمَ لا يتعاركان؟ لِمَ يأتيان إلى البيت معاً، ليس كلاً على حدة، ويلهوان في سعادة مع ناوومي؟ هل من الممكن أن يكون ذلك حيلة لخداعي؟ أم هل تناور ناوومي معهما، فلا يعرف أحد شيئاً عن الآخر؟ لا، الأكثر أهمية، هل من الممكن أن تكون ناوومي قد انحدرت إلى مثل هذا الدرك؟ إذا كانت قد تورّطت مع الإثنين، فقد مثّلت بنجاح ذلك الدور الوقح الصفيق، الذي لعبته في ليلة حفل النوم. إذا كان ذلك قد حدث، فإنها ممثّلة أفضل من أية عاهرة.

كنت قد عبرت جسر «شيمباشي»، قبل أن أدرك ذلك، وسرت في طريق «شيباجوشي» حتى وصلت إلى جسر «كانا سوچي»، والوحل يتناثر حولي. استمر هطول المطر، وحاصرني من جميع الاتجاهات، وتسرّبت المياه من مظلّتي، وتناثرت فوق كتفي معطفي، الواقي من المطر. لقد أمطرت على هذا النحو في الليلة التي نمنا فيها جميعاً معاً، وفي الليلة التي انفتح قلبي فيها لناوومي في مقهى «دياموند» ـ كان ذلك في فصل الربيع، لكنها أمطرت كما تمطر الآن. هل من الممكن أن يكون هناك شخص في البيت في «أوموري» هذه الليلة مرّة أخرى؟ حفل نوم آخر؟ وفجأة انتابتني الشكوك. سيكون هامادا وكوماچي جالسين على المقعد، وبينهما ناوومي، تسرد عليهما نكاتها السخيفة. تجسّد المشهد الفاسق في المرسم حياً أمام عيني.

ناوومي، ناوومي! لِمَ تركتها الليلة؟ إنها ليست معي، وهذه هي المشكلة، ذلك هو أسوأ ما في الأمر... اعتقدت أن أعصابي ستهدأ إلى حدٍّ ما، إذا رأيت ناوومي. ابتهلت إلى الله أن تتلاشى شكوكي، حين أسمع صوتها الرخيم، وأرى عينيها البريئتين.

لكن ما الذي سأقوله إذا ما أرادت إقامة حفل نوم مماثل؟ ما الأسلوب الذي سأتبعه، من الآن فصاعداً، معها ومع أولئك النفاية الذين يتصلون بها، مثل هامادا، كوماچي والآخرين؟ هل أتحدّى غضبها، وأجرؤ على

مراقبتها بصرامة أكبر؟ قد تسير الأمور على مايرام، إذا ما أذعنت، ولكن ما الذي سيحدث إذا قاومت؟ لا، لن يحدث ذلك. سأقول لها: «بعض الزملاء في الشركة قالوا لي أشياء مهينة للغاية الليلة. وأريدك أن تتصرّفي بمزيد من الحذر، حتى لا يسيء أولئك الزملاء فهمك». وهذا سيكون مختلفاً عن مواقف أخرى. من المرجح أن تطيعني من أجل الحفاظ على سمعتها. ولكن إذا كانت غير مبالية بسمعتها، وإساءة فهم البعض لتصرفاتها، فإنها ستكون موضوع شك، وستكون رواية «ك» عنها صحيحة. لو... آه، لو أن تلك هي الحالة...

هدَّأت من روعي قدر الإمكان، وحاولت تمالك أعصابي، وأنا أتخيَّل هذا السيناريو الأخير. لو اتضح أنها خدعتني، هل سيكون بإمكاني الصفح عنها؟ الواقع أنني لا أستطيع بالفعل مواصلة الحياة بدونها، ولو ليوم واحد. لو أعربت عن أسفها واعتذارها لسوء سلوكها السابق، فلن أنتقدها، ولن يكون لي الحق في ذلك، لأنني شاركت في جنوحها. لكنها عنيدة، وقد تميل إلى معاندتي: هل ستكون على استعداد للاستسلام، حتى لو واجهتها بالدليل؟ ذلك ما أثار قلقي. وحتى لو أنها استسلمت، كيف لي أن أكون على يقين من أنها لن تستمر في غيِّها؟ وقد تعتبرني خصماً من السهل التغلّب عليه، وتكرِّر أخطاءها المرّة تلو الأخرى. ماذا يحدث إذا ما أجبرتنا الخلافات على الانفصال؟ هذا ما أرعبني أكثر من أي شيء آخر. وبصراحة، فإن هذا سبَّب لي قلقاً أكبر بكثير من جنوحها. وإذا كنت سأمضي قدماً في استجوابها، أو مراقبة تصرفاتها، فإنه يتعيَّن عليّ أن أعدّ نفسي لتلك النهاية. وإذا ما قالت: «سوف أخرج من حياتك»، فإنني آمل أن أكون على استعداد للقول: «ارحلي، إذا شئت».

أعرف أن ناوومي، على ذلك الصعيد، في وضع ضعيف مثلي تماماً. فبإمكانها أن تعيش في بذخ طالما هي معي، ولكن إذا ما رحلت عني، فلن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تجد مكاناً سوى ذلك البيت القذر في «سنزوكي»، ولن يكون هناك أحد ينفق عليها بسخاء، ما لم تصبح عاهرة. ربما كان الأمر سيصبح مختلفاً قبل ذلك، ولكنها لن تستطيع الآن، بعد أن باتت مدلّلة، ومزهوّة بنفسها، تحمل تلك الحياة. قد يعرض عليها هامادا، أو كوماچي، الإقامة معه، لكنها ستدرك أن طالباً لن يستطيع توفير الجو، الذي وفّرته لها. اكتشفت، في هذه اللحظة، أنني فعلت خيراً عندما أتحت لها فرصة الاستمتاع بحياة مرفهة.

تذكّرت عندما مزّقت كرّاستها، أثناء درس اللغة الإنجليزية، وطلبت منها بغضب أن ترحل. كان ذلك سيصبح صعباً عليّ، لكنه كان أصعب بالنسبة لها. ماذا كان سيحدث لها بدوني؟ كانت ستنحدر، إذا ما تركتني في ذلك الوقت، إلى أعماق المجتمع السحيقة، إلى القاع مرّة أخرى. ذلك الاحتمال يتعيّن أن يخيفها اليوم، كما أخافها وقتها. إنها الآن في عامها التاسع عشر، وقد أصبحت ناضجة، ومدركة للعالم حولها على نحو أفضل، وللمخاطر التي ستتهدَّدها. وإذا كنت على صواب، فإنها قد تهدِّد بالابتعاد عني، لكنها لن تستطيع تنفيذ تهديدها. فهي تعرف جيِّداً أن مثل هذه المناورة المكشوفة لن تخدعني.

استجمعت بعض شجاعتي، عندما وصلت إلى محطة قطار «أوموري». مهما حدث، فإنه قد كُتب عليّ، وعلى ناوومي ألا نفترق. هذا هو يقيني.

حين وصلت إلى البيت، أدركت أن تصوراتي المتشائمة لم تكن صحيحة. فالمرسم كان مظلماً ويخيِّم عليه السكون، ولا يبدو أن هناك زائراً واحداً، ولم يكن ثمة أي ضوء سوى في أعلى البيت، تحت السقف مباشرة.

شعرت بالارتياح عندما أدركت أنها موجودة بمفردها. فتحت الباب الأمامي، وخطوت للداخل، وأشعلت الضوء في المرسم. ورغم أن

الحجرة في حالة فوضى كالعادة، فإنني لم ألمح ما يشير إلى أنه كان يوجد أي أصدقاء.

صحت: «ناوومي، لقد عدت...»

لم ترد عليّ.

صعدت الدرج، فوجدتها نائمة بهدوء في الحجرة العليا. لم يكن هناك شيء غير عادي، إذ أنها غالباً ما تنكمش تحت الأغطية، حين تشعر بالملل، سواء خلال النهار أو الليل، وتنام وبين يديها رواية. تأكّدت من ذلك حين رأيت وجهها البريء.

هل تخدعني؟ هل من المحتمل ذلك؟... هذه الفتاة، التي تتنفّس بهدوء هنا، والتي أنظر إليها الآن؟

جلست بجوار وسادتها، وأنا حريص على عدم إيقاظها. كتمت أنفاسي، واختلست نظرة إلى جسمها النائم. في قديم الزمان، خدع ثعلب شاباً بالتحوّل إلى أميرة، ولم يكشف عن شكله الحقيقي سوى بعد أن نام وزُفّ إليها. تذكّرت، ما سمعت من تلك القصص في طفولتي. كانت ناوومي صعبة في نومها، لذلك فقد أزاحت عنها الغطاء، وسحبته ليكون بين فخذيها. رفعت كوعها، واستقرّت يدها، مثل غصن مائل، على ثديها العاري، بينما فردت ذراعها الأخرى باتجاه ركبتي، ومالت رأسها نحو ذراعها الممدودة، فبدت كما لو أنها ستنزلق عن الوسادة في أية لحظة. رأيت بالقرب من أنفها كتاباً مفتوحاً. إنه رواية سلالة كين للكاتب أريشيما تاكيو، الذي تعتبره ناوومي «أعظم الروائيين المعاصرين». انتقلت عيناي بين بياض الورق الغربي الناصع في الكتاب، وبياض ثديها.

كانت بشرتها تبدو صفراء في يوم، وبيضاء في يوم آخر، لكنها تصبح شفّافة على نحو غير عادي حين تكون نائمة، أو عندما تستيقظ، كما لو أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كل الشحم في جسدها قد ذاب، عادة ما يكون الليل مرادفاً للظلام، ولكن بالنسبة لي، فإن الليل يذكّرني دوماً ببياض بشرتها وعلى عكس ضوء النهار ناصع البياض، الذي لا ظلال فيه، فإن بياضها ملفوف في أسمال، وسط أغطية مغبّرة، متّسخة، وبشعة، وذلك ما جعلني ألتصق به على نحو أكبر. تحرك ثديها، وأنا جالس أحدِّق فيه، في حيوية، وسط الظلال، التي يصنعها ضوء المصباح، مثل شيء مستلق في أعماق مياه صافية. ارتسمت على وجهها، تقطيبة حزينة، كما لو أنها قد ابتلعت لتوها دواء مرّاً. أحببت وجهها، وهي نائمة. تعوَّدت أن أقول لها: «تبدين كما لو كنت شخصاً مختلفاً وأنت نائمة». وكنت عادة ما أقول لنفسي: «إن وجهها، الساكن سكون الموت، يكون جميلاً هو أيضاً». لو أنها ثعلب، وشكلها الحقيقي هو ذلك الشكل الساحر، فإنني سأتركه يسحرني.

جلست دون حراك لنحو ثلاثين دقيقة. كانت يد ناوومي نصف مغلقة، كما لو أنها زهرة على وشك أن تتفتّح. كنت أرى بوضوح رسغها وهو ينبض بهدوء.

اضطرب تنفّسها المنتظم الهادىء قليلاً، وفتحت عينيها، ولكن ظلّت مسحة من الحزن تغطّي وجهها، وقالت:

ـ متى عدت؟

ـ الآن فقط، منذ دقائق.

ـ لماذا لم توقظني؟

ـ لقد ناديت، لكنك لم تستيقظي، فجلست بجوارك ساكناً.

ـ وماذا كنت تفعل بجواري؟ تراقبني وأنا نائمة؟

ـ نعم.

ضحكت بعفوية طفل، ووضعت يدها الممدودة فوق حجري، وقالت:

ـ يا لك من رجل غريب. لقد شعرت بـالملل وأنا بمفـردي. كنت أعتقد أن أحداً قد يأتي، ولكن لم يأت أحد... هل ستخلد إلى النوم؟

ـ أظن ذلك.

ـ آه، حقاً! لقد غلبني النوم هنا، فتعرّضت لقرص البعـوض. أنظر إلى هذا! اهرشني هنا!

هرشت ذراعيها وظهرها.

ـ شكـراً، جسمي يحكّني... هل لـك أن تحضر قميص نومي وتلبسني إيّاه؟

أحضرت قميص النوم، طوّقتهـا، وهي مستلقية، ثم أنهضتهـا. فككت نـطاقها، وألبستهـا القميص، بعد أن خلعت عنهـا الكيمونـو، فـاسـترخت واستلقت كجثة هامدة، وقالت:

ـ ضع الناموسية يا أبي، وتعال إلى الفراش بسرعة...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٤ -

ليس هناك ما يدعو للدخول في تفاصيل الحديث الذي جرى بيننا على الفراش في تلك الليلة. فعندما سمعت ناوومي ما حدث في «سيوكن» لم تعلّق كثيراً عليه، لكنها قالت بصورة مقتضبة: «يا لها من كلمات بذيئة، إنهم لا يعرفون شيئاً!». إن المشكلة تكمن في أن الناس لم تتفهّم بعد حقيقة الرقص. فإذا رقص رجل وامرأة، ولفَّ كل منهما ذراعه حول الآخر، ظنَّ الناس أن هناك علاقة غير عادية بينهما، وراحوا يردِّدون الشائعات حولها. وقد نشرت صحف رجعية مقالات لا أساس لها من الصحة، وصمت الرقص، وجعلت معظم الناس يعتقدون أنه فاسد كريه، وقد روّضنا أنفسنا على سماع ذلك النوع من الكلام.

- كما إنني، يا چوچي، لم أكن بمفردي قط مع أي رجل آخر. أليس كذلك؟

لقد رقصنا معاً، ولهونا في البيت معاً، لكنها لا تستقبل ضيفاً حين أكون خارج المنزل. وإذا ما جاء شخص بمفرده، تقول له: «آسفة، أنا بمفردي اليوم»، ويرحل الزائر بكل احترام. ولم يكن من بين أصدقائها شخص سيّء الخلق، يطلب البقاء. وتضيف قائلة: «قد أكون أنانية، لكني أعرف الصواب والخطأ. بإمكاني خداعك إذا ما أردت، إلّا أنني لن أفعل ذلك مطلقاً. إنني أفعل كل شيء في العلن، ولا أخفي شيئاً يا چوچي. ولم أخف شيئاً عنك قط».

- أعرف. إن ما يثير الضيق هو أن يكون هناك أناس يقولون ذلك النوع من الكلام لي.

ـ إذن ماذا ستفعل للرد عليهم؟ هل ستتخلّى عن الرقص؟

ـ نحن لسنا بحاجة لذلك، ولكن يتعيّن أن تكوني حريصة، حتى لا يسيء الناس فهمك.

ـ ولكني أوضحت لك لتوّي مدى حرصي في التعامل مع الأصدقاء.

ـ هذا صحيح. ولكني لست الشخص الذي يسيء فهمك.

ـ إذا كنت تفهمني، فإنني لا أخشى ما يقوله الآخرون عني. إنهم لا يجبونني على أية حال، لأنني فظّة وسليطة اللسان.

ثم كرّرت، بكلمات معسولة رقيقة، أنها لا تريد شيئاً أكثر من أن أثق فيها، وفي حبها لي، وإنه من الطبيعي أن يكون لها أصدقاء، لأنها ليست كأية امرأة أخرى، فهي تفضّل الرجال لأنهم أكثر صراحة وبساطة، وهذا هو السبب في أن كل أصدقائها من الرجال. ولكن هذا لا يعني أنها تشعر تجاههم بأية عواطف خاصة ـ سواء كانت حسيّة أو رومانسيّة. ثم قالت، في نهاية المطاف، وهي تنتحب: «إنني لم أنس مطلقاً الدين الذي أدين به لك لتربيتك لي، وأفكر فيك باعتبارك أبا وزوجاً معاً». ثم جعلتني أمسح دموعها، وأمطرتني بوابل من القبلات.

ولكن الغريب في الأمر أنها لم تذكر اسمي هامادا أو كوماچي في مجرى حديثها الطويل، ولا أدري ما إذا كانت قد تعمّدت ذلك أم لا. كنت أخطّط عملياً لذكر اسميهما، ومراقبة وجهها لمعرفة رد فعلها، لكن الفرصة لم تسنح لي. لم أصدِّق، بطبيعة الحال، كل ما قالته، فمجرّد أن تبدأ الشكوك تشقّ طريقها داخل الإنسان، يصبح من الصعب تصديق أي شيء. لم تكن هناك حاجة لمعرفة ما حدث معرفة دقيقة، ولكن كل ما كان يتعيّن عليّ عمله هو أن أكون يقظاً في مراقبتها... لا، في البداية اعتزمت أن أكون صارماً، ولكن بالتدريج جعلتني أصل إلى هذا الوضع غير الواضح المعالم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت متردِّداً، وأنا أسمع همساتها وسط نحيبها، وهي تقبِّلني والدموع تنهمر من عينيها. انتابتني الشكوك في أنها تكذب، لكني بدأت أقتنع، في النهاية، بأن ما تقوله يبدو حقيقياً.

بعد ذلك، ظللت أراقب تصرفاتها، وبالتدريج وببطء شديد، بدا أن حالها قد انصلح. لم ننقطع عن الرقص، ولكن ليس بالمعدل السابق، وعندما نذهب، نرقص قليلاً، ثم ننصرف في وقت مبكر. لم يعد الزائرون يزعجوننا، وحين أعود إلى البيت، أجدها بمفردها، تقرأ رواية، أو تقوم بأشغال الإبرة، وتصغي بهدوء للحاكي، أو تزرع الزهور في الحديقة.

ـ هل مكثت في البيت بمفردك مرّة أخرى اليوم؟

ـ نعم، بمفردي طوال الوقت. لم يأت أحد للزيارة.

ـ أتشعرين بالوحدة إذن؟

إذا كنت أعرف من البداية أنني سأكون بمفردي، فإني لا أشعر بالوحدة. إن ذلك لا يثير ضيقي.

ثم استطردت:

ـ أفضِّل، بالطبع، قضاء الوقت في التسلية. ومع ذلك فلا تثير الوحدة ضجري. لم يكن لي أصدقاء كثيرون حين كنت صغيرة. كنت دائماً ألاعب نفسي.

ـ أعتقد ذلك، وتؤكِّدينه أنت الآن، كنت قلما تتحدثين مع الآخرين في مقهى «دياموند»، بل كنت تبدين مكتئبة قليلاً.

ـ ذلك صحيح. كنت أتصرَّف كفتاة مشاغبة، ولكني في الحقيقة مكتئبة. ألا تحبني على هذا النحو؟

ـ أحب ذلك إذا ما كنت على مايرام، لكني أفضِّل ألا تكوني مكتئبة.

ـ ولكن أليس ذلك أفضل من أن أظل مشاكسة كما كنت سابقاً.

ـ لا أستطيع أن أحدِّد أيهما أفضل.

ـ إنني أفضل الآن، أليس كذلك؟

وهرعت فجأة نحوي، ولفَّت ذراعيها حول رقبتي، وقبَّلتني بعنف.

وحين أقول لها:

ـ ما رأيك، هل نذهب إلى صالة الرقص الليلة؟ إننا لم نرقص منذ فترة.

كانت تجيب بطريقة غامضة، وعلى وجهها علامات العبوس: «إذا كنت تريد ذلك يا چوچي». ولكنها كانت غالباً ما تقول: «لِمَ لا نذهب إلى السينما؟ إنني لا أشعر برغبة في الرقص الليلة».

عدنا مرّة أخرى للحياة البريئة السعيدة، التي تقاسمناها معاً قبل أربع أو خمس سنوات من الآن. كنا نذهب كل ليلة إلى «أساكوسا»، ونعرج على السينما، ونتناول العشاء قبل العودة إلى البيت. كنا نستعيد الأيام التي قضيناها معاً بحنين جارف، ونحن نتناول طعامنا. قلت لها: «كنت صغيرة للغاية عندما جلست فوق سور مسرح «أمبريال» وشاهدت الفيلم، وأنت تضعين يدك على كتفي». فقالت: «أول مرّة جئت فيها إلى المقهى، جلست تحدِّق في وجهي، مما أثار توتري».

ثم أضافت:

ـ بالمناسبة، يا أبي، لم تعد تحمِّمني. لقد كنت تغسل جسمي دائماً في تلك الأيام.

ـ نعم، صحيح. سأفكِّر في ذلك.

ـ ماذا تعني بعبارة سأفكِّر في ذلك؟ ألن تحمِّمني مرّة أخرى؟ أظن أنك لم تعد مهتمّاً الآن بغسل جسمي بعد أن أصبح كبيراً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ليس الأمر على هذا النحو. سوف أحمِّمك الآن، ولكن في الحقيقة أنني كنت أمنع نفسي.

ـ حقاً؟ إذن حمِّمني. سوف أكون طفلة مرة أخرى.

من حسن الحظ أن هذه المناقشة جرت في بداية موسم الحر. قمت بنقل حوض الاستحمام من ركن المخزن إلى المرسم مرة أخرى، وبدأت أحمِّم ناوومي. كنت أقول لها من قبل: «يا طفلتي الكبيرة»، أما الآن فكنت أرى، وأنا أساعدها على الاستلقاء في الحوض، أنها قد أصبحت فتاة مكتملة النضج؛ شعرها المثير يتناثر بغزارة، مثل سحب أمطار المساء، ولحمها يبدو مستديراً عند مفاصلها، وكتفاها أكثر امتلاء، أما ثدياها وورکاها فقد زاد ارتفاعهما ومرونتهما، وبدت ساقاها أكثر طولاً عن ذي قبل.

ـ هل نما جسمي، يا چوچي؟

ـ آه، نعم. لقد كدت تطاولين قامتي.

ـ سأصبح أطول منك قريباً، يا عزيزي. عندما «زنت نفسي منذ بضعة أيام، وجدت أنني أزن مائة وسبعة عشر رطلاً.

ـ مدهش. إنني أزن حوالي مائة وثلاثين رطلاً.

ـ هل أنت حقاً أثقل مني وزناً؟ إنك مثل قريدس صغير.

ـ بالطبع أنا أثقل منك. قد أكون قريداً، لكن للرجال هياكل أثقل.

ـ إذن هل ما زلت تتمتَّع بالشجاعة التي تجعل منك حصاناً أمتطيه؟ لقد تعوَّدنا على ذلك كثيراً عندما أقمنا في هذا المنزل، وكنت أركب فوق ظهرك لتدور بي في الحجرة...

ـ كنت خفيفة الوزن في ذلك الوقت، حوالي مائة رطل فقط على ما أظن.

ـ سوف تنهار الآن.

ـ لا تكوني سخيفة. إذا كنت تعتقدين ذلك، فاركبي فوق ظهري، وسترين.

كانت نتيجة هذه النكتة، أننا لعبنا لعبة الحصان، كما كنا نفعل من قبل. قلت لها، وأنا أجثو على أطرافي الأربعة:

ـ الحصان جاهز.

ألقت بحمولتها المائة وسبعة عشر رطلاً فوق ظهري، ووضعت المنشفة في فمي لتقوم بعمل اللجام.

صاحت بسعادة، وهي تحيط بطني بساقيها، وتهزّ اللجام:

ـ يا لك من حصان هزيل صغير! انهض! انهض!

صمَّمت على ألا أنهار تحتها، وأخذت أتحامل على نفسي، وأدور بها في الحجرة، وقد تصبَّب العرق مني. وظلَّت تزعجني بكلماتها إلى أن أرهقت.

ـ ألا نستطيع، يا چوچي، الذهاب إلى «كاماكورا» مرة أخرى. لقد مرَّ وقت طويل منذ أول مرة كنا فيها هناك. أريد أن أذهب، إننا لم نرها سوى مرة واحدة فقط.

كان الوقت أوائل شهر أغسطس، فقلت لها:

ـ إنك على صواب.

ـ إذن لنقض هذا الصيف في كاماكورا. إنه مكاننا الخاص.

كم أسعدتني كلماتها، وهي تقول شهر العسل. نعم لقد كان شهر عسل في كاماكورا. ليس هناك مكان خاص بالنسبة لنا مثل كاماكورا. لقد تفتق ذهن ناوومي عن فكرة مدهشة.

وافقت بدون تردّد، وقلت لها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ نعم لنذهب.

حصلت على إجازة لمدة عشرة أيام من الشركة بمجرَّد أن قرَّرنا ذلك، وانطلقنا إلى كاماكورا في أوائل الشهر، بعد أن أغلقنا البيت. استأجرنا كوخاً ملحقاً بمشتل يسمّى «شوكوسو» على الشارع الذي يبدأ من طريق «هيس»، والمؤدِّي إلى ڤيلاَّ الأمبراطور.

اعتقدت في البداية أننا سنقيم في خان معقول هذه المرة، وليس في مكان فاخر مثل جناح «جولدن ويف» الذي نزلنا فيه من قبل. ولكن انتهى بنا المطاف إلى استئجار الكوخ، حيث كانت ناوومي قد قرَّرت ذلك قبل أن نصل، إذ قالت: «لقد سمعت عن مكان مناسب لنا تماماً من الآنسة «سوجيزاكي». إن الفنادق مكلفة، وتفتقر إلى الخصوصية، ومن الأفضل دائماً استئجار مكان كلما أمكن ذلك. ومن حظنا أن قريباً للآنسة سوجيزاكي، وهو مدير في شركة «أورينتال» للبترول، سوف يعطينا مكاناً استأجره، لكنه لم يستخدمه، سيكون مثالياً لنا. لقد حجز المدير المكان عن أشهر يونيو، يوليو، وأغسطس بمبلغ خمسمائة ين، لكنه استخدمه حتى نهاية يوليو، ثم ملَّ من الإقامة في كاماكورا، وسوف يكون سعيداً لو استطاع تأجيره لأي شخص يريده. وإذا كان هذا الشخص صديقاً للآنسة سوجيزاكي، فإنه لن يهتم بشأن المال. لنستأجره منه يا چوچي، إننا لن نجد مكاناً آخر مثله، ولن يكلِّفنا شيئاً، لذلك نستطيع الإقامة فيه طوال الشهر.

ـ لكني لن أستطيع الحصول على إجازة طويلة من العمل.

ـ بإمكانك الذهاب بالقطار من كاماكورا. لِمَ لا؟ اتفقنا؟

ـ عليك أولاً أن تلقي نظرة على المكان، ثم تقرّرين بعد ذلك.

ـ اتفقنا. سأذهب غداً. هل سنقيم فيه إذا ما أعجبني؟

ـ نعم، لكني لن أشعر بالراحة إذا لم ندفع إيجاره. علينا أن نحل هذه المسألة بطريقة أو بأخرى.

ـ أعرف. أنت مشغول، لذلك إذا ما قرَّرنا الإقامة فيه، فسوف أذهب إلى الآنسة سوجيزاكي وأطلب منها أن تقبل بعض المال. يتعيَّن علينا أن ندفع مائة ين أو مائة وخمسين على أية حال.

قامت ناوومي بترتيب كل الأمور بنفسها في وقت قياسي. وتم الاتفاق على دفع مائة ين، وقامت هي بدفع المبلغ.

انتابتني الهواجس، ولكن كان البيت في حال أفضل مما توقعت. فهو مبنى من طابق واحد، منفصل عن البيت الرئيسي، وبه حجرتان مساحتهما إثنا عشر قدماً في إثني عشر قدماً، وتسعة في تسعة أقدام على التوالي، وبهو وحمَّام ومطبخ. وللبيت مدخل خاص يفضي مباشرة إلى الحديقة والشارع، مما يجعلنا منفصلين عن أسرة عامل المشتل. كنا كمن يؤثِّث بيتاً جديداً. جلست، لأول مرة منذ فترة طويلة، على حشية جديدة، وسط طراز ياباني صرف. شعرت بأنني قد جدَّدت نشاطي، وأنا أضع ساقاً فوق أخرى أمام الموقد.

ـ هذا مدهش. أشعر وكأنني في بيتي.

ـ أليس بيتاً جميلاً؟ أيهما تحبه أكثر، هذا أم البيت في «أوموري»؟

ـ أشعر في هذا البيت براحة أكبر. وأشعر كما لو أنني أستطيع الإقامة فيه إلى الأبد.

ـ أرأيت؟ لهذا السبب قلت إننا يجب أن نقيم فيه.

أحسّت ناوومي بالرضا عن نفسها.

ذهبنا، ربما بعد ثلاثة أيام من وصولنا، إلى الشاطىء عند العصر،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسبحنا حوالي ساعة، واستلقينا على الرمل، عندما سمعنا شخصاً ينـادي: «يا آنسة ناوومي!».

كان كوماجي، ومن الواضح أنه خرج لتوّه من المـاء. فقد التصق ثـوب السباحة بصدره، بينما راحت المياه المالحة تنحدر فوق ساقيه المشعرتين.

ـ ماشان. متى جئت؟

ـ اليوم. لقد عرفتك.

ثم التفت نحو الماء، ورفع ذراعه، وقال:

ـ يا رفاق!

ردّ شخص آخر من الماء:

ـ نعم.

ـ من أولئك الذين يسبحون هناك؟

ـ هامادا، سيكي، وناكامورا. لقد أتينا نحن الأربعة معاً.

ـ يا له من أمر مثير. في أي فندق تقيمون؟

ـ لسنا مترفين إلى هذا الحد. إن الجو حار، وقد جئنا لقضاء اليوم. هذا كل ما في الأمر.

خرج هامادا من الماء، وهما يتحدثان.

ـ مرحباً! لقـد مرّ وقت طـويل. إني آسف لأنني لم أكن عـلى اتصال. لم تذهب للرقص مرة أخرى يا سيّد كاواي. أليس كذلك؟

ـ الأمر ليس كذلك. تقول ناوومي إنها ضاقت ذرعاً بالرقص.

ـ أمر مؤسف. ومنذ متى أنتما تقيمان هنا؟

ـ منذ يومين أو ثلاثة أيام. إننا نستأجر كوخاً في المشتل بالقرب من شارع «هيس».

قالت ناوومي:

ـ إنه مكان مدهش. والفضل يعود إلى الآنسة سوجيزاكي. وسوف نقيم فيه طوال الشهر.

قال هامادا:

ـ إذن ستمكثان هنا لفترة. إنهم يرقصون هنا في كاماكورا أيضاً، تعرفين ذلك. في الواقع ستقام حفلة رقص في فندق «كيهين» الليلة. سأذهب إذا ما عثرت على شريكة.

ردَّت ناوومي دون حماس:

ـ لا أريد أن أذهب، بل إنني لا أريد أن أفكِّر في الرقص في هذا الجو الشديد الحرارة. ربما عندما يعتدل الطقس.

ـ أنت محقّة تماماً. فالصيف ليس مناسباً للرقص.

ثم قال هامادا بتردّد:

ـ ماذا سنفعل الآن يا ماشان؟ أتريد أن نعود إلى الماء؟

ـ لا أريد، فأنا في غاية الإجهاد. لنذهب. فحتى إذا ما مضينا الآن، وأخذنا قسطاً من الراحة، سيكون الظلام قد حلّ عند عودتنا إلى طوكيو.

سألت ناوومي هامادا:

ـ إلى أين ستذهب الآن؟ أهناك مكان يثير الاهتمام يمكن الذهاب إليه؟

ـ لا. إنها ڤيلّا يمتلكها عم سيكي في «أوجيجاياتسو». لقد استدرجونا جميعاً إلى هناك اليوم، ويقولون إنهم سيعدّون لنا العشاء، لكن الجو هناك رسمي للغاية، حتى إننا نريد العودة دون تناول أي طعام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ حقاً؟ أهو رسمي إلى هذا الحد؟

ـ لا يحتمل. إن الخادمة تبالغ في انحنائها. وحتى إذا قدموا لنا الطعام، فإننا لن نستطيع ابتلاعه... لنمض يا هامادا! بإمكاننا الحصول على شيء نأكله في طوكيو.

لكن كوماچي لم يقم بأية حركة للنهوض، وظلَّ جالساً على الشاطيء، يمسك بحفنة من الرمال، ويتركها تنساب فوق ساقيه.

ـ إذن ما رأيكما في تناول العشاء معنا الليلة؟

صمت هامادا وكوماچي وناوومي، ووجدت أنه يتعينَّ عليّ أن أقول شيئاً لأخفِّف من حرجهم.

- ١٥ -

تناولنا وجبة دسمة في تلك الليلة، لأول مرّة منذ أيام عديدة. جلسنا نحن الستة، بما في ذلك هامادا، كوماچي، سيكي وناكامورا، حول المائدة المنخفضة في الحجرة الكبيرة، وتبادلنا أطراف الحديث حتى اقتربت الساعة من العاشرة مساء. لم أشعر في البداية بالراحة إزاء هذه المجموعة، التي غزت مكان إقامتنا الجديد. لكني استمتعت، بعد انقطاع عن رؤيتهم لفترة طويلة، بتصرفاتهم الشبابية الصريحة والجريئة. كانت ناوومي لبقة وفاتنة، وتصرَّفت على نحو لائق، وهي تكرم وفادة ضيوفنا من دون خروج عن اللياقة.

قلت لها، ونحن في طريق العودة، بعد أن أوصلناهم إلى محطة القطار:

ـ لقد قضيت وقتاً ممتعاً الليلة. شيء مبهج أن نراهم مرة كل فترة.

كنا نسير متشابكي اليدين، والنجوم تتلألأ في السماء الصافية، والنسيم يهبّ من ناحية البحر.

قالت، وقد سرّتها حالتي المزاجية:

ـ هل استمتعت حقاً بوقت لطيف؟

ثم استطردت بعد تفكير:

ـ إنك بمجرَّد أن تقضي بعض الوقت معهم ستشعر بأنهم ليسوا سيئين.

ـ لا. إنهم ليسوا سيئين حقاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ولكن ألا تخشى أن يأتوا مرة أخرى خلال هذه الأيام؟ إنك تعرف أن لسيكي ڤيلاّ قريبة من هنا. ألم يقل إنه سيعود بصحبتهم من فترة لأخرى؟

ـ نعم، لكني لا أظن أنهم سيأتون إلى مكاننا، أليس كذلك؟

ـ لا يهم إذا ما أتوا مرة بين فترة وأخرى، ولكن سيكون أمراً مثيراً للضيق إذا ما تردّدوا علينا. يجب ألا نظهر لهم كرم الضيافة إذا كرّروا الزيارة. ما كان يتعيّن عليهم أن يمكثوا حتى العشاء.

ـ ولكن ليس من اللائق أن نطلب منهم الانصراف.

ـ بالطبع نستطيع أن نطلب منهم ذلك. سوف أقول لهم إن زيارتهم قد طالت، وأطلب منهم الانصراف بسرعة. ليس في ذلك ما نلام عليه، أليس كذلك؟

ـ سوف نتعرَّض لسخرية كوماچي مرة أخرى.

ـ لا يهم. إنهم يرتكبون خطأ إذا كرّروا الزيارة، وفرضوا أنفسهم علينا، في الوقت الذي قطعنا فيه كل هذه المسافة لقضاء وقت ممتع في كاماكورا.

وصلنا إلى مكان مظلم تظلّله أشجار الصنوبر. توقّفت ناوومي عن السير، وسكنت حركتها. وقالت:

ـ چوچي؟

احتضنتها بذراعي في صمت، بعد أن فهمت مغزى صوتها العذب، الخافت، وكأنه يوجه دعوة ما. تذوّقت تلك الشفتين المشبوبتين بالعاطفة، كما لو أنني أزدرد من ماء البحر.

انقضت إجازة العشرة أيام، التي حصلت عليها من العمل في لمح البصر، وكنا مانزال سعداء، وكما خطّطنا، بدأت استقل القطار يومياً من كاماكورا إلى الشركة. جاء سيكي وأصدقاؤه، الذين قالوا إنهم سيتردَّدون

علينا بين فترة وأخرى، مرة واحدة فقط، بعد مرور أسبوع.

حدث أمر طارىء في العمل، مع نهاية الشهر، اضطرني للعمل حتى ساعة متأخرة. كنت، في العادة، أعود إلى البيت في الساعة السابعة مساء، وأتناول العشاء مع ناوومي، ولكن على مدى الأيام الخمسة أو الستة التالية، اضطررت للبقاء في العمل حتى الساعة التاسعة، وكنت أعود للمنزل بعد الحادية عشرة. وجاء اليوم الرابع وأنا على هذا المنوال الجديد.

كنت أتوقّع أن أعمل حتى التاسعة في ذلك المساء، لكني انتهيت من عملي مبكراً، وانصرفت حوالي الساعة الثامنة. استقليت القطار الكهربائي، كالمعتاد، إلى يوكوهاما، ومن هناك انتقلت إلى القطار، الذي يسير بالبخار. وصلت قبل العاشرة إلى كاماكورا. كنت أهفو، أكثر من المعتاد، للوصول إلى البيت، لأتحلّى من وجه ناوومي، وأسترخي وأنا أتناول العشاء، بعد أن مرت ليلة تلو الأخرى وأنا أعود في ساعة متأخرة، رغم أن ذلك لم يستمر أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام. لذلك فقد استأجرت «ركشا» من أمام المحطة، ومضت بي في الطريق المار بثيلاّ الأمبراطور.

كان نسيم الليل على الشاطيء بارداً ومنعشاً على نحو لا يتصوّر، خاصة بالنسبة لشخص عائد إلى البيت، بعد ساعات عمل طويلة في يوم حار، وبعد عناء السفر في القطار. لقد أمطرت عند الغسق، مطراً خفيفاً كالمعتاد، وانتشر أريج لطيف في السديم، الذي تصاعد من أوراق وفروع أشجار الصنوبر، التي يكسوها الندى. تلألأت مياه البرك الصغيرة هنا وهناك، رغم حلول الظلام، لكن الطريق الرملي كان رطباً، فلم يتصاعد الغبار، وأصبح وقع الأقدام على الأرض هيناً لطيفاً، كما لو أنها تدوس على مخمل. تناهى إلى مسامعي صوت حالكٍ آتٍ من وراء سور منزل، يبدو أنه ثيلاّ أحد الأشخاص. لمحت أشخاصاً في كيمونو صيفي أبيض يجرون، واحد من جهة، وإثنان من جهة أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غادرت الريكشا عند البوابة، وسرت وسط الحديقة متجهاً نحو الشرفة. توقّعت أن تفتح ناوومي الباب، وتهرع لاستقبالي عندما تسمع وقع قدمي في الحديقة، ورغم أن الضوء كان ساطعاً بالداخل، إلا أنه لم يكن هناك ما يشير إلى وجودها. فقد كان السكون مخيِّماً.

ناديت مرتين أو ثلاثاً عليها، لكنها لم ترد. صعدت إلى الشرفة، وفتحت الباب، فوجدت الحجرة خالية. تناثرت، كالمعتاد، ثياب البحر، المناشف، والفساتين في كل مكان، فوق الجدران، وعلى الأبواب. كما تبعثرت في أرجاء الحجرة فناجين الشاي، الصحائف، والوسائد. لكن الحجرة كانت غارقة في السكون، لا حياة فيها. أدركت، بحاسة العاشق الخاصة، أن السكون يعمّ الحجرة منذ فترة، وقلت لنفسي: «لقد خرجت، من المحتمل منذ ساعتين أو ثلاث ساعات».

ألقيت نظرة على المرحاض، والحمّام، ثم توجهت إلى المطبخ، لمجرّد التأكّد، وأضأت النور. استقبلت عيناي بقايا بعض الطعام الغربي، وزجاجة كبيرة من مشروب «الساكي»، مما يشير إلى تناول كميات كبيرة من المأكولات والمشروبات. ثم وجدت المنافض وقد امتلأت بأعقاب السجائر. تأكّدت أن أصدقاءها قد جاءوا مرة أخرى.

هرعت إلى البيت الرئيسي، وسألت زوجة عامل المشتل:

ـ ألم تشاهدي ناوومي؟ هل خرجت؟

ـ لقد عادت السيدة الصغيرة في المساء، ثم خرجت مع الجميع بعد العشاء.

كانت زوجة عامل المشتل تنادي ناوومي بالسيدة الصغيرة. ورغم أننا كنا متزوجين، إلا أن ناوومي كانت تفضّل أن يعتقد الناس أننا نقيم معاً فقط، وتشعر بالاستياء إذا ما نادتها زوجة العامل بغير هذا اللقب.

قلت:

ـ الجميع؟

تردّدت للحظة وقالت:

ـ نعم السيد كوماچي، وكل الآخرين.

دهشت لأن السيدة تعرف اسم كوماچي، لكنني لم أشأ أن أضيع الوقت سدى وأسألها عن مدى معرفتها، فقلت لها:

ـ لقد قلت إنها عادت في المساء. فهل كانت معهم أثناء النهار أيضاً؟

ـ لقد خرجت لتسبح بمفردها عند العصر، ثم عادت ومعها السيد كوماچي، و...

ـ هل كانت بمفردها مع كوماچي؟

ـ نعم هذا صحيح.

لم يكن الذعر قد أصابني بعد، ولكن إجابات السيدة الحذرة، والقلق البادية علاماته على قسمات وجهها أثار توتري. لم أشأ أن أخرج عن طوعي، لكن نبرة صوتي وشت بما يعتمل في نفسي من قلق عندما قلت لها:

ـ إذن ليسوا جميعاً بصحبتها.

ـ لا. الإثنان فقط. قالا إنه سيقام حفل رقص عصر اليوم في الفندق، وانصرفا معاً.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ عادت في المساء بصحبتهم جميعاً.

ـ هل تناولوا العشاء معاً في الكوخ؟

ـ نعم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم اغتصبت ابتسامة، وهي تنظر إلى عيني وتحاول قراءة ما يدور في ذهني، وقالت:

ـ لقد أثاروا صخباً.

ـ متى انصرفوا بعد العشاء؟

ـ حوالي الثامنة مساء، على ما أظن.

قلت بدون تفكير:

ـ أي قبل ساعتين. أتظنين أنهم في الفندق؟ هل سمعت شيئاً مما قالوه لدى انصرافهم؟

ـ لست متأكّدة، ولكن قد يكونون في الڤيلاّ.

تذكّرت أن لعم سيكي ڤيلاّ في «أوجيجاياتسو»، فقلت:

ـ إذن فقد ذهبوا إلى الڤيلاّ. في هذه الحالة سأمضي لمقابلتها هناك. أتعرفين مكانها؟

ـ ليست بعيدة عن هنا، إنها على الشاطيء في «هيس».

ـ في هيس؟ أعتقد أنني سمعت أنها في «أوجيجاياتسو»... إصغي إليّ؟ إن الڤيلاّ التي أتحدّث عنها يمتلكها عم أحد أصدقاء ناوومي واسمه سيكي. لا أدري إذا ما كان قد جاء هو أيضاً الليلة، أم لا. ولكن...

ومضت نظرة دهشة في عيني السيدة، فقلت:

ـ هل هي ڤيلاّ مختلفة إذن؟

ـ نعم.

ـ إذن لمن الڤيلاّ المطلّة على الشاطيء في هيس؟

ـ إنها ڤيلاّ أحد أقارب كوماچي.

امتقع وجهي فجأة، وأنا أردِّد وراءها:

ـ قريب كوماچي؟

وصفت لي السيدة موقع الڤيلاّ، وقالت لي أن أسلك طريق «هيس»، ثم أنحرف يساراً، وأسير في الطريق الذي به فندق «كيهين». سينتهي الطريق عند الشاطيء، حيث ڤيلاّ «أوكوبو»، التي تقع في آخر الزاوية، هي ڤيلاّ قريب كوماچي. كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذه الڤيلاّ. ولم تذكر ناوومي أو كوماچي أي شيء عنها من قبل.

ـ هل تتردَّد ناوومي على هذه الڤيلاّ من فترة لأخرى؟

تلعثمت السيدة، وهي تقول:

ـ حسناً، سأقول لك...

ـ ليست هذه هي المرة الأولى، بالطبع. أليس كذلك؟

شعرت وأنا أتحدَّث، بأن نفسي يضيق، وصوتي يختنق، ويبدو أن السيدة قد ذعرت من النظرة التي ارتسمت على وجهي، إذ أن وجهها امتقع هي الأخرى، فقلت لها:

ـ لا عليك. لن أفعل شيئاً يثير لك المتاعب. أرجوك أن تتكلّمي من دون خوف. ماذا حدث ليلة أمس؟ هل ذهبت إلى هناك أيضاً؟

ـ نعم، أعتقد ذلك.

ـ وهل ذهبت إلى هناك ليلة أمس الأول؟

ـ نعم.

ـ وذهبت قبل ذلك؟

نعم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ إذن لقد دأبت على الذهاب إلى الڤيلاّ كل ليلة منذ أن بدأت أعـود إلى البيت في ساعة متأخّرة؟

ـ لا أتذكّر تماماً، ولكن. . .

ـ ومتى كانت تعود عادة؟

ـ قبيل الحادية عشرة في العادة.

إذن فإن الإثنين يستخدماني مـطية منـذ البدايـة! لقد اتضـح الآن سبب رغبـة نـاوومي في القـدوم إلى كـامـاكـورا! بـدأ رأسي يـدور مثـل إعصـار، ومض في ذهني، بسرعـة فـائقـة، كـل مـا قـالتـه وفعلتـه نـــاوومي في الأيـام الأخـيرة. وفي لحـظة، أصبحت شبكـة الحيلة التي أحـاطتني بهـا في غـايـــة الوضوح. كانت شبكة معقّدة تماماً، يصعب على شخص مثلي أن يكتشفها ـ أكاذيب بالجملة، مؤامـرة مخطّطة بـدقّة، ولا أحـد يعرف عـدد المتورّطـين فيهـا. وجدت نفسي أسقط من الـطابق الأرضي الآمن، إلى هوّة سحيقـة، تطلّعت من قاعها بحسد إلى ناوومي، كوماچي، هامادا، سيكي، وآخرين لا يحصى عددهم، يتضاحكون وهـم يبتعدون.

قلت للسيّدة، وأنا أهمّ بالعدو نحو الشارع:

ـ سـأمضي الآن. إذا لم أصادفهـا في الـطريق، وعـادت هي إلى البيت، أرجوك ألاّ تخبرها بشيء، أو بأنني كنت هنا.

تـوجهت إلى واجهـة فنـدق كيهـين، واختبـأت في الـظلال، وسرت في الطريق، الذي وصفتـه لي السيدة. اصـطفّت ڤيلاّت ضخمـة على جـانبي الطريق، الذي خيّم عليه السكون، والظلام لحسن الحظ. أخرجت ساعتي من جيبي لأعرف الوقت تحت ضوء مصابيح إحدى البـوابات. كنت أريـد أن أضبطها متلبِّسة، سواء كانت مع كـوماچي بمفـردها، أو تقيم حفـلاً مع صحبتها المعتادة. وسأحاول جمـع دليلي دون أن يلحظ أحـد شيئاً، وسـوف

أستمع للحكاية الملفّقة التي سيخترعونها بعد ذلك. ثم أثبت بطلان حكايتهم، وألقّنهم درساً لن ينسوه. حثثت الخطى، وأنا أفكّر في ذلك.

عثرت على المنزل بسهولة. سرت جيئة وذهاباً أمام المنزل، لبضع دقائق، أدرس موقعه. كانت له بوابة أنيقة من الأحجار، وخلفها يقع المبني، وتحيطه أشجار كثيفة. أفضى ممرّ مغطّى بالحصى، وعلى جانبيه الأشجار والنباتات، إلى المدخل. رأيت لوحة على الباب مكتوب عليها بحروف باهتة: «ڤيلاّ أوكوبو». أضفى الجدار المصنوع من الطوب المغطّى بالطحالب، المحاط بحديقة واسعة، على المكان هيبة مزرعة فخمة. وليس منتجع صيفي. انتابتني الدهشة عند رؤية كل هذه الفخامة، خالصة وأن صاحب هذا المبنى الرائع، الذي يحتلّ موقعاً ممتازاً، مرتبط بصلة قرابة مع كوماچي.

تسلّلت من البوّابة، محاولاً بقدر المستطاع عدم إثارة أي ضوضاء، وأنا أسير فوق الممشى المفروش بالحصى. لم تمكّنني الأشجار الكثيفة من رؤية البيت الرئيسي بشكل جيِّد من الشارع، ولكن عندما اقتربت، دهشت حين وجدت أن كل شيء ـ المدخل الرسمي، مدخل العائلة، الطابقان، وكل الحجرات التي أستطيع رؤيتها من المكان الذي أقف فيه، يلفه الصمت والظلام.

قلت لنفسي إذن لا بدّ وأن حجرة كوماچي تقع خلف المبنى. تسلّلت إلى هناك، فرأيت الأنوار مضاءة في حجرة بالطابق الثاني، وفي مدخل الشغّالين الكائن تحتها.

أدركت من نظرة سريعة أنها حجرة كوماچي، ليس من مجرَّد رؤية المندولين المفلطح، الذي أسنده على سور الشرفة، بل بعد أن لمحت قبعته، التي تذكّرت أنني قد رأيته يعتمرها. كان الباب مفتوحاً، لكني لم أسمع أية أصوات. بدا واضحاً أنه لا يوجد أحد داخل الحجرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان باب مدخل الشغّالين قد ترك مفتوحاً هو الآخر، فبدا كما لو أن أحداً قد خرج منه لتوّه. تتبّعت عيناي بصيص الضوء المنبعث من الباب، حتى عثرت على بوابة خلفية، تتكوّن من عمودين من الخشب على بعد خمسة عشر أو عشرين قدماً. رأيت، بين العمودين، أمواجاً تطارد خطاً أبيض واضحاً وسط الظلام، وهي تتكسّر على شاطىء «بيوي»، وهاجمتني رائحة البحر.

عرفت أنهم قد خرجوا من هذه البوّابة. تناهى إلى مسامعي، وأنا أجتاز البوابة الخلفية، متجهاً إلى الشاطىء، صوت ناوومي، الذي لا يمكن أن أخطئه، يتردّد بالقرب مني. تأكّدت أن الريح قد منعتني من سماع صوتها من قبل.

ـ أنت، انتظر! يوجد رمل في حذائي. لا أستطيع السير هكذا. هل ينظّف أحدكم الرمل لي؟... اخلع حذائي يا ماشان!

ـ لن أخلعه، لست عبداً لك.

ـ إذا تحدّثت معي هكذا، فلن أكون لطيفة معك بعد الآن... آه يا هاما ـ سان، إنك غاية في الرقّة... أشكرك. إنه الوحيد الذي أجده بجانبي. هو أفضل أصدقائي.

ـ لا تسخرين مني لمجرّد أنني لطيف معك.

ضحكت ناوومي، وهي تقول:

ـ توقّف يا هاما ـ سان، لا تدغدغ قدمي!

ـ أنا لا أدغدغها. انظري إلى كل هذا الرمل! إنني أبعده فقط.

قال سيكي:

ـ إذا ما بدأت في لعقها فسوف تتحوّل إلى «بابا».

انفجر أربعة أو خمسة منهم في نوبة ضحك.

بدأت الكثبان الرمليّة، من المكان الذي أقف عليه، تنحدر انحداراً خفيفاً. انتصب كوخ فوق المنحدر، تحميه عيدان البوص. جاءت الأصوات من داخله. فصلتني عن الكوخ مساحة تقل عن ثلاثين قدماً. كنت ما أزال أرتدي بزّة العمل البنيّة. قلبت طيّة صدر السترة لأعلى، وزررت كل الأزرار حتى لا يجذب قميصي والياقة الأنظار، وخبّأت قبعتي المصنوعة من القش تحت إبطي. عدوت نحو الظلام، واختبأت بجوار الكوخ. عندئذ تحدّثت ناوومي قائلة:

ـ والآن هيا بنا إلى الخارج.

خرج الجميع، تتقدّمهم ناوومي.

اتجهوا نحو الشاطيء، دون أن تقع عيونهم عليّ. كان الرجال الأربعة، هامادا، كوماچي، سيكي وناكامورا، يرتدون كيمونوات صيفية خفيفة، بينما ارتدت ناوومي، التي توسّطتهم، عباءة سوداء وحذاء عالي الكعب. كان ذلك كل ما استطعت رؤيته. لم تحضر معها إلى كاماكورا عباءة أو حذاء، لا بد وأنها قد اقترضتهما من شخص ما. خفقت العباءة بفعل الريح، ولكن يبدو أنها تحكمها من الداخل حول جسدها، إذ أنها لم تطر. كانت مؤخرّتها الممتلئة تهتزّ تحت العباءة، مع كل خطوة تخطوها، وتسير كمخمورة فترتطم كتفاها بالرجال، عن يمينها ويسارها، وهي تتمايل في سيرها.

ظللت جاثماً دون حراك كاتماً أنفاسي، إلى أن ابتعدوا لمسافة ستين قدماً، وكدت بالكاد أرى ملابسهم البيضاء، فنهضت واقفاً، وبدأت أتبعهم. اعتقدت، في البداية، أنهم سيسيرون في خط مستقيمٍ نحو الشاطىء باتجاه «زيموكويا»، لكنهم انعطفوا يساراً، واتجهوا نحو تلٍ رملي باتجاه المدينة. هرعت صاعداً التل، بمجرد أن اختفوا تماماً عن ناظري وراء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التل، لأنني عرفت أنهم سيتجهون نحو شارع سكني مظلم على جانبيه الكثير من أشجار الصنوبر، والأماكن الظليلة، التي ستخفيهم عن أنظاري. اقتربت أكثر منهم دون خوف من أن يكتشفوا وجودي.

تردَّدت أصواتهم، وهم يغنّون، في أذني، بمجرَّد أن وصلت إلى سفح التل. كانوا يسيرون متجاورين وهم ينشدون:

قبيل المعركة، يا أمي.
ومعظم تفكيري ينصبّ عليك...

كانت إحدى الأغنيات الأثيرة لدى ناوومي، ودائماً ما تردِّدها. سار كوماچي في المقدمة، يلوح بيديه كأنه مرشد. كانت ناوومي ماتزال تترنَّح يمنة ويسرة وتهزّ كتفيها، بينما راح الرجال يترنّحون وكأنهم يجذفون في قارب.

ـ هيلا هوب هيلا!

ـ ماذا تفعلون؟ إذا تدافعتم هكذا، فسوف نصطدم بالجدار.

تردَّد صوت طرق حين ضرب أحدهم الجدار بعصاه. ضحكت ناوومي، وقالت:

ـ في المرّة التالية سنرقص «ويكي ويكي»!

ـ صحيح! رقصة المؤخّرة في هاواي. هزّي مؤخّرتك وأنت تغنّين! راحوا يهزّون مؤخّراتهم معاً، وهم ينشدون:

«ويكي ويكي، قالت لي العذراء السمراء الجميلة...».

قالت ناوومي، ضاحكة:

ـ سيكي هو الأفضل في هز المؤخّرة.

ـ بالطبع فإنني أتدرَّب على ذلك، كما تعلمين.

ـ أين؟

ـ في معرض «يونوبيس». ثمة محليون يرقصون في الجناح الدولي، أتتذكّرين؟ لقد ذهبت لمدة عشرة أيام بدون انقطاع.

قال كوماچي:

ـ يا لك من أبله!

ـ ينبغي عليك أن تذهب بدلاً مني. سوف يعتقدون أنك أحد المحليين بذلك الوجه الساذج.

قال هامادا، الذي لم يكن الشراب قد أدار رأسه كثيراً، مثل الآخرين:

ـ كم الساعة الآن يا ماشان؟

ـ لا أدري. هل مع أحدكم ساعة؟

قال ناكامورا، وهو يشعل عود ثقاب:

ـ نعم، أنا معي. إنها العاشرة وعشرون دقيقة.

ـ لا عليكم. بابا لا يعود قبل الحادية عشرة والنصف. لنسِرْ في طريق «هيس». أريد السير في شارع مزدحم، ونحن في مجموعة.

صاح سيكي:

ـ لنمض قدماً.

ـ ولكن كيف سأبدو وأنا أسير بهذه العباءة؟

ـ لا تشغلي بالك ـ ستبدين كزعيمة عصابة.

ـ إذا كنت زعيمة عصابة، فأنتم جميعاً أتباعي.

ـ اللصوص الأربعة فوق خشبة مسرح «الكابوكي».

ـ وأنا زعيمتهم «بنتون كوزو».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

راح كوماچي يقلِّد المعلِّق في فيلم سينمائي:

ـ وقامت زعيمة العصابة، ناوومي كاواي، تحت جنح الظلام، بالسرقة وهي ترتدي عباءة سوداء....

سخرت منه ناوومي قائلة:

ـ لا تستخدم هذا الصوت الأجش!

لكنه استطرد قائلاً:

ـ ... تقدَّمت الزعيمة اللصوص الأربعة للساحل عند شاطيء «يوي»...

صفعته على وجهه، وهي تقول:

ـ توقَّف يا ما ـ شان، توقَّف!

ـ آه. إن صوتي أجشّ بالطبيعة. إن من مآسي عصرنا أنني لم أصبح مطرباً في أوركسترا أوساكا.

ـ لكنك تعرف أن ماري بيكفورد لا يمكن أن تكون زعيمة عصابة.

ـ من إذن؟ بريسكيلا دين؟

ـ نعم، هذا أفضل. بريسكيلا دين.

راح هامادا يرقص ويغنّي من جديد. اندفعت وراء الشجرة، وتوقَّعت أن تقوده خطواته الراقصة نحوي، لكنه قال في تلك اللحظة:

ـ أنظروا من هناك؟ إنه السيِّد كاواي، أليس كذلك؟

صمتوا فجأة، وكأنَّ على رؤوسهم الطير، ونظروا نحوي في الظلام.

ـ بابا؟ ماذا تفعل هناك؟ هلمّ وانضمّ إلينا.

هرعت ناوومي نحوي، تركت عباءتها تنفتح، ووضعت ذراعيها فوق كتفي. لم تكن ترتدي شيئاً تحتها.

صحت فيها:

ـ ماذا تفعلين؟ إنك تهينينني! إنك فاسقة، مومس، عاهرة!

قهقهت، ففاحت من فمها رائحة «الساكي». لم أكن أعرف أنها تتعاطى المشروبات الكحولية من قبل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٦ -

قضيت تلك الليلة، واليوم الذي تلاها، في محاولات للتغلّب على عناد ناوومي، والحصول منها على فكرة عامة عن المخطّط الذي رسمته لخداعي.

كانت تريد القدوم إلى كاماكورا، كما خامرتني الشكوك، بهدف قضاء وقت ممتع مع كوماچي. لقد كانت كذبة جريئة أن لسيكي قريباً في «أوجيجاياتسو»، والحقيقة أن ڤيلاّ «أوكوبو» في «هيس» ما هي إلاّ بيت عم كوماچي. والأمر لا يتوقّف عند هذا الحد، بل إننا يجب أن نشكر كوماچي على الكوخ الذي استأجرناه. فأصحاب ڤيلاّ «أوكوبو» من الزبائن الدائمين لعامل المشتل. وقد مارس كوماچي ضغوطاً، وأقنع بطريقة ما المستأجر السابق بإخلاء الكوخ كي ننتقل إليه. لقد قام الإثنان، ناوومي وكوماچي، بترتيب كل شيء. ولم يكن الكلام عن مساعي الآنسة «سوجيزاكي» الحميدة ومدير شركة «أورينتال» للبترول، سوى مجرّد كذبة أخرى. ولذلك فقد أصرّت على ترتيب كل شيء بمفردها. وقد قالت زوجة عامل المشتل إن ناوومي كانت مع «السيد كوماچي» عندما جاءت للمرّة الأولى لتتفقّد الكوخ، وتصرّفت وكأنها من أفراد أسرته. ولم تجد السيدة من بديل سوى إخراج المستأجر السابق، وتسليم الكوخ لنا.

قلت للسيدة:

ـ أنا في غاية الأسف لأنني ورطتك في هذا الأمر. ولكن أرجوك أن

تخبريني بكل شيء تعرفينه، ولن أستغل اسمك، تحت أية ظروف، فأنا لا أرغب في تقديم احتجاج ضد كوماچي. أريد فقط معرفة الحقيقة.

تغيَّبت عن العمل في اليوم التالي، وهو أمر لم أفعله من قبل قط، وضيَّقت الخناق على ناوومي.

قلت لها بشكل قاطع:

ـ لا تتحرّكي من هذه الحجرة!

وقمت بجمع كل ملابسها، أحذيتها، وحقائبها، وحملتها إلى البيت الرئيسي. وهناك استجوبت السيدة.

ـ إذن كان كل منهما يرى الآخر طوال الوقت، حين أكون بالخارج؟

ـ آه. نعم طوال الوقت. كان الشاب يأتي إلى هنا، أو تذهب هي إليه.

ـ إذن، مَن يقيم في ڤيلاّ «أوكوبو»؟

ـ لقد عاد جميعهم إلى مقر إقامتهم الرئيسي هذا العام. إنهم يأتون مرة كل فترة، لكن السيد كوماچي يتواجد معظم الوقت بمفرده.

ـ وماذا عن أصدقاء كوماچي؟ هل يأتون هم أيضاً؟

ـ نعم، يأتون في الأغلب.

ـ هل يأتي كوماچي بهم، أم أنهم يأتون بمفردهم؟

ـ أحياناً يأتون بمفردهم. وأحياناً أخرى مع الشاب..

ـ هل يأتي آخرون بمفردهم، بخلاف كوماچي؟

ـ أعتقد أن ذلك الشاب، الذي يدعى السيد هامادا، وقد جاء بمفرده، وبعض الآخرين.

ـ هل يصحبونها خارج البيت؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لا، عادة ما يمكثون داخل المنزل.

كانت هذه النقطة الأكثر إرباكاً في القضية. فلو أن هناك شيئاً بين ناوومي وكوماچي، إذن ما السبب الذي يجعله يصطحب الآخرين معه؟ وماذا يعني الأمر بالنسبة لأحدهم أن يأتي بنفسه، ويتحدَّث مع ناوومي؟ لِمَ لا يتعاركون لو أنهم جميعاً يريدونها؟ لقد كان الأربعة يلهون بمسرح في الليلة السابقة، ألم يكن ذلك ما حدث؟ بدت الصورة مثيرة للحيرة مرة أخرى. بل إنني بدأت أفكِّر في أنه ليس هناك شيء بين ناوومي وكوماچي على الإطلاق.

لم تكن ناوومي على استعداد للإجابة على أسئلتي بشأن هذه النقطة. وأصرَّت على أنه ليست هناك أية مؤامرة، وكل ما في الأمر أنها تحب أن يكون حولها عدد من الأصدقاء. إذن لماذا احتالت عليّ بمثل هذه الصورة الماكرة؟

ـ ولكن يا بابا، إنك لم تثق فيهم قط، وكنت تشعر بالقلق معهم.

ـ في تلك الحالة، لماذا حبكتِ تلك القصة عن «سيكي» وڤيلاّ عمه؟ ما الفرق بين أن تكون ڤيلاّ عم سيكي أو كوماچي؟

بدت ناوومي وقد أسقط في يدها، ولم تتمكَّن من الرد. نكست رأسها، وعضَّت على شفتيها، وحدَّقت فيّ، كما لو أنها تحفر حفرة في وجهي.

ـ كنت لا تثق في ما ـ شان بوجه خاص، وظننت أن الأفضل أن أقول إنها ڤيلاّ عم سيكي.

ـ لا تقولي ما ـ شان! اسمه كوماچي!

كنت أكبح جماح نفسي حتى الآن، ولكني انفجرت في نهاية المطاف. لقد أقشعرّ جلدي، وأنا أسمعها تقول: «ما ـ شان».

ـ أصغ إليّ! تقيمين علاقة مع كوماچي، أليس كذلك؟ قولي الحقيقة!

ـ كلا بالطبع. إذا كانت لديك أي شكوك، هل هناك دليل عليها؟

ـ لست بحاجة إلى دليل. أعرف كل شيء.

بدت ناوومي هادئة على نحو غريب، وارتسمت على شفتيها ابتسامة منزعجة، وهي تقول:

ـ كيف لك أن تعرف؟

ـ ماذا عن المشهد الذي رأيته ليلة أمس؟ أتعنين أنك عفيفة وبريئة، حتى بعد أن خرجت على ذلك النحو؟

ـ لقد جعلوني أشرب كثيراً، وألبسوني على ذلك النحو. لقد كنت أقوم بجولة فقط. أليس كذلك؟

ـ إذن تصرّين على أنك بريئة؟

ـ نعم، عفيفة وبريئة.

ـ تقسمين على ذلك؟

ـ نعم أقسم.

ـ ليكن. لا تنسي ما قلته الآن. أنا لا أصدِّق أي شيء ستقولينه بعد الآن.

ولم أتحدَّث معها بعد ذلك.

قمت بجمع كل الأوراق، المغلّفات، الحبر، الأقلام، طوابع البريد، وأشياء ناوومي الأخرى، وسلّمتها للسيدة، وذلك خوفاً من أن تكتب إلى كوماچي. وحتى أضمن أنها لن تخرج أثناء غيابي، أعطيتها قميص النوم الأحمر فقط لترتديه. كنت مستعداً، في اليوم الثالث، للذهاب إلى العمل، والابتعاد عن كاماكورا. لكني رحت أفكِّر، وأنا في القطار، عن إمكانية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العثور على دليل، ثم قرّرت في النهاية أن أتوجّه إلى البيت في أوموري، الذي تركناه منذ شهر. وإذا كانت ناوومي متورِّطة مع كوماچي، فإن علاقتهما لم تبدأ هذا الصيف. وقد أعثر على بعض الرسائل إذا ما فتشت أشياءها.

وصلت إلى بيت أوموري في حوالي الساعة العاشرة، نظراً لأنني غادرت كاماكورا في قطار بعد الذي تعوّدت أن أستقلّه. مضيت إلى الباب، وفتحته، وعبرت المرسم، وارتقيت الدرج لأفتِّش حجرتها. فتحت الباب، وخطوت خطوة للداخل، انطلقت من داخلي آهة، ووقفت جامداً. فقد كان هامادا يتمدَّد فوق الحشية.

حين دخلت الحجرة، صعد الدم إلى وجه هامادا، وقال «آه» ونهض واقفاً. حدّق كل منا في الآخر للحظة، وكل يحاول قراءة أفكار الآخر.

ـ هامادا... ماذا تفعل هنا؟

غمغم، كما لو أنه على وشك أن يقول شيئاً، ثم لزم الصمت مرة أخرى، ونكّس رأسه، كما لو أنه يطلب الرحمة.

ـ منذ متى وأنت هنا، يا هامادا؟

قال بوضوح أكبر هذه المرة، وكأنه لم يجد مناصاً من الاعتراف:

ـ الآن فقط... لقد دخلت هنا لتوّي.

ـ لكن البيت موصد. أليس كذلك؟ كيف دخلت؟

ـ من الباب الخلفي.

ـ لكنه لا بد وأن يكون موصداً هو الآخر.

قال بصوت واهن، سمعته بالكاد:

ـ لقد كان موصداً. ولكن معي مفتاحاً.

ـ مفتاح؟ من أين حصلت عليه؟

ـ من الآنسة ناوومي. لقد قلت الآن الكثير، وأشعر بأنك عرفت سبب وجودي هنا.

رفع هامادا رأسه بهدوء، ونظر بعينين يملأهما الارتباك، في وجهي مباشرة، وأنا أقف مصعوقاً، ثم قال:

ـ أستطيع أن أخمن يا سيد كاواي سبب قدومك إلى هنا اليوم على هذا النحو المفاجيء. لقد كنت أخدعك. ولذلك فإنني على استعداد لقبول أي عقاب. إن كلامي هذا جاء متأخراً جداً، ولكن منذ مدة طويلة، بل وقبل أن تضبطني متلبساً هكذا، كنت أريد أن أقول لك الحقيقة.

اغرورقت عيناه بالدموع، وانحدرت على خديه، وهو يتحدّث. كان كل ذلك شيئاً غير متوقع بالمرّة. حدَّقت فيه دون أن أنبس ببنت شفة، وحتى لو صدّقت اعترافه، فإن هناك الكثير من الأشياء التي لا أفهمها.

ـ أرجوك يا سيد كاواي، قل إنك ستصفح عني!

ـ لكني لا أفهم يا هامادا. لِمَ أعطتك ناوومي المفتاح؟ وما الأمر الذي جئت من أجله؟

ـ اليوم... اليوم... كنت سأقابل ناوومي هنا.

ـ ماذا؟ ستقابلها هنا؟

ـ ذلك صحيح. وليس اليوم فقط. لقد تقابلنا من قبل مرّات عديدة.

بدأت تتضح بالتدريج معالم روايته. لقد التقى هو وناوومي هنا سرّاً ثلاث مرّات، منذ ذهبنا إلى كاماكورا. كانت ناوومي تأتي إلى أوموري بعد قطار أو قطارين من رحيلي. تصل في حدود الساعة العاشرة، وتغادر في الساعة الحادية عشرة والنصف. وتعود إلى كاماكورا في حدود الساعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الواحدة. ولذلك لم يخطر في ذهن أحد بالمشتل قط أنها قد سافرت إلى أوموري وعادت مرة أخرى. كان كلاهما قد رتّبا الالتقاء في الساعة العاشرة من صباح اليوم، أيضاً، ولذلك عندما سمع هامادا وقع أقدامي على الدرج، ظنَّ أنني هي.

شعرت، في البداية، رداً على هذا الاعتراف المثير للدهشة، بقلبي وقد أصيب بحالة من التخدر، فتحت فمي، ولم أتمكّن من التفكير في أي شيء لأقوله. أرجو أن تضعوا في أذهانكم أنني في الثانية والثلاثين من عمري، وناوومي في التاسعة عشرة. لم أكن أتصوَّر أن فتاة في التاسعة عشرة يمكنها خداعي بكل هذه الوقاحة والمهارة. ولم أشك مطلقاً حتى تلك اللحظة، أن ناوومي مرعبة لهذه الدرجة. وفي الواقع فقد كان من الصعب عليّ تصديق ذلك.

تملكتني رغبة لمعرفة كل تفاصيل الحقيقة، فأرجأت مسألة الصفح عن هامادا، قلت له:

ـ متى بدأت أنت وناوومي علاقة من هذا النوع؟

ـ لقد بدأت منذ فترة طويلة، ربما قبل أن تعرفني.

ـ لنسترجع الأحداث، متى قابلتك لأول مرّة؟ ألم يكن ذلك في الخريف الماضي، حين عدت من العمل فوجدتك واقفاً مع ناوومي في الحديقة وتتحدَّث معها؟

ـ ذلك صحيح، منذ عام تقريباً.

ـ أكانت تلك بداية العلاقة؟

ـ لا. قبل ذلك بفترة. لقد بدأت العلاقة في مارس من العام الماضي، عندما ذهبت لأتلقّى دروساً على البيانو عند الآنسة سوجيزاكي، وهناك التقيت بناوومي. بعد وقت قصير، ربما بعد نحو ثلاثة أشهر...

ـ أين كنتما تلتقيان في تلك الأيام؟

ـ هنا في بيتك. قالت الآنسة ناوومي إنها لا تتلقّى أي دروس في الصباح، وتمكث بمفردها طوال الوقت. طلبت مني زيارتها، وفي البداية جئت لمجرّد البقاء بجانبها.

ـ هي التي طلبت منك الحضور؟

ـ ذلك صحيح. لم أكن أعرف شيئاً عنك على الإطلاق. قالت الآنسة ناوومي إن بيتها في الريف، وإنها تقيم مع أحد أقاربها في أوموري. وقالت إنك ابن عمها. وقد أدركت أن ذلك ليس صحيحاً عندما جئت لصالة الرقص في «الدورادو» للمرة الأولى. ولكن بحلول ذلك الوقت... في ذلك الوقت لم يكن هناك شيء أستطيع القيام به.

ـ هل كان ذهابنا إلى كاماكورا من تخطيطك أنت وناوومي؟

رفع هامادا صوته، وهو يردّ على سؤالي:

ـ لا. إنه كوماچي الذي اقترح كاماكورا على الآنسة ناوومي. إنك لست الوحيد، يا سيد كاواي، الذي خُدع! فقد خدعت أنا، أيضاً!

ـ إذن، ناوومي وكوماچي...

ـ نعم. إن كوماچي هو الوحيد الذي يتصرّف بحرية مع الآنسة ناوومي. لقد أدركت منذ وقت طويل أنها وقعت في حبه. لكنني لم أتخيَّل قط أنها ستتورَّط في علاقة معه، وهي على علاقة بي. لقد قالت إنها تحب مجرّد اللهو ببراءة مع أصدقائها. وقالت إن ذلك هو كل ما في الأمر، وظننت أن ما تقوله ربما يكون صحيحاً.

قلت متنهِّداً:

ـ نعم. هذا هو أسلوب ناوومي. لقد قالت لي الشيء ذاته، وصدَّقتها... متى اكتشفت أنها على علاقة بكوماچي؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ هل تتذكّر تلك الليلة المطيرة، عندما نمنا جميعاً هنا معاً؟ لقد اكتشفت العلاقة يومها. أدركت من صفاقتها أن ثمة ما يدور بينهما. كلما زادت غيرتي. تفهمت على نحو أفضل مشاعرك.

ـ حين تقول إنك اكتشفت علاقتها في تلك الليلة، أتعني أنك تخمّن فقط من تصرّفاتهما؟

ـ لا. لقد حدث ما يؤكّد شكوكي. كان ذلك عند الفجر. وكنت أنت نائماً فلم تلحظ شيئاً، لكنني لم أستطع النوم. كان النوم يداعب جفوني، لكني رأيتهما وهما يتبادلان القبلات.

ـ هل تعرف ناوومي أنك قد رأيتها؟

ـ نعم تعرف. لقد أخبرتها بعد ذلك، وطلبت منها قطع علاقتها بكوماچي. وقلت لها لا أريد أن أكون لعبة. وإلاّ فإنني لن أتزوّجها.

ـ تتزوّجها؟

ـ نعم. كنت أعتزم أن أصارحك بأمانة بحبنا، وإنني سأتزوَّج الآنسة ناوومي. قالت إنك شخص متفهّم، وإذا ما شرحنا لك مدى معاناتنا، فسوف توافق بالتأكيد. لقد قالت لي، ولا أعرف إذا ما كان ذلك صحيحاً أم لا، إنك تريد تعليمها فقط، وأنكما تقيمان معاً، ولكنكما لم تتفقا على الزواج. وحتى إذا ما تزوّجتها، فإنك لن تكون سعيداً بسبب فرق السن بينكما.

ـ ناوومي قالت لك ذلك.

ـ نعم. ووعدتني أكثر من مرة بأنني إذا ما انتظرت قليلاً، فسوف تتحدَّث معك، وسيكون بإمكاننا الزواج. كما قالت إنها قد قطعت علاقتها مع كوماچي. ولكن كان كل ذلك كذبة. إنها لم تعتزم مطلقاً الزواج مني.

ـ أتعتقد أن ناوومي قطعت على نفسها وعودا مثل هذه لكوماچي، أيضا؟

ـ لا أدري، لكني أعتقد أنه من المرجح أن تكون قد فعلت ذلك. إنها متقلّبة المزاج، وكوماچي ليس محل ثقة، إنه أكثر حيلة منها.

الأمر الغريب أنني لم أشعر بأية مرارة تجاه هامادا، وأحسست، بعد أن سمعت قصته، كما لو أننا نعاني ألماً مشتركاً. إلاّ أنني، من ناحية أخرى، كرهت كوماچي بشكل أكبر من أي وقت مضى. تأكّد لي تماماً الآن أن كوماچي هو عدونا المشترك.

ـ على أية حال يا هامادا لا نستطيع أن نواصل حديثنا هنا. لنذهب إلى مكان آخر نتناول فيه الغداء ونتحدّث. فما يزال لديّ الكثير من الأسئلة.

شعرت بأن المطعم الغربي لن يكون مناسباً، ولذلك اصطحبته إلى «ماتسواسا» على ضفاف «أوموري».

سألني هامادا، ونحن في طريقنا، بلهجة عادية تخلو من التوتر، بعد أن شعر أنه قد تخلّص من حمل ثقيل:

ـ هل أخذت اليوم إجازة؟

ـ نعم، وأمس أيضاً. العمل، للأسف، كثير في المكتب هذه الأيام، ويتعينّ ألاّ أتقدّم بإجازة، ولكني منفعل منذ أمس الأول، وأصبح العمل خارج نطاق تفكيري.

ـ هل تعرف الآنسة ناوومي أنك جئت إلى أوموري اليوم؟

ـ لقد مكثت في البيت طيلة يوم أمس، ولكني قلت لها اليوم إنني ذاهب إلى العمل.. أعتقد أن الشكوك قد تنتابها، لكن ليس إلى حد أن تظن أنني سآتي إلى هنا. لقد قرّرت المجيء في لحظة عفوية. خمّنت إنه إذا ما فتّشت حجرتها، فسوف أعثر على رسائل غرامية، أو أشياء أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ آه. لقد ظننت أنك جئت لتمسك بي. ولكن، ألا تعتقد، في تلك الحالة، أن الآنسة ناوومي قد تأتي؟

ـ لا عليك. لقد أبعدت عنها كل ملابسها وأشيائها. بل إنها لا تستطيع مجرَّد الذهاب إلى الباب، وهي ترتدي ما عليها.

ـ وماذا ترتدي؟

ـ تعرف قميص النوم القرنفلي؟

ـ نعم.

ـ هذا كل ما ترتديه. ليس هناك ما يثير القلق. إنها مثل كلب صار محبوس في حظيرة.

ـ ولكن ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما خرجت؟

ـ قل لي أنت، متى رتبت ناوومي لمقابلتك اليوم؟

ـ يوم أول أمس، في الليلة التي ضبطنا. كنت في حالة اكتئاب فدعتني للمجيء إلى أوموري اليوم، لتروِّح عني، وهذا خطأي بالطبع، فقد كان يتعينَّ أن أقطع علاقتي معها، أو أن أواجه كوماچي، لكني لم أستطع أن أفعل شيئاً. جبنت، ولم يمكِّنني ضعفي من القيام بأي شيء، سوى الانجراف معها. لقد قلت إنها جرفتني معها، ولكن الحقيقة أن حماقتي هي السبب.

شعرت كما لو أنه يتحدَّث عني. وحين دخلنا حجرة في ماتسواسا، وجلست في مواجهته، وجدته جذَّاباً.

- ١٧ -

ناولته كأس «ساكي»، وقلت له:

ـ لقد كنت أميناً معي يا هامـادا. أشعر بتحسّن الآن، لنتنـاول شيئاً من الشراب.

ـ هل تسامحني إذن يا سيد كاواي؟

ـ ليس هناك ما اقترفته يجعلني أسامحك. لقـد احتالت نـاوومي عليك، وأنت لا تعرف شيئاً عن علاقتي بها. إنك لم تقترف إثماً. لا أريد أن أعيد التفكير في الأمر.

ـ آه. أشكرك. إن ما قلته الآن يخفّف عني الكثير.

ولكن ظـلَّ هامـادا متوتـراً. وراح يتكلّم بعبارات قصـيرة متردِّدة، وقـد نكس عينيه، دون أن يتناول الساكي الذي صببته له، وقال:

ـ إذن، هل تسمح لي أن أسألك إذا ما كان بينـك وبين الآنسـة ناوومي صلة قرابة؟

ـ كلا، لا تجمع بيننا قرابة على الإطلاق. لقد ولـدت في «أوتسونـوميا»، بنيما هي من طوكيـو، وما زالت عـائلتها تقيم في طـوكيو إلى اليـوم. أرادت التعلّم على أيدي مدرِّسين، لكن ظروف أسرتها حالت دون ذلك، شعـرت بالأسف لها، وتحمّلت مسؤوليتها منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها.

ـ وهل أنتما متزوِّجان الآن؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ نعم. لقد حصلنا على موافقة عائلتينا، وقمنا باستكمال الإجراءات الشكلية. ولكنها كانت في السادسة عشرة من عمرها وقتئذ. اعتقدت أنها صغيرة للغاية، وأنه لا ينبغي أن أعاملها «كزوجة». وأحسست أنها لن تحبِّذ ذلك أيضاً، وبالتالي قرّرنا أن نقيم معاً كصديقين في الوقت الحالي.

ـ فهمت. وكانت هذه بداية سوء التفاهم، أليس كذلك؟ فمن ينظر إليها لا يظن أنها امرأة متزوِّجة، وهي لم تذكر ذلك قط. وهذا سبب احتيالها علينا جميعاً.

ـ ناوومي هي الملومة، لكني أتحمَّل جزءاً من المسؤولية. إن كلمتي «زوج وزوجة» لم تشغلا بالي كثيراً، فقد كنت أريد تجنّب طريقة حياة «الزوج والزوجة» العادية، قدر الإمكان. لقد ارتكبت خطأ فادحاً، أصحِّحه الآن، بعد أن تلقّنت درساً.

ـ ذلك أفضل شيء. وأنا لا أريدك أن تتغاضى عن خطأي الذي ارتكبته، يا سيد كاواي، ولكن كوماچي شخص سيّء. أرجو أن تكون حذراً. لا يعني ذلك أنني أكنّ له حقداً، إنهم جميعاً سيّئون ـ كوماچي، سيكي وناكامورا. أما الآنسة ناوومي فهي ليست سيّئة. لقد أثّروا عليها.

كان هامادا يتكلّم بعبارات تخنقها عاطفته، والدموع تتلألأ في عينيه. أدركت أن هذا الشاب يهيم غراماً بناوومي. وشعرت بالامتنان له، بل إنني برّرت موقفه. فقد كان على وشك أن يطلب يدها مني، قبل أن يدرك أننا متزوّجان. ولو أنني قلت الآن إنني سوف أتخلّى عنها، فسوف يطلبها دون تردّد. فالحماس البادي على سيماء هذا الشاب كان قوياً، فحرّك مشاعري، وأكّد إصراره.

ـ سوف أعمل بنصيحتك يا هامادا، وأسوّي هذا الأمر في غضون اليومين أو الثلاثة أيام المقبلة. وإذا ما قطعت ناوومي علاقتها بالكامل مع

كوماچي، فسوف تسير الأمور سيراً حسناً. وإذا لم تفعل، فلن أكون راغباً في البقاء معها يوماً آخر، و...

قاطعني قائلاً:

ـ ولكن... أرجوك لا تتركها. سوف تضيع إذا ما تركتها، إنها بريئة.

ـ أشكرك! لا أستطيع أن أعبِّر لك عن مدى سعادتي لتأييدك لي. لقد تحمّلت مسؤوليتها منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، ولا أريد أن أتركها الآن، حتى لو ضحك عليّ الناس. لكنها عنيدة رغم ذلك، وسيتعيّن عليّ أن أجد وسيلة لأجعلها تقطع علاقتها مع أصدقاء السوء.

ـ إنها حقاً عنيدة، تشاجر على أتفه الأمور، ثم يتعقّد كل شيء. أرجو أن تعالج الموقف بكل ما أوتيت من مهارة. ليس من حقي أن أقول ذلك، ولكن...

شكرت هامادا مرة أخرى، ولو أن أعمارنا ومراكزنا الاجتماعية متقاربة، والمعرفة بيننا قوية منذ البداية، لكنت شددت على يده، وربما بكى كل منا على ذراع الآخر. كانت هذه، على أية حال، طبيعة مشاعري تجاهه.

قلت ونحن نفترق:

ـ أرجو أن تستمر في زيارتنا يا هامادا. سوف تكون دائماً على الرحب.

نكس رأسه، كما لو أنه لا يريدني أن أرى وجهه، وقال:

ـ شكراً لك. ولكني قد لا أستطيع ذلك لفترة من الوقت.

ـ ولكن لِمَ؟

ـ لفترة... حتى أستطيع إبعاد ناوومي عن تفكيري.

اعتمر قبعته، في محاولة لإخفاء دموعه، وودّعني، ثم سار باتجاه «شيناجوا». كان بإمكانه أن يستقل الترام من أمام مطعم «ماتسواسا»، لكنه فضّل السير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذهبت إلى المكتب بعد ذلك، لكني لم أستطع تأدية أي عمل. فكّرت فيما يمكن أن تفعله ناوومي الآن. لقد تركتها، وهي ترتدي ذلك الثوب، الذي لا تستطيع الذهاب به إلى أي مكان. بدأت أشعر بالقلق حين وصلت أفكاري إلى هذه النقطة، خاصة وأنني تعرضت للمفاجأة تلو الأخرى. أثارني إدراكي لحقيقة أنني قد خدعت، وتوترت أعصابي من جديد، ولكن بصورة مَرضية هذه المرة، ورحت أتخيَّل كل المواقف الممكنة. بدأت أتصوَّر أن ناوومي تمتلك قدرات سحرية تفوق بكثير قدرتي على فهمها. ليس هناك ما يشير إلى ما قد تفعله، ولا أستطيع أن أركن إلى المسلّمات. لا يجب أن أبقى هنا، فقد يحدث أي شيء مفاجيء، وأنا بعيد عن البيت. اندفعت عائداً إلى كاماكورا، بعد أن أستأذنت من العمل.

قلت بمجرَّد أن وقعت عيناي على زوجة عامل المشتل، التي كانت تقف عند البوابة:

ـ أهلاً. لقد عدت مبكِّراً. هل هي بالداخل؟

ـ نعم، أعتقد ذلك.

شعرت بالارتياح، فسألتها:

ـ هل زارها أحد؟

ـ لم يزرها أحد على الإطلاق.

أشرت بذقني نحو الكوخ، وقلت:

ـ كيف حالها؟

لاحظت أن الحجرة التي من المرجح أن تكون فيها ناوومي، مغلقة تماماً، مظلمة ولا ينمّ عنها أي صوت. بدا كما لو أنه لا يوجد أحد في البيت.

إذن فقد قضت اليوم بأكمله في البيت. ولكن لم هذا السكون المثير للانزعاج؟ كيف ستكون نظرات عينيها؟ اتجهت إلى الشرفة بخطوات حذرة، وكل هذه التساؤلات تدور في رأسي، وفتحت الباب. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء بقليل. وجدتها مستلقية شبه عارية في ركن مظلم من الحجرة، ويبدو أنها نائمة. لاشك أن الناموس قد هاجمها، فأخذت كوفيتي ولففتها حول وسطها، ولكن لم أنجح سوى في تغطية بطنها. أثارني منظر ذراعيها وساقيها البضة الناتئة من ثوبها الأحمر، مثل سيقان في وعاء ملفوف مسلوق. أضأت المصباح الكهربائي، دون أن أنبس ببنت شفة، وخلعت ملابسي، وارتديت الثياب اليابانية، ثم أغلقت باب الخزانة محدثاً ضجة، لكنها واصلت نومها الهاديء، دون أن تنزعج. لم أستطع أن أحدِّد ما إذا كانت قد عرفت بعودتي أم لا.

نفذ صبري، بعد أن جلست أمام مكتبي بدون عمل، لمدة ثلاثين دقيقة، متظاهراً بكتابة خطاب، قلت لها:

ـ أنت! ألن تستيقظي؟ لقد حلَّ المساء.

قالت بصوت نائم، بعد أن صحت فيها مرتين أو ثلاث مرّات:

ـ هم مم...

ـ ألن تستيقظي؟

ـ هم...

نهضت واقفاً، وهززت خصرها بقدمي بعنف، وقلت:

ـ ماذا تفعلين؟

مدّت يديها البضتين، ودفعت قبضتيها الصغيرتين الحمراوتين للأمام، وكتمت تثاؤباً، ثم نهضت ببطء، واسترقت نظرة سريعة إلى وجهي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأشاحت بعينيها. راحت تهرش أعلى قدميها، ساقيها، وعمودها الفقري، في الأماكن التي قرصها الناموس. بدت عيناها حمراوين كالدم، ربما لكثرة النوم، أو بسبب البكاء، وتهدَّل شعرها على كتفيها.

أحضرت ملابسها من البيت الرئيسي مرة أخرى، ووضعتها أمامها، وطلبت منها أن ترتدي الكيمونو. فغيّرت ملابسها ببرود. حان موعد العشاء، ولم ينطق أحدنا بكلمة، ونحن نتناول الطعام.

كنت أفكِّر خلال هذه المواجهة الطويلة، الكئيبة، في طريقة لأجعلها تصفو، ولأحصل منها على اعتذار لائق. وضعت، بطبيعة الحال، نصيحة هامادا في اعتباري، فناوومي امرأة عنيدة، وحين تشتبك مع أحد، لا يكون هناك أمل في شيء. لاشك أن نصيحته تقوم على أساس تجربة شخصية، كما باستطاعتي شخصياً التفكير في أمثلة عديدة. أسوأ ما في الأمر أن أثير غضبها. سأحاول تناول الموضوع بحذر، حتى لا تلجأ للعناد، وتبدأ في الجدل، ولكن يجب ألاّ أبدو بمظهر المتساهل. إن أخطر شيء هو أن أحقِّق معها مثل قاض، فهي ليست ذلك النوع من النساء الذي يجيب باحترام: «نعم، يا سيدي». وإذا ما حاصرتها بالأسئلة المباشرة مثل: «لقد تورطت مع كوماچي، أليس كذلك؟» أو «إنك تورطت في علاقة مع هامادا أيضاً، أليس كذلك؟» فإنها ستقاوم، وقد تدعي أنها لا تعرف شيئاً عما أتحدَّث عنه. وقد ينفد صبري، وأفقد أعصابي، وينتهي كل شيء. لا، إن مثل ذلك النوع من الاستجواب لن يفيد. ومن الأفضل أن أتخلَّى عن فكرة الحصول منها على اعتراف، وأن أصارحها، بدلاً عن ذلك، بما عرفته اليوم. ومهما كان عنادها، فلن تستطيع إنكاره.

وبعد أن اتخذت قراري، فاتحتها في الأمر، قائلاً:

ـ توقفت في «أوموري» في حدود الساعة العاشرة من صباح اليوم، فوجدت هامادا داخل البيت.

أذهلتها المفاجأة، فدمدمت، وتجنَّبت نظرتي المحدِّقة فيها، فاستطردت قائلاً:

ـ ولما حان وقت الغداء، اصطحبته إلى «ماتسواسا» لتناول الطعام.

لم تجب. فقلت بأناة، وأنا أراقب قسمات وجهها، ما كان يتعيّن عليّ قوله، محاولاً ألاَّ أبدو ساخراً. جَلَست بلا حراك، وأصغت، ورأسها منكس، إلى أن انتهيت، ظلَّت على وضعها، رغم أن وجنتيها ازدادتا شحوباً.

ـ وبعد ما قاله هامادا، فليس هناك ما يدعو إلى الاستماع إلى روايتك. إنني أعرف الآن كل شيء. ليتعيَّن عليك أن تتخلِّي عن عنادك. إذا كنت مخطئة، فكل ما هو مطلوب منك أن تقرّي بذلك... ما رأيك؟ هل أنت مخطئة؟ أتعترفين بخطأك؟

لم تجب. هل سيتحوَّل الأمر إلى الاستجواب، الذي كنت متخوِّفاً منه؟ ما رأيك يا ناوومي؟

قلت لها بكل ما استطعت من رقة:

ـ إذا ما اعترفت فقط بأنك مخطئة، فلن أدينك بما حدث في الماضي. ولن أجبرك على الركوع والاعتذار. أريد منك فقط أن تقسمي بألاَّ تكرِّري مثل هذه الأفعال مرة أخرى. أتفهمين؟ هل ستعترفين بأنك مخطئة؟

أومأت.

ـ أتتفهَّمين الموقف إذن؟ ألن تمارسي ألعابك مع كوماچي والآخرين بعد الآن؟

ـ كلاَّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ متأكِّدة؟ أتعدين بذلك؟

ـ نعم.

توصلنا، بهذا الرد، إلى تسوية سمحت لكلينا بإنقاذ ماء وجهه.

- ١٨ -

تحدثنا في الفراش في تلك الليلة، وكأن شيئاً لم يكن، ولكن في الحقيقة، لم أستطع أن أبعد ما حدث عن ذهني تماماً. فهي لم تعد عفيفة الآن. جثمت ظلال قاتمة فوق قلبي، بعد أن قلَّل ما حدث من قيمة ناوومي، التي كانت بمثابة الكنز لي، بمعدل يزيد عن النصف. ذلك أن قيمتها الكبيرة عندي، ترجع إلى أنني ربيتها بنفسي، وجعلت منها امرأة رائعة الجمال، وكنت الوحيد الذي يعرف كل جزء في جسدها. كانت بالنسبة لي بمثابة الفاكهة التي زرعتها بنفسي. عملت بكدّ واجتهاد، ولم أدخر وسعاً لجعلها تنضج، وبالتالي، لا يحق لأحد سواي، أنا الزارع، أن يتذوّقها. ولكن في غفلة مني، مزق غريب قشرتها، وأخذ قضمة منها. وبمجرد أن تدنَّست، لم يعد الاعتذار كافياً، لمحو ما حدث. فقد انطبعت على سطح بشرتها الثمينة والمقدّسة، آثار، لن تنمحي لإثنين من اللصوص. كلما ازداد تفكيري في الموضوع، ازداد أسفي وكدري. لم أكرهها، لكني كرهت ما حدث.

قالت عندما رأتني أنتحب:

ـ سامحني يا چوچي!

تغيَّرت طريقتها في الكلام تماماً. أومأت برأسي، وأنا أبكي. ربما كنت سأقول: «لقد سامحتك»، لكني لم أستطع نسيان أن ما حدث لا يمكن محوه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وصل صيفنا في كاماكورا، بالتالي، إلى نهاية قاسية، وعدنا إلى البيت في «أوموري». لم تسر الأمور بيننا سيراً حسناً، إذ لم أتمكّن من إخفاء مشاعري. ورغم أننا نجحنا، على السطح، في تسوية خلافاتنا، إلاّ أنني لم أعد أثق فيها، حيث ينتابني الشك، حين أكون في العمل، من ناحية كوماچي، وظللت أشعر بالقلق تجاه تصرفاتها أثناء غيابي، وقد دفعني ذلك إلى التظاهر بمغادرة البيت إلى العمل، ثم تتبعها حين تخرج لتتلّقى دروسها في اللغة الإنجليزية والموسيقى، كما كنت أقرأ الرسائل التي ترد إليها. بدأت أشعر بأنني مثل العميل السري. ويبدو أن ناوومي كانت تسخر من إصراري على الاستمرار في ذلك. لم تتعارك معي، لكنها بدأت تشاكسني.

قلت لها ذات ليلة، وأنا أهزّها (لم أعد أتحدّث إليها كما لو كانت طفلة):

ـ أنت! ناوومي! ماذا تفعلين؛ أتتظاهرين بالنوم؟ هل تكرهينني إلى هذا الحد؟

قالت، وقد ارتسم على وجهها تعبير بارد:

ـ أنا لا أتظاهر بالنوم، لكني أريد أن أنام، ولذلك فقد أغمضت عيني

ـ إذن افتحيها. ليس هنا ما يدعو لأن تغمضيها، عندما أتحدَّث إليك.

فتحت عينيها على مضض، وحدَّقت فيّ من خلال رموشها، مما جعل وجهها يبدو أكثر برودا، وأشد قسوة.

ـ أتكرهينني؟ إذا كان الأمر كذلك، لا بد أن تقولي.

ـ لِمَ تسأل هذا السؤال؟

ـ إنني أفهمك من الطريقة التي تتصرَّفين بها. لم نعد نتشاجر، لكننا نتبادل الكراهية. هل يمكن أن ندعي أننا مانزال زوجاً وزوجة؟

ـ أنت فقط الذي تكره، أما أنا فلا.

ـ أعتقد أنها متبادلة. وهذا واضح من تصرفاتك. لقد بدأت أشك، و. . . .

قاطعتني بضحكة ساخرة، وقالت:

ـ دعني أسألك إذن. هل هناك شيء يثير الشكوك من تصرفاتي؟ وإذا كان هناك شيء، فهل لديك الدليل على ذلك؟

ـ ليس لديّ أي دليل، ولكن. . .

ـ ألا ترى أنه من غير المعقول أن تشك فيّ دون أي دليل؟ لا يمكن أن تتوقّع منا أن نعيش كزوج وزوجة، وأنت لا تثق فيّ، ولا تمنحني أية حرية، ولا تعطيني حقوقي كزوجة. أتعتقد أنني لا أعرف ما تفعله؟ أعرف أنك تقرأ خطاباتي، وتتبعني مثل مخبر سري.

ـ لقد أخطأت في ذلك، ولكني أعاني من التوتر بسبب ما حدث من قبل. عليك أن تتفهّمي الأمر.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ ألم نتفق على ألاّ نتحدث بشأن الماضي؟

ـ أريدك أن تفتحي قلبك لي. أريدك أن تحبيني حتى تهدأ أعصابي.

ـ لا أستطيع طالما لا تثق فيّ.

ـ سأثق فيك. من الآن فصاعداً سأثق فيك.

هنا يتعينّ عليّ أن أعترف بمدى وضاعة الرجال. فمهما يحدث أثناء النهار، أجدني أستسلم لها في الليل. أو بدلاً من كلمة «أستسلم»، أقول إنها تروض الحيوان بداخلي. والحقيقة أنني مازلت لا أثق فيها على الإطلاق، لكن الحيوان بداخلي يجبرني على الانصياع لها؛ إنه يقودني للتخلّي عن كل شيء، والاستسلام. لم تعد ناوومي كنزاً لا يقدّر بثمن، أو معبودة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدلّلة، لقد أصبحت عاهرة. لم تعد تجمع بيننا براءة المحبين أو عاطفة الزواج. فقد تلاشت هذه المشاعر كحكم قديم. لماذا تعتمل المشاعر بداخلي حتى الآن، تجاه هذه المرأة الخائنة المدنسة؟ إن إغراءات جسدها تشدّني إليها بقوة. وقد حطَّ ذلك من قدري، كما حطَّ، في الوقت ذاته، من قدرها، لأنه يعني أنني تخلّيت عن استقامتي، إحساسي، وصدقي كرجل، وتخلّيت عن كبريائي، لأنحني أمام عاهرة، ولم أعد أشعر بأي عار، وأنا أفعل ذلك. لقد مرَّت عليّ أوقات كنت أعبد فيها جسد هذه الفاسقة الجديرة بالازدراء، كما لو أنني بين يدي إلهة.

كانت ناوومي تعرف نقطة ضعفي. وحين أدركت أن جسدها لا يقاومه الرجال، وأنها تستطيع، عندما يقبل الليل، أن تجعل أي رجل يركع أمامها، أصبحت تتصرَّف بشراسة أثناء النهار. لقد أوضحت بذلك أنها تبيع «المرأة» بداخلها لرجل، لا تربطها به أية علاقة. فكانت نكدة، فظة، وغير مبالية، كما لو أنني كنت غريباً تمر بجواره في الشارع. لم تكن تجيب إجابة مرضية حين أتحدَّث إليها. وإذا كان الأمر ملحاً، كانت ترد بنعم أو لا. فسّرت تصرفها كدلالة على تحدّيها غير المباشر، ومقتها الشديد لي. كانت عيناها تحدِّقان فيّ، كأنها تقول: «ليس لك الحق يا چوچي أن تغضب من برودي في التعامل معك. إنك تحصل على كل شيء نريده مني. ألا يكفيك ذلك؟ أمّا نظرات عينيها فكانت تقول: «يا لك من رجل مثير للاشمئزاز، منحطّ، وضيع مثل كلب، أتحمّله لأنني مضطرة».

لم يكن ممكناً استمرار هذا الوضع طويلاً. وأدركنا أنه سيأتي يوم ويحدث انفجار، رغم أننا سبرنا أغوار قلبينا، وواصلنا عداءنا الكئيب، المكبوت. ذات مساء ناديتها بصوت رقيق عطوف، على غير العادة، وقلت لها: لِمَ لا نتخلَّى عن هذا العناد السخيف يا ناوومي؟ لا أعرف موقفك، ولكني لا أستطيع أن أتحمّله بعد الآن ـ إنها حياة باردة، تلك التي نعيشها.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن نعود زوجين حقيقين مرة أخرى. لا أستطيع مواصلة العيش في يأس، كالذي نعيشه. ينبغي علينا أن نحاول استرجاع سعادتنا السابقة.

ـ وحتى إذا حاولنا، فإن المشاعر لا يمكن أن تتغيَّر بهذه السهولة.

ـ ربما، ولكن أعتقد أن هناك طريقة تجعلنا سعداء مرة أخرى، إذا ما وافقت عليها.

ـ ما هي الطريقة التي تتحدَّث عنها؟

ـ ألا تريدين طفلاً؟ أن تصبحي أماً؟ باستطاعتنا، لو أصبح لدينا طفل واحد، أن نكون زوجاً وزوجة، بالمعنى الحقيقي. ويمكننا أن نصبح سعيدين. أتوسَّل إليك، أرجوك أن توافقي.

ردَّت بسرعة وحسم:

ـ لا. لا أريد ألم تقل لي إنك لا تريد أطفالاً؟ وأنك تريد أن أبقى شابة للأبد، مثل صبية؟

ـ قلت ذلك من قبل، ولكن...

ـ إذن لم تعد تحبني على طريقتك السابقة، أليس كذلك؟ لم تعد تهتم بما سيحدث لي عندما يتقدَّم بي السن، وأصبح قبيحة، أليس كذلك؟ لا، إنني على صواب. إنك أنت الذي لا تحبني.

ـ إنك تسيئين فهمي. في البداية كنت أحبك كصديقة، أمّا الآن فأحبك كزوجة حقيقية.

ـ هل تعتقد أن هذه الطريقة ستعيد «سعادتنا السابقة»؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ربما لا تعود كما كانت، ولكن السعادة الحقيقية. . . .

هزَّت رأسها بعنف، قبل أن أتمكَّن من إتمام كلامي، وقالت:

ـ لا، لا. لقد سمعت ما فيه الكفاية. إنني أريد السعادة التي عشناها من قبل، ولا أريد سواها. ذلك ما اتفقنا عليه قبل أن آتي لأقيم معك.

- ١٩ -

تفتّق ذهني عن وسيلة أخرى، فطالما أن ناوومي لا تريد إنجاب طفل، لِمَ لا ننتقل من «بيت القصص الخيالية» في أوموري، ونؤثّث بيتاً على نمط أكثر رزانة ورحابة؟ لقد أقمت في مرسم الفنّان الغريب غير العملي، بعد أن جذبتني فكرة الحياة البسيطة، ولكن ليس هناك شك في أن شكل البيت ساهم في جعل حياتنا مشوّشة. وكان من المحتّم أن يصبح زوجان شابان، بدون خادمة، يقيمان في بيت مثل هذا، أنانيين، ويتخليان عن الحياة البسيطة، وينزلقان إلى حالة الإهمال. سوف أجلب خادمة وطبّاخة لتراقبا ناوومي، أثناء غيابي عن المنزل. وسأنتقل إلى بيت على الطراز الياباني الصرف، يناسب رجلاً من الطبقة المتوسطة، ويتسع ليضم زوجاً، زوجة، وخادمتين. سأبيع الأثاث الغربي الذي استخدمناه، وسأشتري أثاثاً على الطراز الياباني. سأبتاع بيانو لناوومي، وبإمكاننا أن نطلب من الآنسة سوجيزاكي أن تأتي إلى البيت لإعطاء ناوومي دروساً في الموسيقى، كما ستأتي الآنسة هاريسون لإعطائها دروس اللغة الإنجليزية أيضاً. ولن تضطر ناوومي للخروج من البيت بعد الآن. لكني بحاجة إلى مبلغ معقول لتنفيذ خطتي. قرّرت أن أطلب من أسرتي المال، ولم أقل شيئاً لناوومي حتى أنتهي من كل الاستعدادات. قضيت الكثير من الوقت أبحث بنفسي عن بيت أستأجره، وعن أثاث ملائم.

أرسلت أسرتي في الحال صكاً بمبلغ ألف وخمسمائة ين. وكتبت أمي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رسالة أرفقتها مع الصك، رداً على طلبي للخادمة، قالت فيها «إن لدينا الخادمة المناسبة لك. تتذكّر سنتارو الذي كان يعمل لدينا. إن ابنته «أوهانا» بلغت الآن الخامسة عشرة من عمرها. ونظراً لأنك تعرفها، فسوف ترتاح معها. مازلت أبحث لك عن طاهية، وسأرسلها إليك بمجرد أن تعثر عَلى مكان جديد».

شعرت أن ناوومي تدرك أنني أخطِّط لشيء سراً، لكنها في البداية كانت هادئة على نحو يثير الخوف، كما لو أنها تقول: «سأنتظر لأرى ما سيحدث». ثم قالت لي ذات ليلة، بعد يومين أو ثلاثة أيام من وصول رسالة أمي:

ـ أريد أن أبتاع بعض الملابس الغربية يا چوچي. هل ستشتري لي بعضاً منها؟

كانت نبرة صوتها تجمع بين التودّد والسخرية الغريبة، فقلت لها باندهاش، وأنا أحدِّق في وجهها:

ـ ملابس غربية؟

قلت لنفسي لا بد أنها عرفت بوصول صك المال، وتقوم باختباري.

ـ ألا ترغب في ذلك؟ إذن لتبتع لي ملابس يابانية. أريد شيئاً للشتاء.

ـ لا أريد أن أبتاع لك أي شيء من هذا القبيل لفترة.

ـ ولِمَ لا؟

ـ لديك بالفعل الكثير من الملابس، أليس كذلك؟

ـ لكني ضقت ذرعاً بها. أريد ثياباً جديدة.

ـ لن أسمح لك بأي نوع من الرفاهية بعد الآن.

ـ حقاً؟ إذن في أي شيء سوف تستخدم ذلك المال؟

ها هي قد وصلت، أخيراً، إلى ما تريد قوله.

تصنَّعت الجهل، وقلت:

ـ مال؟ أي مال؟

ـ لقد قرأت الخطاب المسجّل الموجود تحت خزانة الكتب، يا چوچي، أنت تقرأ رسائلي، إذن من حقي أن أفعل الشيء ذاته.

لم أكن أتوقَّع ذلك. ظننت أنها رأت المغلف المسجل، وخمنت أنه يحتوي على صك مالي. لم أكن أتوقع قط أنها قرأت الخطاب، المخبَّأ تحت خزانة الكتب. لقد بحثت، بلا شك، عنه على أمل اكتشاف سري. وإذا كانت قد قرأته، فستعرف حجم المبلغ، وخططي للانتقال من البيت، وجلب خادمة، وكل الأشياء الأخرى.

ـ بإمكانك بكل هذا المال أن تبتاع لي كيمونو. ماذا كنت تقول لي؟ سأقيم في بيت صغير، وسأتحمَّل أية صعوبات من أجلك. وسأجعلك تعيشين حياة مرفهة، من المال الذي أدخره. أنسيت ما قلته؟ لقد تغيَّرت تماماً منذ ذلك الوقت.

ـ قلبي لم يتغيَّر. مازلت أحبك، لكني أعبِّر عنه الآن بطريقة مختلفة.

ـ إذن لماذا لم تقل لي إننا سننتقل لبيت آخر؟ أتريد أن تصدر فرماناً؟

ـ كنت سأتحدث معك بهذا الشأن، حين أعثر على بيت مناسب. سأخبرك يا ناوومي بما أشعر به فعلاً. مازلت أريد أن أجعلك تعيشين حياة مرفهة. ليس بمجرّد ابتياع الملابس الفاخرة لك، بل إنني أسعى أيضاً لكي أجعلك تقيمين في منزل مناسب. أريد أن يصبح كل شيء في حياتك ملائماً لسيدة جميلة. ليس هناك ما يجعلك تتبرَّمين.

ـ حقاً؟ أشكرك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ قد ترغبين في الخروج معي غداً للبحث عن بيت. أي مكان سيكون مناسباً إذا كانت به حجرات أكثر من هذا البيت، إذا لقي إعجابك.

ـ في هذه الحالة، أريد بيتاً غربياً. لا أستطيع تحمل الإقامة في بيت ياباني.

قبل أن أتمكّن من الرد عليها، استطردت قائلة:

ـ أما بالنسبة للخادمة، فسوف أطلب من أهلي أن يجدوا لي واحدة في «أساكوسا». وبإمكانك رفض تلك الخادمة الريفية، إنها ستكون خادمتي، كما تعرف.

تكثفت سحب العاصفة تدريجياً فوقنا، حيث تزايدت المشاجرات بيننا. كانت هناك أيام لا نخاطب بعضنا بعضاً على الإطلاق. لكن الانفجار جاء في أوائل شهر نوفمبر، بعد شهرين من عودتنا من كاماكورا، حين عثرت على دليل إيجابي، بأن ناوومي لم تقطع علاقتها بكوماچي.

ليس هناك ما يدعو إلى وصف تفاصيل الأحداث، التي أفضت إلى اكتشافي. فرغم أنني كنت منهمكاً في الإعداد للانتقال من البيت، إلاَّ أنني كنت بالغريزة دائم الشك في ناوومي، وواصلت أنشطة التقصي، التي أسفرت عن رؤيتي لها ذات يوم وهي عائدة إلى البيت بعد موعد سري جريء مع كوماچي في «دايبريك باڤيليون» بالقرب من بيتنا في «أوموري».

كانت زينتها المبالغ فيها، هي التي أثارت شكوكي في ذلك الصباح. عدت فور خروجي من المنزل، واختبأت وراء كيس من الفحم عند الباب الخلفي. (كنت أستأذن كثيراً من العمل في تلك الأيام). وبعد أن تأكّدت من ذهابي، خرجت في الساعة التاسعة، وقد تأنّقت في زينتها، رغم أن اليوم لم يكن من الأيام التي تتلقّى فيها دروسها. وبدلاً من أن تتجه نحو المحطة، سارت مسرعة في الاتجاه العكسي. تركتها تسير لمسافة عشرة أو

إثني عشر متراً، ثم اندفعت إلى داخل المنزل، وأخرجت المعطف وارتديته فوق حلّتي، واعتمرت القبعة، لأبدو في هيئة طالب، ووضعت قدمي العاريتين في خفّين من الخشب، وهرعت إلى الخارج. تتبعت ناوومي من بعد. شاهدتها وهي تدخل خان «دايبريك». ثم جاء كوماچي بعد نحو عشر دقائق. فجلست منتظراً أن يخرجا.

خرجا كلاً على حدة، كما دخلا، كانت الساعة نحو الحادية عشرة حين ظهرت ناوومي في الشارع، لتترك كوماچي بالداخل. وقد ظللت أتسكّع بالقرب من الخان لمدة ساعة ونصف الساعة تقريباً. سارت ثلثي الميل باتجاه منزلنا مسرعة، مثلما جاءت، دون أن تلتفت يميناً أو يساراً. حثثت الخطى بالتدريج، وأنا أتبعها. فتحت الباب الخلفي، وانسلّت للداخل، ووصلت في أثرها بعد أقل من خمس دقائق.

تركّزت عينا ناوومي عليّ، حين اندفعتُ للداخل، بينما تجمّدت في وقفتها. كانت قبعتي، معطفي، حذائي، وجواربي ملقاة عند قدميها، مبعثرة كما تركتها، بعد أن خلعتها. لا بد وأن هذه الأشياء قد كشفت لها كل شيء. بدا وجهها هادئاً شاحباً، فعكس استسلامها التام.

صحت بصوت عالٍ رنَّ في أذني: اخرجي!. لم أقل أي كلمة أخرى، ولم تنبس ناوومي ببنت شفة. تبادلنا النظرات، مثل رجلين مشهرين سيفيهما كل منهما مصوّب إلى عين الآخر، بانتظار بدء النزال. شعرت في تلك اللحظة بجمال وجهها. أدركت أن وجه المرأة يصبح أجمل، كلما تعرض لكراهية رجل. لقد قتل دون جوزيه كارمن لأن جمالها قد ازداد حين تزايدت كراهيته لها. انتابني الإحساس نفسه، فقد بدت ناوومي، بعضلات وجهها الساكنة بلا حراك، وعينيها المحدقتين، وشفتيها المزمومتين، وقد هربت الدماء منهما، كشرٍّ مجسَّم، يقف قبالتي. ندت عن عينيها نظرة عاهرة متحدّية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صحت مرّة أخرى: اخرجي!

قبضت على كتفيها بشراسة، تدفعني الكراهية، الخوف، وجمالها، ودفعتها نحو الباب، قائلاً: اخرجي! هيّا اخرجي!

تغيّرت تعبيرات وجهها فجأة، رقّ صوتها، اغرورقت عيناها بالدموع، جثت على ركبتيها، وتطلّعت إلى وجهي متوسِّلة، وقالت:

ـ سامحني يا چوچي، لقد أخطأت! سامحني... سامحني.

لم أتوقّع أن تتوسَّل إليّ لأسامحها. لكن المفاجأة، جعلت غضبي يزداد، ورحت أدفعها بيدي، قائلاً لها:

ـ يا كلبة! يا شيطانة! لِمَ لا تخرجين حين أطلب منك ذلك؟

تبدَّل أسلوبها فجأة مرّة أخرى، كما لو أنها تقول في نفسها: «لقد أفسدت ذلك الرجل، أليس كذلك؟» ونهضت واقفة بسرعة، قائلة بصوت عادي تماماً:

ـ سأرحل إذن.

ـ خير ما تفعلين. اخرجي فوراً!

ـ نعم، سأخرج فوراً. هل بإمكاني أن أصعد لأغيِّر ملابسي؟

ـ لا. أرسلي أحداً فيما بعد! سوف أعطيه كل أشيائك!

ـ لكن ثمة بعض الأشياء سأحتاج إليها الآن.

ـ افعلي ما تشائين إذن، ولكن بسرعة!

تكلَّمت بلهجة حادة، لأنني فسَّرت عبارتها: «سأخرج فوراً» على أنها تهديد، ولم أشأ أن أستسلم. صعدت الدرج، وأحدثت جلبة في الحجرتين، ورتبت سلالاً وصرراً، تزيد عن طاقتها. نادت على «ريكشا» ووضعت فوقها الأشياء، وقالت بمنتهى البساطة:

ـ إلى اللقاء إذن. أشكرك على كل ما فعلته.

- ٢٠ -

وجدت نفسي أخرج الساعة من جيبي، لأعرف الوقت، بمجرَّد أن ابتعدت «الريكشا» حاملة ناوومي. كانت الساعة الثانية عشرة وستاً وثلاثين دقية ظهراً. حدث كل شيء إذن في وقت قصير. فقد خرجت من «دايبريك باڤيليون» في الحادية عشرة، ثم تشاجرنا. وكانت تقف هنا منذ لحظة، لكنها مضت الآن. لقد استغرق كل ذلك ساعة وستاً وثلاثين دقيقة فقط. ينظر الناس عادة إلى الساعة بصورة غريزية حين تخرج آخر أنفاس شخص عزيز عليهم، أو حين يقع زلزال. وقد أخرجت ساعتي بصورة غريزية أيضاً، مثل غيري من الناس. في الساعة الثانية عشرة وست وثلاثين دقيقة، من أحد أيام نوفمبر، من أحد الأعوام، ابتعدت عن ناوومي. هذه الساعة قد تشير إلى نهاية علاقتنا.

قلت لنفسي: يا للراحة!. ألقيت بنفسي فوق مقعد في حالة دوار، بعد أن استنزفني عداؤنا المستمر. كان رد فعلي الفوري هو الشعور بالارتياح، والانتعاش، والتحرّر. كنت في حالة إجهاد، ليس على المستوى المعنوي فقط، بل والنفسي أيضاً. شعرت أن جسمي بحاجة إلى الراحة. لقد بدا الأمر كما لو أن ناوومي عبارة عن نبيذ قوي. كنت أعرف أن احتساء الكثير منه سيضرني، ولكن عُرضت عليّ كؤوس مترعة، ذات أريج قوي، فلم أستطع منع نفسي. وكلما احتسيت المزيد، يتسرَّب السائل المسمّم إلى كل مفاصل جسمي، إلى أن أصبت بالإجهاد والكسل، وباتت مؤخّرة رأسي ثقيلة كالرصاص، واعتقدت أنني إذا ما نهضت واقفاً، سوف أصاب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالدوار، وأقع على ظهري. كان ذلك يماثل الآثار التي يخلفها الإسراف الشديد في الشراب: وعانيت من مغص في معدتي، وضعف في ذاكرتي، ولا مبالاة تجاه أي شيء، وبلادة كما لو أنني أحد قدماء المحاربين. طافت رؤى غامضة لناوومي في ذهني، جعلتني أحياناً أصاب بالغثيان، مثل تجشؤ كامن، وعلقت رائحة عرقها، وزيت شعرها في أنفي. يقولون إن «البعيد عن العين، بعيد عن القلب». لقد مضت الآن، وبدا الأمر كما لو أن سماءً ممطرة قد صفت فجأة

لكن هذا كان مجرّد رد فعلي الفوري. لقد استمر شعوري بالراحة نحو ساعة واحدة فقط. وبعد الجهد الذي بذلته، لم يسترد جسمي قوته في ساعة واحدة؛ مع ذلك طاف بذهني بعد أن التقطت أنفاسي، وجه ناوومي، والتعبير الرهيب الذي ارتسم عليه، خلال شجارنا، في اللحظة التي فكّرت فيها بأن وجه المرأة يصبح أكثر جمالاً بقدر ما يستثير من كراهية الرجل. انحفر في ذهني وجهاً بغيضاً لعاهرة، لا يكفي قتلها لنسيانه. اتضحت الصورة شيئاً فشيئاً بمرور الوقت. أحسست بعينيها المحملقتين تحدّقان فيّ. تحوّل الوجه الكريه بالتدريج إلى جمال لا يقاوم. اكتشفت أنني لم أر وجهها مثيراً، مثلما كان في تلك اللحظة. لقد كان وجهاً شيطانياً، لا شك في ذلك، لكنه كان، في الوقت ذاته، رائعاً. بل إن كل جمال جسمها وروحها ارتفع إلى أعلى مستوى له. لماذا لم أجث، حين هزّني جمالها، في وسط الشجار، عندما صرخ فؤادي: «يا للجمال!» مهما كانت حدة غضبي، كيف استطعت مهاجمة تلك الآلهة الرهيبة؟ إنني في أغلب الأحيان ضعيف، متردّد ـ من أين واتتني تلك الشجاعة المتهوِّرة؟ إنني أجد كل شيء غامضاً الآن. بل لقد استأت من تهوّري وشجاعتي.

بدأت أسمع أصواتاً تقول: «يا لك من أبله. انظر ما فعلت. أتشك حقاً أن أموراً تثير قليلاً من الانزعاج تعادل هذا الثمن الباهظ الذي تدفعه

الآن؟ إنك لن ترى قط جمالاً مثل ذلك الوجه مرة أخرى». قلت لنفسي: هذا صحيح، لقد تصرّفت بحماقة. كنت دوماً حذراً من إغضابها، لا بد وأن روحاً شرّيرة قد تدخّلت، فأفسدت الأمور. تغرزت هذه الفكرة في ذهني..

كنت أعتقد، قبل ساعة واحدة، أن ناوومي كانت عبئاً، وأن وجودها لعنة. لماذا ألعن نفسي الآن، وأشعر بالأسف لتسرّعي؟ لماذا أشتاق لهذه المرأة الكريهة؟ إن هذا التغير المفاجيء لقلبي أمر يصعب شرحه، ربما يكون لغزاً لا يفهمه سوى إله الحب. نهضت واقفاً، دون وعي، وبدأت أزرع الحجرة جيئة وذهاباً. حاولت جاهداً أن أفكّر في طريقة أشفي بها نفسي من هذا الحب، لكني لم أنجح. كل ما استطعت أن أفعله هو تخيّل مدى جمالها، وطافت أمامي مشاهد من حياتنا، التي دامت خمس سنوات. آه، لقد قالت كذا وكذا في ذلك الوقت، وبدا وجهها بذلك الشكل، وفعلت كذا بعينيها. كان كل مشهد يثير أسفي على ما حدث، خاصة تلك الأيام التي لا تنسى، وهي في الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة من عمرها، حين كنت أغسل جسدها، في حوض الاستحمام الغربيّ كل ليلة، وألعب معها لعبة الحصان، وهي فوق ظهري تصرخ: «هلم، هلم» وأنا أدور داخل الحجرة. شعرت بالحماقة وأنا أحسّ بالحنين لتلك الأحداث السخيفة، ولكن إذا ما عادت، فإن أول ما سأفعله هو أن ألهو معها بهذه الطريقة مرة أخرى. سأضعها على ظهري وأزحف وأدور في الحجرة. قلت لنفسي: سأكون في غاية السعادة. ورحت أتخيّل ذلك وكأنه أعظم ما يمكن تصوره من فرح. وفي الواقع فإنني فعلت ما يفوق التخيّل. فمن فرط حبي، جثوت على أطرافي الأربعة، ورحت أدور وأدور في الحجرة، كما لو أن جسمها مستقر فوق ظهري الآن. صعدت الدرج ـ إنني أشعر بالخجل وأنا أكتب ذلك ـ وأخذت ملابسها القديمة، وكوّمتها فوق ظهري، ورحت أزحف وأدور في تلك الحجرة أيضاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد يتذكّر الذين قرأوا هذه القصة من بدايتها، أن لديّ مذكرات سميتها: «ناوومي تنمو». كنت قد سجلت بالتفصيل، في تلك الأيام التي كنت أحمّمها، كيف أن أطرافها تنمو كل يوم. لقد كان ذلك نوعاً من اليوميات، ركّزت فيها على تطوّر ناوومي وانتقالها من مرحلة الفتاة الصغيرة إلى مرحلة الفتاة المراهقة. تذكّرت أنني التقطت صوراً فوتوغرافية لناوومي في أوضاع مختلفة، ولكل تغيّر طرأ عليها. فسحبت كتاب الصور المغبر، المهمل من قاع خزانة الكتب، ورحت أقلب صفحاته. إنها صور قمت بتحميضها وطبعها بنفسي، إذ لم أكن أستطيع أن أسمح لأحد سواي برؤيتها. من الواضح أنني لم أكن قد جففتها جيداً، لأن بقعاً صغيرة قد انتشرت فوقها، فبدا شكل بعضها كالصور القديمة، لكن ذلك زاد إحساسي بالحنين، وشعرت كأنني قد عدت عشر سنوات، عشرين سنة، لأصل إلى أحلام طفولتي البعيدة. لقد تضمّنت الصور كل الملابس الأثيرة لديها ـ ملابسها غريبة التصميم، ملابسها المبهجة، غير المحتشمة، والكوميدية. رأيت صورة لها وهي ترتدي حلة رجالية من المخمل. وفي صورة أخرى، وقفت كتمثال، تلفّ حول جسدها نسيجاً قطنياً. وبدت، في صفحة أخرى، في كيمونو من الحرير اللامع وفوقه معطف، وقد تمنطقت بنطاق رفيع حول خصرها، ووضعت شريطة حول رقبتها. ثم شاهدت صوراً لها وهي تقوم بتعبيرات وحركات، تقلّد فيها ممثّلات السينما ـ ابتسامة ماري بيكفورد، عينا «جلوريا سوانسون»، غضب «بولا نيجري»، وتكلّف «بيبي دانيل». كان وجهها ووقفتها تختلف في كل صورة، سواء كانت ساخطة، مبتسمة، مرعوبة، أو مبتهجة. وأظهرت كل صورة مدى حساسيتها، ومهارتها في أداء مثل هذه الأوضاع.

يا لها من غلطة! لقد تركت امرأة غير عادية تبتعد عني. ضربت الأرض بقدمي في يأس، وأنا في شدة الاضطراب. وجدت المزيد من الصور لها في

أوضاع مختلفة، وأنا أقلب الصفحات. وبالتدريج وصلت إلى الصور التفصيلية، والصور كبيرة الحجم لأجزاء معينة منها، شكل أنفها، شكل عينيها، شفتيها، أصبعها، كوعها، استدارة كتفها، ظهرها، ساقها، رسغها، كاحلها، ركبتها، بل وأخمص قدمها أيضاً ـ كل هذه الأجزاء تم تصويرها، كما لو أنها أجزاء من تمثال يوناني، أو تمثال لبوذا. كان جسد ناوومي عملاً فنياً أكثر إبداعاً من بوذا. وكلما أمعنت النظر في الصور، شعرت بامتنان عميق يتزايد بداخلي. ما السبب الذي دفعني لالتقاط كل هذه الصور التفصيلية؟ هل شعرت بأن يوماً سيأتي وتصبح هذه الصور ذكرى حزينة؟

ظل اشتياقي لناوومي يزداد أكثر فأكثر. اقترب النهار من نهايته، وبدأت نجمة المساء تلمع في السماء خارج النافذة، واشتدَّت برودة الجو. لم أكن قد تناولت طعاماً أو غذيت المدفأة منذ الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم، ومنعتني روحي المعنوية المنهارة من الضغط على زر المصباح الكهربائي. تخبطت حتى صعدت إلى الطابق الثاني من البيت المظلم، ثم عدت مرّة أخرى إلى أسفل، وصحت «يا لي من أبله» وخبطت رأسي في الجدار، وضغطت وجهي في جدار المرسم، الذي يلفّه السكون، وصحت: «ناوومي، ناوومي»، وفيْ النهاية استلقيت ووجهي نحو الأرض، وظللت أردِّد اسمها. يتعينَّ عليّ أن أجد طريقة ما لإعادتها. سوف أستسلم لها دون قيد أو شرط. سوف أذعن لما تقول أو تريد... ترى ماذا تفعل الآن؟ من المحتمل أنها استقلَّت سيارة من محطة طوكيو. وإذا كان ذلك ما حدث فلا بد أن تكون خمس أو ست ساعات قد مضت على وصولها إلى بيت أهلها في «أساكوسا». هل أخبرتهم السبب الحقيقي وراء طردها؟ أم أنها لفَّقت رواية أخرى، تخدع بها أخاها وأختها؟ لقد كَرِهت أن أذكرها بأنها ابنة عائلة متواضعة في «سنزوكو»، بل إنها عاملتهم على أنهم جهلة، ولم تزرهم قط. ما هي الإجراءات التي ستتخذها هذه العائلة المتنافرة لتصحيح الوضع؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيطلب منها أخوها وأختها أن تعود لتعتذر لي. لكنها ستقف في عناد، وتقول: «لن أعتذر، ليذهب أحد لإحضار حقائبي». ثم تمازحهم، وتحادثهم، بعبارات إنجليزية، وتريهم ملابسها الراقية، وكأن الأمر لا يعنيها في شيء. وسوف تختال في مشيتها كأميرة تزور أحياء الفقراء...

لكن، إياً كان الذي تقوله ناوومي، فإن ما حدث قد حدث، ولا بد أن يأتي أحد أفراد أسرتها إلى هنا. فلو أنها رفضت الإعتذار، فإن أخاها أو أختها سوف يأتي بدلاً منها... أو هل من الممكن ألا يبدي أحد في أسرتها اهتماماً بما حدث لها؟ فقد كانت باردة المشاعر تجاههم، كما أنهم تخلّوا عن تحمل مسؤوليتها، وقالوا عندما أعطوها لي، وهي في الخامسة عشرة من عمرها: «سوف نترك كل شيء لك». كان تصرفهم يعني أن لي مطلق الحرية في التصرّف كما أشاء معها. فهل تخلّوا عنها مرة أخرى، وتركوها تفعل ما تريد؟ لكنهم سوف يأتون لطلب أشيائها، أليس كذلك؟ لقد قلت لها: «أرسلي أحداً بمجرَّد وصولك إلى هناك، وسوف أعطيه كل شيء». ولكن لم يأت أحد. ماذا يعني ذلك؟ لقد أخذت معها بعض الثياب. لكنها تركت أفضل ما في خزانتها، وهي أشياء ثمينة بالنسبة لها، أكثر من أي شيء آخر. إنها لن تمكث طوال اليوم في ذلك البيت القذر في «سنزوكو»، لكنها ستقوم بالتجوّل يومياً، لتذهل الجيران بثيابها الأنيقة. سوف تحتاج إلى ملابسها أكثر من أي وقت آخر، ولن تتحمَّل البقاء بدونها...

انتظرت، ولكن أحداً لم يأت في تلك الليلة. لم أكن قد أضأت الأنوار، رغم الظلام الدامس بالخارج. خفت أن يعتقد الناس أنه لا يوجد أحد في المنزل، فاندفعت أضيء أنوار جميع الحجرات، وذهبت لأتأكّد من أن اللوحة المكتوب عليها اسمي ما تزال معلّقة على البوابة. ثم وضعت مقعداً بجانب الباب لأسمع وقع الأقدام في الخارج. مرت الساعات ـ الثامنة، ثم التاسعة، العاشرة، الحادية عشرة، وانقضى اليوم، ولم يأت أحد. غرق

قلبي في أعماق التشاؤم، وتزاحمت كل أنواع الظنون في ذهني. ربما لم ترسل أحداً لأنها لم تول الحادث أية أهمية، وظنت أنه يمكن تسوية كل شيء في غضون بضعة أيام. من المحتمل أنها تعتقد أنه «ليس هناك ما يدعو للقلق، فهو يحبني، ولا يمكن أن يعيش يوماً بدوني، وسوف يأتي ليعيدني إلى البيت». فقد تعودت على الحياة المرفهة، ولن تستطيع العيش وسط أولئك الناس. وبالإضافة إلى ذلك، فليس هناك رجل آخر بوسعها الذهاب إليه، يستطيع تدليلها وإطلاق بدها، كما فعلت معها. إنها تعي ذلك تماماً. ونظراً لأنها مخادعة، فسوف تعتمد عليّ لأطلب منها العودة. أو ربما سيأتي أخوها، أو أختها صباح غد للوساطة بيننا. إنهما منهمكان في العمل أثناء الليل، وربما لا يستطيعان الإفلات منه حتى طلوع الصباح. كان عدم قدوم أحد، على أية حال، بمثابة بصيص أمل. فإن لم يأت أحد غداً، فسوف أذهب لأحضرها. فليس هناك ما يدعو للعناد، أو القلق فيما قد يفكّر فيه الناس. إن العناد هو الذي ورّطني في كل ما حدث. لن أهتم إذا سخر أهلها مني، أو شعرت هي بضعفي، سوف أذهب، وأقدِّم بالغ اعتذاري، وأطلب من أخيها وأختها أن يتدخّلا من أجلي، وأرجوها مليون مرة أن تعود معي. وربما تنقذ ماء وجهي وتعود معي وهي منتصرة.

قضيت الليلة في أرق، وانتظرت حتى السادسة من مساء اليوم التالي، ولكن لم يأت أحد. اندفعت من المنزل، بعد أن انهار صمودي، وهرعت إلى «أساكوسا». لم أستطع الانتظار. فكل شيء سيصبح على مايرام إذا ما رأيت وجهها! تلخص عبارة «مفعم بالحب» حالتي في تلك اللحظة، لم يكن هناك مكان في قلبي لأي شيء سوى الرغبة في رؤيتها.

كانت الساعة في حدود السابعة مساء حين وصلت إلى البيت الكائن وسط أزقة «سنزوكو»، خلف حديقة ملاهي «هانا‌ياشيكي». فتحت الباب وقلت بصوت رقيق، وأنا أقف عند المدخل: «لقد جئت من أوموري، هل ناوومي هنا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت أختها، وهي تبرز برأسها من حجرة الانتظار:

ـ آه. السيد كاواي. تقول ناوومي؟ لا، إنها ليست هنا.

ـ أمر غريب. لا بد أن تكون هنا. لقد غادرت البيت ليلة أمس، وقالت إنها ستأتي إلى هنا. . .

- ٢١ -

شككت، في بداية الأمر، أن أختها تتبع تعليماتها، وتخفيها عني. جرَّبت عدة طرق مختلفة، ولكن بدا واضحاً أنها لم تكن موجودة. قلت لها:

ـ أمر في غاية الغرابة. إنّها كانت تحمل الكثير من الأمتعة، ولا تستطيع الذهاب إلى مكان آخر.

ـ أمتعة؟

ـ نعم، سلة، حقيبة، وبعض الصرر، لقد حملت أشياء كثيرة معها. الحقيقة أننا تشاجرنا أمس على شيء سخيف.

ـ وحين وصلت، قالت إنها ستأتي إلى هنا؟

ـ لا. أنا الذي قلت لها أن تذهب مباشرة إلى «أساكوسا»، وترسل أحداً إلى البيت. إعتقدت أنه إذا جاء أحدكم، فسوف يتفهَّم الأمر.

ـ فهمت... لكنها لم تأت. في ظل هذه الظروف، كان ينبغي أن تأتي قبل مرور كل ذلك الوقت، بالطبع، ولكن...

ـ لست متأكِّداً من رحيلها ليلة أمس. إذا كنت تعرفين مكاناً آخر تكون قد ذهبت إليه، فأرجو أن تبحثي عنها فيه. وبما أنها لم تحضر حتى الآن، فمن المحتمل أنها لن تأتي إلى هنا..

قال أخوها، الذي ظهر ونحن نتحدَّث:

ـ إن ناوومي لم تأت إلى هنا منذ فترة طويلة. إننا لم نرها منذ شهرين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أنا آسف لأنني سبَّبت لكما المتاعب، ولكن إذا ما جاءت، فأرجوكما أن تحيطاني علماً في الحال، مهما كان ما ستقوله.

ـ سنفعل بالتأكيد، فليس لدينا أي شيء نفعله من أجلها. إذا جاءت، فسوف نخبرك.

جلست في الصالة عند المدخل أحتسي الشاي الذي قدّماه لي. لم أعرف ماذا أفعل، ولكن لم يكن هناك أمل في أن يشاركني همي أناس لم يظهروا أي اهتمام عندما أبلغتهما بأن أختهما قد تركت البيت. طلبت منهما مرة أخرى ألا يضيِّعا أي وقت إذا ما ظهرت، وأن يتصلا بي في المكتب إذا جاءت أثناء النهار. وإذا لم يجداني، فقد كنت أترك العمل من وقت لآخر في الأيام الأخيرة، فما عليهم سوى إرسال برقية إليّ في «أوموري». وألا يتركاها ترحل، فسوف آتي في الحال. ورغم أنني كرَّرت عليهما مطالبي بالتفصيل، شعرت بأنني لا أستطيع الاعتماد عليهما. وللتأكيد أعطيتهما رقم هاتف مكتبي، وكتبت لهما عنوان البيت في أوموري. ولم أندهش لكونهما لا يعرفانه حتى الآن.

فكَّرت فيما عساي أن أفعل. إلى أين أذهب؟ شعرت بقسمات وجهي مقطّبة، مثل رضيع على وشك البكاء. خرجت من أزقة «سنزوكو» وأنا لا أعرف إلى أين سأذهب. تجوّلت حول الحديقة في «أساكوسا»، وأخذت أفكِّر. إذا لم تكن قد عادت إلى أهلها، فإن الموقف أصبح أخطر مما كنت أتوقع. قلت لنفسي: لا بد وأنها قد هربت إلى حيث يقيم كوماچي. ثم تذكَّرت ما قالته أمس: «بعض الأشياء سأحتاج إليها في الحال». لقد حملت معها الكثير من الأمتعة، لأنها كانت تخطِّط للذهاب إلى بيت كوماچي. من المحتمل أن الإثنين قد خطَّطا لما يفعلانه عندما يحين الوقت. لو أن هذا ما حدث، فإن الوضع سيكون صعباً. فأنا لا أعرف، أولاً، المكان الذي يقيم فيه كوماچي، ولكن من المحتمل أن أعثر عليه، ومن المؤكَّد أنه لن

يكون بوسعه إيواءها في بيت أبويه. إنه سيء، لكن أبويه من أولئك الناس الذين يتمتعون بقدر من الأهمية، ولن يسمحا له بالخروج مع امرأة سيِّئة السلوك. ولكن إذا ترك البيت، هو أيضاً، وأقام في مكان غير معروف معها؟ ربما يهرب ومعه بعض مال أبويه، ويتمتع الإثنان بتمضية وقت طيِّب. لو حدث ذلك، فإنه يجب أن أتأكَّد أن أبويه يعرفان تماماً ما حدث. عندئذ أستطيع أن أتحدّث معهما، وأجعلهما يتدخلان في الموضوع. وحتى إذا لم يصغ كوماچي لهما، فإنه لن يستطيع مواصلة الإقامة مع ناوومي بدون مال. سيعود إلى البيت، وسترجع هي إليّ. ذلك ما سيحدث في نهاية المطاف، ولكن ماذا عن معاناتي خلال تلك الفترة؟ هل ستستغرق شهراً؟ شهرين؟ ثلاثة؟ ماذا يحدث إذا ما استغرقت ستة أشهر؟ ستكون كارثة. كلما مرَّ الوقت سيكون من الصعب عليها العودة. وربما تتورَّط في علاقة مع رجل ثانٍ، وثالث. ليس هناكَ وقت للتردّد. إن انفصالي عنها بهذا الشكل يضعف الرابطة بيننا. إنها تبتعد أكثر مع كل لحظة تمر. هلم إلى العمل! لا تجعلها تبتعد! ومهما يكن، فسوف أعود بها! يجب أن أصلي إلى الله في هذا الوقت العصيب. لم أكن قط شديد التديّن، ولكنني تذكرت فجأة المكان الذي أتجوَّل فيه، فتوجهت إلى معبد «كانون». دعوت الله، من كل قلبي، أن أعرف بأسرع وقت ممكن مكان ناوومي، وأن تعود معي. ليس غداً لأن الغد بعيد.

سرت بلا صدى، بعد ذلك، وتوقفت أمام حانتين أو ثلاث، وثملت تماماً. عدت إلى أوموري بعد منتصف الليل. لم أستطع إبعاد ناوومي عن ذهني رغم أنني كنت ثملاً. بدأت أفكِّر من جديد، بعد أن تلاشى تأثير «الساكي». كيف أستطيع تحديد مكانها؟ هل هربت فعلاً مع كوماچي؟ سيكون تسرّعاً مني إذا تحدثت مع أبويه قبل أن أتأكَّد من ذلك. ولكن ليست هناك طريقة أتأكَّد بها دون أن أستأجر مخبراً خاصاً. كنت قد تعبت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من التفكير، حين تذكرت هامادا. نعم، هامادا، بالطبع. لقد نسيته تماماً. إنه سيقف إلى جانبي. لقد أعطاني عنوانه، عندما جلسنا في مطعم «ماتسواسا». سأكتب إليه غداً. لا، إن الرسالة سيستغرق وصولها وقتاً طويلاً. هل أبعث ببرقية؟ ستكون تلك الوسيلة مبالغة مني. ربما يكون لديه هاتف. هل أتصل به، وأطلب منه الحضور؟ لا، إنه خلال الوقت الذي سيستغرقه للقدوم، بإمكانه البحث عن كوماجي. إن أهم ما يعنيني الآن هو معرفة تحركاته وبوسع هامادا، بما يتمتع به من علاقات، أن يوافيني ببعض المعلومات بسرعة. إنه الآن الشخص الوحيد الذي يتفهَّم معاناتي، والقادر على مساعدتي.

نهضت من الفراش مسرعاً، في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، وهرعت إلى أقرب هاتف عمومي. تمكّنت، لحسن الحظ، من العثور على اسم عائلة هامادا في الدليل.

قالت الخادمة، التي ردَّت على الهاتف:

ـ السيد الصغير؟ أخشى أنه مايزال نائماً...

ـ أنا في غاية الأسف. ولكنها حالة طارئة، هل من الممكن أن توقظيه؟

جاءني صوت هامادا، بعد بضع دقائق، وقال بصوت أجش من تأثير النوم:

ـ أهذا السيد كاواي من أوموري؟

ـ نعم. أنا آسف لإزعاجك في هذه الساعة المبكرة، ولكن في الحقيقة أن ناوومي قد رحلت، و...

كان هناك نشيج في صوتي، حين قلت «لقد رحلت ناوومي». كما أننا كنا في الشتاء، وقد خرجت من المنزل مندفعاً في الصباح الباكر، وقد

ارتديت رداء خفيفاً فقط فوق منامتي. كنت أرتجف وأنا ممسك بسمّاعة الهاتف. قال بهدوء أثار انزعاجي:

ـ الآنسة ناوومي؟ إذن فقد تركتك فعلاً؟

ـ أتعني أنك كنت تعرف؟

ـ لقد قابلتها الليلة الماضية.

ـ ماذا تقول؟ ناوومي؟ قابلتها الليلة الماضية؟

ـ لقد ذهبت إلى حفلة راقصة في «ألدورادو» الليلة الماضية، ووجدتها هناك. لم أسمع شيئاً عما حدث، لكنها كانت تتصرَّف بطريقة غريبة، وانتابتني الشكوك بأن شيئاً قد حدث.

ـ من الذي كان يرافقها؟ أكان كوماچي؟

ـ ليس كوماچي فقط. بل إنها كانت مع خمسة أو ستة رجال، من بينهم رجل غربي.

ـ غربي؟

ـ نعم. وكانت ترتدي ثياباً غربية رائعة.

ـ لكنها لم تحمل معها أية ثياب غربية، حين تركتْ البيت...

ـ ولكن هذا ما رأيته. لقد كانت ترتدي ثياباً غربية، فستان سهرة رائعاً.

وقفت جامداً، أمسك بسمَّاعة الهاتف، وقد انتابتني الحيرة، ولم تعد لديّ أية فكرة عما أسأله بعد ذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٢ -

قال هامادا، محاولاً إخراجي من صمتي، بعد فترة طويلة من السكون:

ـ ألو، ألو، ما الخطب يا سيد كاواي، ألو، ألو...

ـ نعم...

ـ سيد كاواي؟

ـ نعم...

ـ ما خطبك؟

ـ لا أعرف ما عساي أفعل.

ـ ولكن بحث الأمر على الهاتف، لن يجدي.

ـ أدري، ولكن... أصغ يا هامادا. لقد شُلّ تفكيري. لا أعرف إلى أين أتجه. إنني أعاني كثيراً، ولم أستطع النوم منذ تركتني.

أضفت، وأنا أحاول استخدام عبارات تثير شفقة هامادا:

ـ ليس هناك أحد، يا هامادا، أستطيع الركون إليه. إنني في وضع حرج، ولكن... عليَّ أن أعثر على ناوومي، سواء كانت مع كوماچي، أو مع أي رجل آخر. أريد أن أتأكّد. أعرف أنها أنانية مني أن أسألك، ولكن هل أستطيع أن ألجأ إليك لتساعدني في العثور عليها... لديك علاقاتك، وأظن أن ذلك سيكون أفضل من أن أبحث عنها بمفردي.

قال هامادا:

ـ نعم، بإمكاني العثور عليها بسرعة. ولكن أليست لديك أية فكرة، يا سيد كاواي، عن المكان الذي يمكن أن تذهب إليه.

ـ أعتقد أنها مع كوماچي. لم أقل لأحد سواك، ولكن الحقيقة أنها ماتزال تراه خلسة. وحين اكتشفت ذلك تشاجرت معها، فتركت البيت.

ـ فهمت.

ـ ولكنك قلت إنها كانت مع رجل غربي، والكثير من الرجال الآخرين، وترتدي ملابس غريبة. لا أدري في أي اتجاه أفكّر. ربما قد تتكوّن لديك فكرة عامة عما يحدث، إذا ما ذهبت لرؤية كوماچي.

رد هامادا، كما لو أنه يريد وضع حد لعذابي:

ـ نعم سأفعل. سأحاول العثور على أي شيء.

ـ هل من الممكن أن تفعل ذلك بسرعة؟ سوف تحقّق لي راحة كبيرة إذا ما تمكّنت من معرفة شيء اليوم، لو كان ممكناً.

ـ نعم، محتمل أن أتوصّل لشيء في غضون هذا اليوم. أين أستطيع العثور عليك؟ أما زلت بالشركة في«أويماشي».

ـ لا، لم أعد أذهب إلى العمل منذ أن حدثت هذه الأمور. أحاول البقاء في البيت، على أمل أن تعود ناوومي. أعرف أنني قد أكون أنانياً. ولكن من غير المناسب استخدام الهاتف، فالأفضل أن أراك، إذا كان ذلك ممكناً. هل بوسعك أن تأتي إلى «أوموري» حين تصل إلى شيء؟

ـ نعم، فليس لديّ أي شيء آخر أفعله.

ـ آه.. شكراً لك. سأكون ممتناً إذا ما فعلت ذلك!

أصبحت مضطراً الآن أن أنتظر حتى يأتي، وستبدو كل ثانية تمر كأنها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دهر. ازداد قلقي بشكل أكبر عن ذي قبل، فأضفت:

ـ متى يمكن أن تـأتي، على مـا تظن؟ هـل تعتقد أنـه سيكون بـإمكانـك الحصول على شيء بحلول الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر؟

ـ أعتقـد ذلـك، ولكني لن أكـون متـأكِّـداً، حتى أذهب وأرى بنفسي. سأبذل كل ما في وسعي، ولكن قد يستغرق الأمر يومين أو ثلاثة أيام.

ـ لـ . . . ليكن. سواء كان غداً أو بعد غـد، سأنتـظر في البيت إلى أن تأتي.

ـ إذن سنتحدّث في الأمر بإسهاب حين أراك. إلى اللقاء.

صحت مذعوراً، حين بدا أنه على وشك أن ينهي المكالمة:

ـ آلو، آلو. ثمة أمر آخر. إن كل هذا سيعتمد على كيفية تطور الأمور، ولكن إذا ما رأيت ناوومي، وأتيحت لك فرصة التحدث معهـا، فهناك مـا أريدك أن تقوله لها. أرجوك أن تخبرها أنني لا أدينها لما فعلته، وأعـرف أنني أستحق اللوم، أنا الآخر، على ما حدث. سوف أعتذر لها عـما ارتكبته من أخـطاء، وسأقبـل أية شروط، وسـأنسى كـل شيء إذا مـا عـادت. أمـا إذا رفضت، فاطلب منها أن تقابلني مرة واحدة فقط.

كنت أريـد أن أضيف بعد «سـأقبل أيـة شروط»، إنها إذا ما طلبت مني أن أحبو، فسوف يسعدني ذلك. وإذا طلبت أن أضع جبهتي على الأرض، سأفعل. وسأقوم بأي شيء يعبِّر عن اعتذاري، ولكني لم أستطع، بالطبـع، قول ذلك لهامادا.

ـ قل لها أيضاً إنني أحبها كثيراً.

ـ سأقول لها إذا ما أتيحت الفرصة.

ـ تعرف أنها عنيدة، وقد ترغب فعلاً في العودة، لكنهـا ستكابـر. إذا ما

حدث ذلك، أخبرها عما أعانيه من يأس وقنوط. ستفعل خيراً إذا ما استطعت أن تجعلها تأتي معك.

ـ سأرى. لا أستطيع أن أضمن تحقيق ذلك، لكني سأفعل ما أستطيع.

بدا هامادا وقد ضاق ذرعاً من إلحاحي، لكني واصلت التحدث حتى نفدت كل العملات المعدنية معي. من المرجح أن هذه هي المرة الأولى في حياتي، التي أتحدّث فيها بطلاقة، ودون خجل، وبصوت متهدِّج.

شعرت بأنني لن أستطيع انتظار قدوم هامادا، بعد أن أنهيت مكالمتي الهاتفية معه. فقد قال إنه من المحتمل أن يأتي اليوم، ولكن ماذا يحدث إن لم يأت؟ أو ماذا يمكن أن أفعل إذا لم يأت اليوم؟ فباستثناء شوقي إلى ناوومي، ليس هناك أي شيء يجعلني مشغولاً طوال الوقت. فأنا لست قادراً على القيام بأي شيء. وسيتعيّن عليّ البقاء في المنزل مكتوف اليدين، غير قادر على النوم، أو الأكل، أو الخروج، لأنتظر شخصاً غريباً يقوم بتحرياته نيابة عني، ثم يقدِّم لي تقريره. ليس هناك شيء أسوأ من عدم القيام بأي شيء، بل والأدهى من ذلك أنني أشعر بحنين جارف لناوومي، يجعلني أعتقد أنني سأموت. وقد وضعت مصيري، مجبراً، في يد آخر، وعليّ أن انتظر، وأحدِّق في عقربي الساعة. يمر الوقت ببطء يثير الدهشة. بل إن الدقيقة تبدو وكأنها دهر. وتتكرّر تلك الدقيقة ستين مرة، لتنقضي في النهاية ساعة واحدة. وتتكرر مائة وعشرين مرة لتنقضي ساعتان. وإذا ما انتظرت ثلاث ساعات، فعليّ أن أتحمّل مائة وثمانين دقيقة مملّة، مائة وثمانين حركة عقرب! إذا لم تكن ثلاث ساعات، بل أربعاً أو خمساً، أو نصف يوم، أو يوم، أو يومين، أو ثلاثة أيام، فمن المؤكّد أن نفاد الصبر والحنين سيصيبانني بالجنون.

مع ذلك، فقد رأيت أن هامادا لن يأتي قبل حلول المساء على أقل تقدير، وأعددت نفسي للانتظار. ولكن عند الظهر، أي بعد أربع ساعات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من محادثته هاتفياً، دق جرس الباب الأمامي، ودهشت حين تناهى إلى مسامعي صوت هامادا. نهضت واقفاً وقد غمرني الفرح، وهرعت نحو الباب لأفتحه.

قلت، وكلي انفعال:

ـ سأفتح الباب في الحال. إنه موصد.

لم أكن أظن أنه سيأتي بهذه السرعة. ربما تمكّن من رؤية ناوومي، ومن المحتمل أنها تفهّمت الموقف، حين التقاها، وجاءت معه. شعرت بموجة أكبر من الفرح تجتاحني عندما فكّرت في ذلك. خفق قلبي توقعاً لرؤيتها.

تطلعت باشتياق، حين انفتح الباب، معتقداً أنها قد تكون واقفة خلفه ولكن لم يكن هناك أحد غيره.

قلت له:

ـ آسف لما سبّبته لك من انزعاج هذا الصباح. ما الذي توصّلت إليه؟

كان هامادا رابط الجأش، بصورة تدعو للانزعاج، وهو يحدِّق فيّ بإشفاق. قال، وهو يهز رأسه مؤكّداً:

ـ نعم، لقد توصّلت إلى شيء. ولكن لم يعد هناك أي أمل فيها يا سيد كاواي.

ـ ما... ماذا تعني؟

ـ لقد تفاقمت الأمور أكثر مما كنت تخشى. أعتقد أنه من مصلحتك أن تبعد ناوومي عن تفكيرك الآن.

ـ هل قابلتها إذن؟ تحدثت معها، ووجدت أنه لا أمل في عودتها.

ـ لا. لم أقابلها. ذهبت إلى كوماچي، وسمعت القصة برمتها منه. إنه أمر يدعو للأسف. لقد صُدمت.

ـ ولكن أين ناوومي، يا هامادا؟ ذلك ما أريد أن أسمعه أولاً.

ـ إنها ليست في مكان واحد. إنها تنتقل من مكان إلى آخر.

ـ ولكن هل من الممكن أن تكون هناك أماكن عديدة لتقيم فيها؟

ـ إنها تعرف العديد من الأصدقاء، لا تعرف أنت عنهم شيئاً. في البداية، أي في اليوم الذي تشاجرتما فيه، ذهبت إلى بيت كوماچي. كان الأمر سيسير على مايرام إذا ما حادثته أولاً هاتفياً، ثم اتجهت إلى بيته سراً، لكنها توقفت أمام الباب الأمامي في سيارة محمَّلة بالأمتعة. يقع بيته في منطقة مكتظة بالسكان، فراح الكل يسأل: «من تكون هذه المرأة؟». ولم يستطع كوماچي أن يحسن استقبالها، بل إنه كان في غاية الارتباك.

ـ حقاً؟ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ كل ما استطاعا فعله هو إخفاء أشيائها في حجرته، ثم تركا البيت معاً، وذهبا إلى خان سيء السمعة. ومما يزيد الطين بلّة، أنه خان يقع في أوموري، بالقرب من بيتك. وقال إنه الخان نفسه الذي نزل فيه صباح ذلك اليوم، الذي شاهدتهما فيه. يا لها من وقاحة!

ـ ذهبا إليه مرة أخرى في اليوم نفسه؟

ـ ذلك ما قاله. إنه يتحدث بسرور عن نفسه، ويثرثر بطيش. لقد شعرت بالاشمئزاز، عندما سمعت ما قاله:

ـ لقد قضيا الليل هناك معاً، أليس كذلك؟

ـ لا. لقد مكثا حتى المساء، على حد قوله. ثم قاما بجولة معاً في حي «جنزا» وافترقا عند تقاطع «أواريشو».

ـ ولكن ذلك قد لا يكون صحيحاً. لا بد وأن كوماچي يكذب.

ـ لا، أصغ إلى بقية القصة! شعر كوماچي بالأسف من أجلها حين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

افترقا. فسألها: «أين ستقضين الليلة؟». فقالت له: «لدي العديد من الأماكن. سأذهب إلى يوكوهاما الآن». لم تكن تبدو حزينة على الإطلاق.

وسارت باتجاه محطة «شيمباشي».

ـ مَن الذي تعرفه في يوكوهاما؟

ـ ذلك هو الجزء الغريب في القصة. ظن كوماچي أنها قد تعود إلى أوموري. فقد يكون لديها أصدقاء عديدون فيها، ولكن من المؤكّد أنه ليس هناك مكان بوسعها الإقامة فيه في يوكوهاما. ولكنها حادثته هاتفياً في مساء اليوم التالي، وقالت له: «إنني في «ألدورادو». لِمَ لا تأتي؟» وحين ذهب إلى هناك، وجدها ترتدي فستان سهرة رائعاً، وتمسك بمروحة من ريش الطاووس، ويزدان جيدها بالعقود، ومعصمها، بالأساور، وتمرح مع رجل غربي، ومجموعة من الرجال الآخرين.

كانت رواية هامادا مثل عفريت العلبة ـ حقيقة مذهلة وراء أخرى. باختصار، فقد قضت ناوومي ليلتها الأولى في بيت الرجل الغربي، الذي يدعى «ويليام ماكونيل» وهو الرجل الوقح، الأنيق، الذي يضع مساحيق بيضاء على وجهه، والذي تقدم إلى ناوومي بدون أي معرفة، وأجبرها على الرقص معه، في المرة الأولى التي ذهبنا فيها إلى «الدورادو». لكن الأمر المذهل، وفقاً لما لاحظه كوماچي، هو أن ناوومي لم تكن على علاقة صداقة مع ماكونيل حتى الليلة التي ذهبت فيها إليه، ولكن يبدو أنها قد اهتمت به سرّاً لفترة من الوقت. فهو يتمتع بوجه تحبه النساء، وثمة أمر ما في هيئته يعكس طبيعة هادئة وروحاً تمثيلية. وقد أطلق عليه المتردِّدون على المرقص لقب «ذئب الغرب». بل إن ناوومي نفسها قالت عنه «إنه يتمتع بوجه حسن، ويبدو مثل جون باري. وتعني بـ «جون باري»، جون باريمور، الممثّل الأميركي الشهير، الذي شاهدنا له أفلاماً في السينما. لا بد وأنه قد أثار اهتمامها. وربما قد أدامت النظر إليه، وحين أدرك أنها تميل

إليه، أخذ يغازلها، ورغم أنه لم يكن هناك أي شيء بينهما أكثر من ذلك، فقد توجهت إلى بيته من دون دعوة. ومن المرجح أنه ظن، حين ظهرت أمامه، أن طائراً فاتناً قد وقع. وعندما سألها: «ألن تقضي الليلة في بيتي؟» أجابته: «بلى، ليس لديّ مانع أن أقضيها معك».

ـ ولكن من الصعب تصديق ذلك. أن تذهب إلى رجل لا تعرفه، وتقضي الليل معه.

ـ ولكن يبدو، يا سيد كاواي، أن الآنسة ناوومي لا تهتم بذلك. ولا بد وأن ماكونيل استغرب تصرفها، هو الآخر، لأنه سأل كوماچي ليلة أمس:

«من تكون هذه الفتاة؟»

ـ قد يطرح أي شخص التساؤل ذاته عن رجل يستضيف امرأة لا يعرف عنها شيئاً.

ـ إنه لم يستضفها فقط، بل ألبسها ثياباً غربية، وعقوداً وأساور. وهو ما يعكس مدى إفراطه. وبعد ليلة واحدة فقط، تعوّدت الظهور معه، وتناديه باسم «ويلي».

ـ هل تفترض أنها طلبت منه أن يبتاع لها الفستان والمجوهرات؟

ـ لقد سمعت أنه ابتاع لها جزءاً من ثيابها، واقترض الباقي من امرأة غربية يعرفها. ومن المحتمل جداً أن يكون الأمر قد بدأ بأن لاطفته الآنسة ناوومي، وقالت له إنها تريد تجربة ارتداء الثياب الغربية. مع ذلك كان الفستان متناسباً معها، وعلى مقاسها تماماً. وقد انتعلت حذاء فرنسياً عالي الكعب، مزداناً بأحجار كريمة صغيرة متلألئة، ربما حجر الراين أو شيء شبيه به. لقد بدت مثل سندريلا.

خفق فؤادي، حين فكّرت في مدى جمال سندريلا ـ ناوومي، لكني، في اللحظة التالية، دُهشت من مدى فسوقها، وانتابني شعور لا يمكن وصفه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هو خليط من البؤس، الآسف، والخزي. لقد تصرفت تصرفات مخلّة مع كوماچي، والآن فإنها تهرب إلى رجل غربي لا تعرف عنه شيئاً، وتقيم معه ليلة، وتجعله يبتاع لها الثياب. هل هذا تصرّف امرأة كانت تربطها علاقة زوجية حتى أمس؟ هل ناوومي التي عشت معها كل تلك السنوات، فاسقة إلى هذا الحد؟ هل كنت أعيش حلماً أحمق حتى هذه اللحظة؟ هل أراها في نهاية المطاف في شكلها الحقيقي؟ إن هامادا على صواب. ومهما كان حنيني إليها، فينبغي عليّ أن أهجرها. لقد أهانتني، ومرّغت كرامتي كرجل في الطين.

ـ أعرف يا هامادا أنني أثقلت عليك، لكني أريد التأكّد مما قلته. هل كل ما قلته حقيقي؟ ليس كوماچي فقط، بل أنت أيضاً؟ هل تؤكّد لي ذلك؟

أومأ هامادا بتعاطف، بعد أن رأى الدموع تنهمر من عيني، وقال:

ـ أتفهّم شعورك، وهذا يزيد من صعوبة الأمر، لكني كنت هناك ليلة أمس أيضاً، وأعتقد أن ما قاله كوماچي صحيح. هناك أمور أخرى كثيرة بإمكاني قولها، ولكن أرجوك أن تحاول تصديقي، بدون سماع البقية. أرجوك أن تصدّق أنني لا أتسلّى بالمبالغة في ذكر الحقائق.

ـ أشكرك. ذلك كل ما أريد سماعه. لا يتعيّن عليك أن...

لم أعرف ما حدث، لكن الكلمات انحبست في حلقي، وراحت دموع غزيرة تنهمر من مقلتي. احتضنت هامادا على نحو مفاجيء، ودفعت وجهي في كتفه، ثم أخذت أبكي، وأنا أقول:

ـ يا هامادا، لقد... لقد هجرتها! الآن! تماماً!

قال هامادا بصوت متهدّج هو الآخر:

ـ قلت ما ينبغي قوله. لقد جئت إلى هنا اليوم، في الحقيقة، لأنصحك.

ليس هناك أمل في ناوومي الآن. وكونها من هذا النوع، فإنها قد تعود إلى هنا مرة أخرى، وكأن شيئاً لم يكن، ولكن في الواقع لم يعد أحد يعاملها كإنسانة. يقول كوماچي إن الجميع يعاملونها كلعبة، وقد أطلقوا عليها لقباً لا يمكن ذكره، لقد ألحقت بك الخزي مراراً ومن وراء ظهرك.

لقد أحب هامادا ناوومي بالعاطفة نفسها، التي شعرت بها، وقد رفضته، مثلي. والآن فإن لكلمات هذا الشاب، المفعمة بالسخط، والشفقة النابعة من القلب عليّ، تأثيراً يماثل تأثير مشرط حاد يقطع بروزاً من اللحم الفاسد. إنهم يعاملونها كلعبة، ومنحوها لقباً لا يمكن ذكره. لقد منحتني كل هذه المعلومات حياة جديدة، فقد خفّت كتفاي مرة أخرى، كما لو أنني شفيت من مرض، وتوقفت دموعي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٣ -

قال هامادا، للتخفيف عني:

ـ يجب ألا تبقى داخل البيت، يا سيد كاواي. ما رأيك في أن نتمشّى معاً؟

ـ ليكن. انتظرني دقيقة!

لم أكن قد غسلت فمي، أو حلقت ذقني منذ يومين. استخدمت موسي الحلاقة، وغسلت وجهي، وخرجت مع هامادا في حدود الساعة الثانية والنصف، بعد أن شعرت بالانتعاش.

قال هامادا:

ـ الوقت مناسب الآن لأن نسير في شوارع الضاحية.

ولما وافقته، نظر نحو «ايكيجامي» وسألني:

ـ هل تمشي في هذا الطريق، إذن؟

تجمَّدت في مكاني، وقد انتابني إحساس بالاشمئزاز، وقلت له:

ـ ليس في ذلك الطريق.

ـ لِمَ؟

ـ إن الخان الذي تحدثت عنه لتوّك يقع في ذلك الاتجاه.

ـ آه، يا إلهي! أي طريق سنسلك، إذن؟ أتتجه مباشرة إلى الشاطىء، ونسير باتجاه كاواساكي؟

ـ نعم، ليكن. سيكون ذلك أكثر أماناً.

استدار هامادا، وبدأ يتجه نحو المحطة، لكني أدركت عندئذ أن هذا الاتجاه الجديد قد يكون محفوفاً بالخطر. فإذا كانت ناوومي ماتزال تذهب إلى خان «دايبريك» فقد تظهر مع كوماچي في أية لحظة، أو قد تكون في الطريق بين طوكيو ويوكوهاما، مع ذلك الأجنبي القذر. وفي كلتا الحالتين، فإنه ينبغي تجنّب خط القطار الكهربائي القومي.

تقدمت هامادا، وقلت له بطريقة عارضة، وأنا أنعطف إلى شارع جانبي، حتى نعبر خط السكك الحديدية، ثم إلى وسط حقول الأرز:

ـ لقد جعلتك تتعرّض لمتاعب كثيرة اليوم.

ـ إطلاقاً. لقد أحسست بأن مثل هذا الأمر سوف يقع إن عاجلاً أو آجلاً.

ـ كنت أبدو أضحوكة، من وجهة نظرك.

ـ لكني كنت أضحوكة أنا أيضاً، لفترة من الوقت. لم يكن هناك ما يدعوني لأسخر منك. بل إنني شعرت بالأسف من أجلك، حين عدت لرباطة جأشي.

ـ الأمر سيان بالنسبة لك. فأنت ماتزال شاباً. لكنه سخيف بالنسبة لرجل في الثلاثينيات، يتصرّف كالأبله. وإن لم توضح لي ما يحدث، كنت سأستمر على النهج نفسه.

حين خرجنا إلى الحقول، كانت سماء أواخر الخريف عالية وصافية، كما لو أنها تخفّف عني، لكن طرفي عيني، اللتين كانتا ما تزالان حمراوين من تأثير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البكاء، جعلاني أشعر بوخز الرياح. راح القطار الكهربائي البغيض، يصفر، في البعيد.

سألت هامادا، بعد أن سرنا صامتين لفترة من الوقت:

ـ هل تناولت غداءك، يا هامادا؟

ـ لا، ليس بعد. وأنت؟

ـ لقد احتسيت قليلاً من «الساكي»، لكني لم أتناول أي طعام منذ أمس الأول، إنني أتضوّر جوعاً.

ـ كان ينبغي أن أفكّر في ذلك. يجب أن تعتني بنفسك، فمن السهل أن تصاب بالمرض.

ـ لا عليك. لقد رأيت النور، بفضلك. سوف أعتني بنفسي. وسأكون رجلاً جديداً، من الغد. وسأعود إلى العمل مرة أخرى.

ـ نعم، هذا يساعد على عدم التفكير في تلك الأمور. كنت أريد أن أنسى، عندما مررت بهذه التجربة، فكرّست نفسي للموسيقى.

ـ رائع أن يستطيع المرء عزف الموسيقى في أوقات كهذه. إنني لا أمتلك أية مواهب موسيقية. باستطاعتي العمل فقط. لا بد أنك جائع، على أية حال. هل نذهب لتناول الطعام في مكان ما؟

سرنا، حتى وصلنا إلى نهر «روكوجو» ونحن نتحدث، وقبل مرور وقت طويل، كنا في أحد مطاعم كاواساكي، وبيننا قدر يغلي. تبادلنا كؤوس الساكي، كما فعلنا في «ماتسواسا».

ـ تناول كأساً يا هامادا.

ـ سوف يضرّني إذا احتسيت الكثير منه ومعدتي خاوية.

ـ لا عليك. فقد تطهَّرت بالكامل الليلة. ساعدني كي أحتفل بذلك!

وسوف أتوقّف عن الشرب اعتباراً من غد. فهلم نثمل الليلة، ونتبادل الأحاديث.

ـ في تلك الحالة، لنشرب في نخب صحتك.

تورّد وجه هامادا، وبدأت بثراته تلمع كلحم مسلوق، وكنت قد ثملت تماماً، ولم أعد أعرف ما إذا كنت سعيداً أم حزيناً.

ملت على هامادا، بعد أن اخترت اللحظة بعناية، وقلت له:

ـ بالمناسبة يا هامادا، أريد أن أسألك، ما هو اللقب الفظيع، الذي أطلقوه على ناوومي؟

ـ لا، لا أستطيع قوله. إنه بشع.

ـ لا تهمني بشاعته، إنها لم تعد شيئاً بالنسبة لي، لذلك ليس هناك ما يدعو لإحجامك عن ذكره. أرجوك قل لي بماذا يلقّبونها! سأشعر بتحسن إذا ما عرفت.

ـ قد تتحسَّن، ولكني لا أستطيع قوله. سامحني أرجوك. وعلى أية حال، إذا فكّرت فيه، فسوف تستطيع تخمينه. بإمكاني أن أقول لك، مع ذلك، السبب الذي جعلها تستحق هذا اللقب.

ـ نعم، أرجوك أخبرني.

هرش رأسه في حيرة، وقال:

ـ ولكن يا سيد كاواي... آه يا عزيزي... إن السبب بشع هو الآخر. إنك لن تحب ما ستسمعه.

ـ لا عليك، لا عليك. أرجوك أخبرني! أريد أن أعرف بعض أسرارها فقط. إنه الفضول، ولا شيء أكثر من ذلك.

ـ حسناً، ليكن إذن. سوف أقص عليك القليل من حياتها السرية. كم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تظن عدد الرجال الذين أقامت علاقات معهم، حين كنتما في «كاماكورا» في الصيف الماضي؟

ـ أعرف أنها كانت على علاقة معك، ومع كوماچي فقط. أهناك شخص آخر؟

ـ لا تذهل يا سيد كاواي... هناك «سيكي» و«ناكامورا» أيضاً. شعرت، وأنا في هذه الحالة من الثمالة، كما لو أن صاعقة قد اخترقت جسمي. تجرّعت خمسة أو ستة كؤوس من الساكي قبل أن أقول:

ـ أتعني المجموعة برمّتها؟ كل واحد منها؟

ـ نعم. وأين تظن كانوا يلتقون؟

ـ في ڤيلاّ «أوكوبو»؟

ـ في كوخ صاحب المشتل، الذي استأجرتماه.

لم أستطع، للحظة، قول أي شيء رداً على ذلك، فقد الجمتني المفاجأة. قلت بصوت متهدّج، في نهاية المطاف:

ـ إنها حقاً مفاجأة.

ـ لقد عانت زوجة صاحب المشتل كثيراً في ذلك الوقت. لكنها لم تستطع طردهم، لأنها كانت مدينة لكوماچي. إلا أنها قلقت من الجيران، وما يمكن أن يفكّروا فيه، بعد أن تحوَّل بيتها إلى ماخور، يدخله رجال كثيرون في مختلف الأوقات، وقد خشيت مما قد يحدث عندما تكتشف الأمر.

ـ نعم، بالطبع. لقد فقدت توازنها حين سألتها عن ناوومي، وكانت في غاية العصبية. إذن، فقد تحوّل بيت «أوموري» إلى مكان لاجتماعاتكم السرية، بينما أصبح الكوخ ماخوراً، ولم أعرف أي شيء عما يجري. لقد خُدعت تماماً، أليس كذلك؟

ـ دعنا لا نتحدث، يا سيد كاواي، عن أوموري! أعتذر عما حدث.

ـ لا عليك. لقد انتهى كل شيء، ولم يلحق بي ضرر. ولكن من الغريب أن أُخدع بهذه المهارة. أي شخص سينبهر بمثل هذا الأسلوب المتقن.

ـ إنه يماثل قيام أحد مصارعي «السومو» بإلقاء مصارع آخر من فوق كتفه، أليس كذلك؟

ـ تماماً. وهل كانت ناوومي تناور على الجميع، حتى لا يعرف أحد ما تفعله مع الآخر؟

ـ لا. إنهم كانوا يعرفون، وأحياناً كان يلتقي منهم إثنان عند الباب.

ـ ألم يتشاجروا؟

ـ كان هناك اتفاق ضمني فيما بينهم. لقد اقتسموها. ومن هنا جاء اللقب الرهيب، الذي أطلقوه عليها من وراء ظهرها. من الأفضل ألا تعرفه، لكني أعرفه، وقد جعلني ذلك في حالة يرثى لها. لقد كنت أريد إنقاذها بطريقة ما، ولكن حين حاولت توجيه النصح لها، جنَّ جنونها، وسخرت مني. ولم يكن هناك شيء أستطيع أن أفعله.

استطرد هامادا بصوت متهدِّج:

ـ لم أخبرك بأشياء كثيرة، يا سيد كاواي، عندما جلسنا في مطعم «ماتسواسا»، أليس كذلك؟

ـ قلت إن كوماچي كان الوحيد الذي تمكَّن من السيطرة عليها.

ـ نعم قلت ذلك. لم أكن أكذب. كانا أكثر ارتباطاً، ربما لأنهما كانا الأكثر سوءاً. كوماچي زعيم العصابة. قلت ذلك لأنني أعتقد أنه يؤثِّر عليها أسوأ تأثير، ولم أستطع أن أقص عليك الباقي، فقد كنت ما أزال آمل أنك لن تتخلّى عنها، وأنك سترشدها إلى السراط المستقيم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ وبدلاً من أن أرشدها، دفعتني إلى الهاوية.

ـ ذلك ما يحدث لأي رجل يقف ضد الآنسة ناوومي.

ـ لهذه المرأة قوة غامضة سحرية، أليس كذلك؟

ـ نعم، قوة سحرية، لقد شعرت بها، وأدركت أنه ينبغي عليّ البقاء بعيداً عنها، وأنني سأتعرّض للخطر إذا اقتربت منها.

لم أعرف عدد المرّات التي تردّد فيها اسم ناوومي بيننا. لقد كان بمثابة فاتح الشهية بجانب كؤوس «الساكي». تلذّذنا بنعومة نطقه، ولعقناه مع لعابنا، ورفعناه إلى شفاهنا، كما لو أنه أشهى من اللحم.

سألته بعطف:

ـ ولكن أليس شيئاً رائعاً أن تحبك امرأة مثل تلك؟

ـ بالتأكيد شيء رائع، إنني أدين لها بتذوقي أولى قطرات الحب. لم أدم معها طويلاً، لكنه كان حلماً جميلاً. ويتعين عليّ أن أمتنّ لها.

ـ ماذا تظن سيحدث لها؟

ـ أظن أن أوضاعها ستتفاقم. يقول كوماجي إنها لن تستطيع البقاء في بيت «ماكونيل» لفترة طويلة، وستذهب لمكان آخر في غضون يومين أو ثلاثة أيام. بل إنه يقول إنها قد تذهب إلى بيته، لأن أمتعتها ما تزال هناك. ولكن أليست لها عائلة؟

ـ إن عائلتها تدير بيت دعارة في «أساكوسا». لم أقل لأحد هذا من قبل. لم أكن أريد أن أجرحها.

ـ فهمت، إن التنشئة الأولى تحدِّد كل شيء.

ـ تقول ناوومي إن عائلتها من الساموراي ولكن من مستوى منخفض، وكانوا يقيمون في بيت في «شيمونيبانشيو» حين ولدت. كانت جدتها امرأة

عصرية تعوَّدت على الذهاب إلى الحفلات الراقصة في «روكوميكان»، وهي التي سمتها «ناوومي». من يدري مدى صدق هذه الرواية؟ على أية حال فقد كانت تنشئتها سيئة. أرى ذلك بوضوح الآن.

ـ هذا يجعل الأمر مخيفاً. فقد ولدت والخلاعة تجري في عروقها. وشاءت الأقدار أن تنحرف إلى هذه الطريق، رغم محاولات إنقاذك لها.

استمر الحديث بيننا نحو ثلاث ساعات. غادرنا المطعم بعد الساعة السابعة مساء، ولم يكن الحديث بيننا قد انتهى.

سألته، ونحن نسير في «كاواساكي».

ـ هل ستعود بالقطار القومي، يا هامادا؟

ـ إن المسافة بعيدة، ولا أستطيع قطعها سيراً على الأقدام الآن.

ـ هذا صحيح، لكني سأستقل قطار «كيهين» الكهربائي. وإذا ما كانت في يوكوهاما، فإن الخط القومي سيكون محفوفاً بالخطر.

ـ سأستقل قطار «كيهين» إذن. ولكن طالما أنها تتحرَّك في كل اتجاه، فقد تصطدم بها إن عاجلاً أو آجلاً.

ـ سأكون حريصاً عندما أخرج.

ـ لا شك أنها تقضي وقتاً طويلاً في قاعات الرقص، وبالتالي فإن «جنزا» هي أخطر منطقة.

ـ أومـوري ليست أكثر أمـاناً. إنها في الـطريق إلى يـوكـوهـامـا، و«كاجتسوين» وخان «دايبريك»... سأحاول ترك ذلك البيت، واستئجار حجرة في مكان آخر. لا أريد رؤية وجهها حتى يندمل جرحي.

رافقني هامادا في قطار «كيهين»، وافترقنا في أوموري.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٤ -

وقع حادث مؤسف آخر بينما كنت أعاني من الوحشة والإحباط في الحب. لم يكن هذا سوى وفاة أمي بصورة مفاجئة بأزمة قلبية.

وصلتني برقية في الصباح، بعد يومين من مقابلة هامادا، مفادها أنها في حالة خطيرة. تركت كل شيء في المكتب، وهرعت إلى محطة «أوينو». وصلت إلى بيتنا الريفي عند الغسق، لكن أمي كانت قد فقدت بالفعل وعيها، ولم تتعرَّف عليّ. ثم قضت نحبها بعد ذلك بساعتين، أو ثلاث ساعات.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالحزن، لفقدان أحد أبويّ، إذ أنني فقدت أبي حين كنت صغيراً جداً، وقامت أمي بتربيتي بمفردها. كان ذلك أسوأ حادث مرَّ بي، لأنني كنت الأكثر قرباً من أمي. لم أستطع أن أتذكَّر أنني قد عصيتها، أو أنها قد وبّختني. أعتقد أن هذا يرجع إلى أنني كنت أحترمها، ولكن الأهم من ذلك أنها كانت عطوفة، وشديدة الحرص على عدم جرح شعوري. يحدث أحياناً أن يشعر الأبوان بالقلق على ابنهما، حين يشبّ عن الطوق، ويترك البيت، ويمضي إلى المدينة، فيتساءلان عن سلوكه. ويؤدّي الانفصال أحياناً إلى الاغتراب. لكن ثقة أمي فيّ استمرَّت، حتى بعد أن ذهبت إلى طوكيو، وتفهّمت مشاعري، وتمنَّت لي حظاً موفقاً. كانت لي شقيقتان أصغر سناً مني، وهو الأمر الذي من المحتمل أنه قد جعل أمي تشعر بالوحدة بعد ذهاب ابنها الوحيد، لكنها

دعت الله أن يكتب لي التقدم والنجاح، دون أن تبدي شكوى واحدة. ونتيجة لذلك، أحسست بعمق عطفها بشكل أقوى بكثير مما شعرت به، وأنا على حجرها. لقد دأبت على الإصغاء بسرور إلى مطالبي الأنانية، خاصة حين تزوّجت ناوومي، وكلما تذكّرت استجابتها لمطالبي، أجد نفسي أفكّر، وقد اغرورقت عيناي بالدموع، في مدى عطفها وحنانها.

أحسست، وأنا أفقد أمي بهذه الصورة المفاجئة غير المتوقعة، كما لو أنني في حلم داخل حلم، بل إنني أشعر بذلك، وأنا جالس بجوار ما تبقّى منها. فبالأمس فقط كانت مفاتن ناوومي قد أصابتني، جسداً وروحاً، بالجنون. واليوم فإنني أركع أمام جثمان أمي. قد لا تكون هناك علاقة بين هذين العالمين. تساءل الصوت الذي سمعته، وأنا أفكّر، وقد ضعت وسط دموع الحزن، الأسى، والمفاجأة: «ما هي حقيقتي؟». ومن الاتجاه الآخر، سمعت همساً يقول: «ليس هناك حدث في موت أمك الآن. إنها تحذّرك: إنها تلقّنك درساً». جعلني هذا اشتاق إلى أمي أكثر من أي وقت مضى. شعرت أنني ظلمتها. لم أتمكّن من كبح جماح دموع الندم، وخفت أن أنفجر في البكاء، فانسللت خارجاً، وصعدت فوق التل الكائن خلف البيت. وهناك، وأنا أنظر إلى الغابات، الطرق، الحقول المفعمة بذكريات الطفولة، أطلقت العنان لدموعي.

طهّرني هذا الحزن الكبير من الأشياء السيِّئة التي تراكمت فوق قلبي وجسمي. ولولا هذا الحزن، لعانيت المزيد من ألم الحب الضائع، ولما استطعت نسيان تلك الفاسقة سيئة السمعة. نعم إن موت أمي له مغزاه الكبير. ويجب عليّ، على الأقل، ألاّ أدعه يمضي دون أن أستفيد منه. اعتقدت في ذلك الوقت أنني قد ضقت ذرعاً بجو المدينة. فالناس يتحدثون دوماً عن «التقدم والنجاح»، ولكن الذهاب إلى طوكيو، والمضي في حياة بلا معنى ليس هو «التقدم» أو «النجاح». إن أنسب مكان لرجل من الريف هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الريف. سوف أنسحب إلى مسقط رأسي، لأتعرّف على الأرض، وتتملّى عيناي بقبر أمي، وأصادق القرويين، وأصبح مزارعاً، مثل أجدادي. ولكن حين سمع خالي، وشقيقتاي، وأقاربي الآخرون، ما أقوله، ذكروا أنني أستبق الأحداث، وأنه من الطبيعي أن أشعر بالإحباط الآن، ولكن ليس هناك ما يدعو رجلاً أن يدفن مستقبله لأن أمه قد ماتت. كل إنسان يشعر باليأس حين يفقد أحد أبويه، لكن الحزن يخف بمرور الوقت. ستسعدنا عودتك، ولكن أعط مهلة لنفسك قبل اتخاذ القرار. كما أنه ليس عدلاً أن تترك الشركة التي تعمل بها على نحو مفاجيء. كنت على وشك أن أقول: «الأمر ليس كذلك. فلم أبلغ أحداً بعد، أن زوجتي قد رحلت عني». إلا أنني أحجمت. فقد خجلت من قول ذلك أمام الجميع، خاصة وأن البيت كان مايزال في حالة من الفوضى (وقد فسرت لهم عدم حضور ناوومي معي، بأنها مريضة). وحين انتهت أيام الحداد السبعة، تركت الترتيبات الأخرى لتقوم بها خالتي وخالي (اللذين يديران ممتلكاتي) وقبلت نصيحتهما بالعودة إلى طوكيو، على الأقل في الوقت الحالي.

ذهبت إلى العمل، لكنه كان مملاً سخيفاً، ولم أعد محبوباً في المكتب، كما كنت. فقد دأبت من قبل على العمل بجد، دون أن أتصرّف تصرفات غير لائقة، مما جعل الزملاء يلقبونني بالمهذب، لكنني الآن، وبسبب ناوومي، أصبحت أثير المتاعب. وفقدت ثقة المدراء والمساعدين. بل إن أسوأهم كان يسخر مني، ويقول إن موت أمي ما هو إلا مجرّد ذريعة للانصراف مبكراً من العمل. تقزّزت من كل هذه الأمور، وحين عدت إلى الريف لقضاء ليلة واحدة في اليوم السابع والعشرين من الوفاة، قلت لخالي إنني سوف أستقيل من الشركة في وقت قريب. لم يأخذ كلامي مأخذ الجد، لكنه قال: «حسناً، حسناً»، ثم عدت، على مضض، إلى العمل في اليوم التالي. كنت أنشغل في العمل، ولكني لا أجد ما أفعله بعد ذلك. لم

أنتقل إلى حجرة مستأجرة، حيث أنني لم أستطيع اتخاذ قرار بالانسحاب إلى الريف، أو بالاستمرار في طوكيو. وظللت أقضي الليالي بمفردي في البيت الخالي في «أوموري».

ذهبت مباشرة إلى أوموري مستخدماً قطار «كيهين»، بعد أن انتهيت من العمل، متجنباً الأماكن المزدحمة، خوفاً من مقابلة ناوومي. وبعد أن تناولت عشاء خفيفاً في مطعم بالجوار، لم أجد ما أفعله. فصعدت إلى حجرة النوم، واستلقيت تحت الأغطية، ولكني لم أكن أنام في الحال. كنت أستلقي وعيناي مفتوحتان لساعتين أو ثلاث ساعات. كانت أشياء ناوومي ماتزال موجودة في الحجرة، ورائحة خمس سنوات من الفوضى، والانغماس في الملذات، والشهوة، ما تزال آثارها في كل مكان. لقد كانت رائحة بشرتها. فقد تعوّدت، نتيجة لكسلها، على خلع ملابسها القذرة، وإلقائها دون أن تغسلها، والآن فإن رائحتها قد ملأت الحجرة السيئة التهوية. لم أستطع، في نهاية المطاف، تحملها، وبدأت أستخدم الأريكة في المرسم، لكني لم أستطع النوم جيّداً هناك أيضاً.

قرّرت الاستقالة من العمل في أوائل ديسمبر، أي بعد ثلاثة أسابيع من وفاة أمي. وتقرّر، بناء على طلب الشركة أن أعمل حتى نهاية العام. رتّبت كل الأمور بنفسي، دون استشارة أحد، ولذلك لم يعرف أحد من أهلي. استرخيت قليلاً بعد أن أدركت أنه سيتعين عليّ تحمّل شهر واحد فقط من العمل. كنت أقرأ، في أوقات فراغي، أو أتمشّى لكني كنت ما أزال حذراً من الاقتراب من الأماكن الخطيرة. وفي إحدى الليالي، التي شعرت فيها بالضجر، سرت إلى أن وصلت إلى «شيناجاوا». ولتمضية الوقت، قرّرت مشاهدة فيلم من بطولة «ماتسونوسوكي»، ولكن حين دخلت دار العرض، وجدت أنهم يعرضون فيلماً كوميدياً من بطولة «هارولد لويد». جعلتني الممثّلات الأمريكيات الشابات، اللاتي ظهرن على الشاشة، أستعيد العديد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من الذكريات، فاضطررت إلى الخروج، وأنا أقول لنفسي: «يجب ألاَّ أشاهد المزيد من الأفلام الغربية».

وفي صباح يوم أحد في منتصف شهر ديسمبر، وكنت في الفراش بحجرة النوم (فقد عدت إلى الأعلى لأن المرسم كان شديد البرودة)، حين سمعت وقع أقدام شخص يتحرَّك في الأسفل. قلت لنفسي يا له من أمر غريب، فالباب موصد... ثم تناهى إلى مسامعي وقع أقدام مألوفة تصعد الدرج، وقبل أن يتاح لي الوقت لأصاب بالذعر، حياني صوت مرح قائلاً: «أهلاً»، ثم انفتح الباب، ووقفت ناوومي أمامي.

قالت مرة أخرى، وهي تنظر إليّ، دون أن يرتسم على قسمات وجهها أي تعبير:

ـ أهلاً.

قلت ببرود، دون أن أنهض من الفراش:

ـ ماذا تريدين؟

ـ أنا؟ لقد جئت لآخذ أشيائي.

ـ بإمكانك أخذها، ولكن كيف دخلت؟

ـ من الباب الأمامي، فأنا معي مفتاح.

ـ اتركي المفتاح قبل أن تنصرفي.

ـ ليكن.

أدرت ظهري لها، ولم أنبس ببنت شفة. راحت لفترة تضع أشياءها في صرر محدثة ضجة بجوار فراشي. سمعت صرير نطاق يحل. واتجهت نحو زاوية الحجرة، في مكان أستطيع رؤيتها، وأدارت ظهرها لي، وغيَّرت ملابسها، وارتدت كيمونو نظيفاً. كنت قد لاحظت ملابسها فور دخولها

الحجرة. فقد كانت ترتدي ثوباً من الحرير العادي، لم أره عليها من قبل، ومن الواضح أنها كانت ترتديه منذ أيام، لأن ياقته كانت قذرة. وحين فكّت نطاقها، خلعت الكيمونو الحريري القذر، ووقفت وهي ترتدي ثوباً تحتياً من «الموسلين» المتسخ، التقطت ثوباً تحتياً من الحرير، وارتدته من كتفيها، وهزّت جسدها، فانحدر الثوب التحتي من الموسلين ليسقط على الأرض، كما لو أنها أفعى تبدِّل جلدها. وارتدت فوق الثوب الحريري، كيمونو «أوشيما» الأثير لديها، وتمنطقت بنطاقٍ ذي لونين أحمر وأبيض. التفتت إليّ، وجلست على الأرض، ثم بدأت تغيِّر جوربها.

أغرتني رؤية قدميها العاريتين أكثر من أي شيء آخر، حاولت ألاَّ أنظر، لكني لم أستطع. كانت، بالطبع، تفعل ذلك عن عمد. راحت تهز قدميها، وهي تتابع حركة عيني. وحين انتهت من ارتداء الجوربين، وضعت الملابس، التي خلعتها في صوة، وحملتها، قائلة: «إلى اللقاء»، وسحبت الصرر نحو الباب.

قلت لها، وهي المرة الأولى التي أخاطبها بعد أن دخلت:

ـ أنت! ألن تتركي المفتاح؟

ـ آه، صحيح.

ثم أخرجت المفتاح من حقيبة يدها، وقالت:

ـ سأضعه هنا. ولكن قد لا أستطيع حمل كل هذه الأشياء في مرة واحدة، لذلك فقد أعود مرة أخرى.

ـ لست بحاجة لذلك. سوف أرسل كل شيء إلى «أساكوسا».

ـ لكني لا أريد إرسالها إلى «أساكوسا». إنني أقوم بترتيبات أخرى.

ـ إذن إلى أي مكان تريدين أن أرسلها لك؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لم أقرّر بعد أين سأقيم.

ـ ما لم يأت أحد في غضون شهر، فسوف أرسلها إلى «أساكوسا». لا يمكنك أن تتركيها هنا للأبد.

ـ حسناً. سوف أعود في القريب العاجل.

ـ أصغ إليّ الآن، بانتباه. أرسلي شخصاً بسيارة، حتى يستطيع حمل كل الأشياء مرة واحدة. لا أريدك أن تأتي بنفسك.

ـ ليكن.

ثم غادرت.

ظننت أنه لم يعد هناك شيء يعكّر صفوي، ولكن بعد عدة أيام، وفي حوالي التاسعة مساءً، بينما كنت أقرأ جريدة المساء في المرسم، سمعت شخصاً يضع مفتاحاً في الباب الأمامي.

ـ ٢٥ ـ

ـ من بالباب؟

ـ أنا.

انفتح الباب بعنف، واندفع شيء أسود ضخم يشبه الدب إلى الحجرة من الظلام بالخارج. خلعت امرأة غربية شابة غير مألوفة لديّ، معطفاً أسود، ونحته جانباً، ووقفت وهي ترتدي فستاناً أزرق فاتحاً، على النمط الفرنسي. بدت ذراعاها وكتفاها العارية بيضاء كالثعلب. وازدان جيدها بعقد من البلُّور، توهَّج كقوس قزح. واعتمرت قبعة من المخمل الأسود، كادت تغطي عينيها، ولم أرَ منها سوى طرفي أنفها وذقنها، وكانا ناصعي البياض على نحو رائع. وتناقض مع هذا البياض لون شفتيها القرمزي.

قالت:

ـ عمت مساءً.

التمع أول ضوء في رأسي، فبمجرّد أن رفعت القبعة عن رأسها. أدركت في نهاية المطاف، بعد أن أمعنت النظر في وجهها، أنها ناوومي. أعرف أن هذا يثير الاستغراب، ولكنه يؤكِّد مدى التغيّر الذي طرأ على هيئتها. وكان وجهها هو الذي خدعني أكثر من أي جزء آخر. فقد تغيَّر بالكامل بعد أن لجأت لبعض الحيل السحرية، كما تغيَّر لون بشرتها، وتعبير عينيها، بل وجانب وجهها، وقسماته أيضاً. بل إنني ظننت، بعد أن خلعت قبعتها، أن هذه المرأة، هي إمرأة غربية لا أعرفها، ما لم أسمع صوتها. كما أن بياض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بشرتها الناصع أثار ارتيابي. فكل جزء ظاهر من الثوب كان أبيض مثل قلب تفاحة. لم تكن ناوومي داكنة البشرة كاليابانيات، ولكنها لم تكن بهذه الدرجة من البياض. لم أستطع أن أصدِّق، وأنا أنظر إلى ذراعيها، العاريتين حتى الكتفين تقريباً، أنهما ذراعا امرأة يابانية. كان قد أسرني، ذات مرة حين كنت أشاهد عرضاً فنياً في مسرح «أمبريال»، بياض أذرع الممثِّلات الغربيات. والآن فإن ذراعي ناوومي تبدوان مثل تلك الأذرع، بل في الواقع أنصع بياضاً منها.

اتجهت نحوي، وهي تتمايل بثوبها الأزرق الناعم، وبحذائها الجلدي، عالي الكعب، المزدان بفصوص الماس المقلّد. قلت لنفسي إنه حذاء سندريلاّ الذي حدَّثني عنه هامادا. تطلَّعت إليّ بزهو، وهي تضع يدها في خصرها، بينما جلست مشدوهاً، ثم قالت:

ـ لقد جئت لآخذ أشيائي، يا چوچي.

ـ ألم أقل لك أرسلي أحداً، ولا تأتي بنفسك؟

ـ ولكن ليس هناك مَن أرسله.

كانت ناوومي دائبة الحركة أثناء الحديث، رغم أن وجهها بدا حزيناً. حاولت الوقوف مشدودة الساقين، ثم تقدَّمت خطوة. دقَّت ألواح الأرضية الخشبية بكعبي حذائها، ومع كل حركة منها يتغيَّر موقع يديها. وحين رفعت كتفيها لأعلى، أصبحت كل عضلة في جسمها مشدودة كالسلك. كان كل جهازها العصبي في حالة نشاط. وكرد فعل لذلك، توتَّرت أعصابي البصرية وأنا أحدِّق فيها، وأتابع كل بوصة في جسمها. وحين فحصت رأسها، عرفت سبب الاختلاف في هيئتها. فقد قصَّت شعرها عند جبهتها، ليصبح طوله من بوصتين إلى ثلاث بوصات، وشدَّت الأطراف بعناية، وصفَّفت الغرّة، مثل ستارة أحد المحال، فوق جبهتها، كما تفعل

الفتيات الصينيات تماماً. أما بقية شعرها فقد عقصته على شكل كعكة مثل قلنسوة مستديرة، كالتي يعتمرها الحاكم «دايكوكو». كانت هذه طريقة جديدة تماماً في تصفيف الشعر بالنسبة لها، غيّرت ملامح وجهها، للحد الذي يصعب معه التعرف عليها. اكتشفت، وأنا أواصل فحص وجهها، أن شكل حاجبيها قد بات مختلفاً أيضاً. فقد كانا، في حالتها الطبيعية، كثيفين، عريضين، ونافرين فوق عينيها، لكنهما كانا في تلك الليلة رفيعين، مقوّسين، وحولهما تبدو آثار موسي الحلاقة. اكتشفت هذه التغيُّرات في الحال، لكني لم أستطع اكتشاف السحر وراء لون عينيها، شفتيها، وبشرتها. لا بد وأن تغيّر شكل الحاجبين قد أثّر على شكل عينيها، ولكن من المؤكّد أن هناك حيلة أخرى. خمنت أن السر في رموشها، لكني لم أستطع التأكد من طبيعة الحيلة. كانت الشفة العليا مقسومة من الوسط، مثل بتلة الكرز. وكان لاحمرار شفتيها رونق طبيعي بخلاف ذلك الذي يحدثه أحمر الشفاه العادي. أمّا بالنسبة لنصاعة بشرتها، فقد بدا أنه لونها الطبيعي، ولم أرَ أي آثار لمساحيق بيضاء. ولو أنها استخدمتها، فإنها كانت ستضطر إلى توزيعها على كافة أجزاء جسمها، لأن وجهها لم يكن الوحيد الناصع البياض، بل أن كتفيها، ذراعيها، وحتى أطراف أصابعها كانت بيضاء، على نحو متماثل. انتابني إحساس بأن هذه الفتاة الغامضة قد لا تكون ناوومي بنفسها، بل روحها، وقد انتقلت بطريقة أو بأخرى، إلى جسم يتمتع بجمال مطلق.

ـ لن تمانع إذا ما صعدت لأحضر أشيائي؟

قال الشبح ذلك. وعرفت من الصوت أنه ناوومي، وليس الشبح.

ـ ليكن... لا أمانع، ولكن...

كنت مرتبكاً، فأضفت بصوت عالٍ:

ـ كيف فتحت الباب؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ كيف؟ بمفتاح.

ـ لكنك تركته هنا..

ـ آه. معي الكثير منه. وليس واحداً فقط.

ارتسمت على شفتيها الحمراوين ابتسامة مفاجئة، وحدجتني بنظرة تجمع بين الدلال والسخرية، ثم قالت:

ـ ألم أقل لك من قبل، أنني صنعت الكثير من المفاتيح، ولذلك لن يضايقني أن تأخذ واحداً منها.

ـ ولكن يثير ضيقي أن تتردَّدي على البيت.

ـ لا عليك. لن أعود إلى هنا، حتى لو طلبت مني ذلك، بعد أن أنقل كل أشيائي.

صعدت إلى أعلى، وهي تقعقع بكعب حذائها العالي.

كم دقيقة مرَّت؟ انتظرتها حتى تعود، دون أن أفعل شيئاً، وقد استلقيت فوق أريكة المرسم. هل مرَّ أقل من خمس دقائق، أو نصف ساعة، أو ساعة؟ لقد فقدت الإحساس بالوقت، خلال تلك اللحظات. لكن وعيي تركَّز على هيئة ناوومي، وشعرت بالبهجة والانتشاء، وظل هذا الإحساس يتردّد كذكرى موسيقى جميلة، أو أغنية رائعة تنبعث من دنيا مقدّسة خارج نطاق هذا العالم. لم تعد المسألة مجرَّد شهوة أو حب، بل إن ما شعر به قلبي كان انتشاء لا حدود له، ليس له أية علاقة بهاتين الرغبتين. أمعنت التفكير المرة تلو الأخرى. إن ناوومي هذه الليلة شيء نفيس يستحق التقديس والتوقير، وتختلف تماماً عن ناوومي العاهرة الساقطة، التي لقَّبها الكثيرون بألقاب بذيئة. أمام ناوومي جديدة كهذه، ليس بوسع رجل مثلي سوى أن يركع ويقدِّم فروض الطاعة. ولو أن أطراف أصابعها البيضاء لمستني، ولو لمساً خفيفاً، فسوف أرتجف، ولن أنتشي. بأي شيء أستطيع مقارنة هذا الإحساس، حتى يتمكَّن قرَّائي من فهمي؟ رجل يأتي من الريف إلى

طوكيو، على سبيل المثال، وفي الشارع يصادف ابنته، التي هربت من البيت منذ كانت صغيرة جداً. لن تتعرَّف الابنة، التي أصبحت الآن امرأة أنيقة من المدينة، على المزارع البسيط من الريف، ولن تتصوَّر أنه أبوها، رغم أنه سيعرفها. لكن وضعها الاجتماعي مختلف للغاية الآن، الأمر الذي يمنعه من الذهاب إليها. فينسلّ مبتعداً، وهو يشعر بالدهشة والارتباك. فكّروا فيما سيشعر به في تلك اللحظة من وحشة واستسلام. أو أن رجلاً رفضته خطيبته، يقف في ميناء يوكوهاما بعد مرور خمس أو عشر سنوات على ذلك، حين ترسو سفينة ضخمة، ويغادرها الركاب العائدون. ويرى، على نحو غير متوقع خطيبته بينهم، وقد عادت من رحلة فيما وراء البحار. لكنه يفتقر إلى الشجاعة ليقترب منها ـ فهو ما يزال طالباً فقيراً، بينما قطعت هي كل صلتها بفتاها غير المتعلِّم، وأصبحت سيّدة أنيقة تعوَّدت على الحياة الباريسية، ورفاهية نيويورك، وثمة فجوة تبلغ ألف ميل بينهما. تفكّروا فيما سيشعر به هذا الطالب المرفوض من توبيخ الذات في تلك اللحظة، في الوقت الذي سيشعر فيه بالارتياح لعودتها المفاجئة.

لا توضح هذه المقارنات ما أشعر به بشكل تام، لكنها ربما تقدّم فكرة على الأقل عما أحسَّ به. وعلى أية حال، فإن لحم ناوومي كان ما يزال حتى الآن ملطخاً ببقع لا تمحى من الماضي. ولكن حين رأيتها الليلة، وجدت أن بشرتها البيضاء الملائكية قد محت هذه البقع، وقد تحوّل ما كان في الماضي مقزّزاً لمجرّد التفكير فيه، إلى العكس، وشعرت بأنني لا أستحق أن ألمس أطراف أصابعها. أهذا حلم؟ إن لم يكن كذلك، فأين تعلَّمت ناوومي مثل هذا السحر؟ وأين أتقنت هذه الشعوذة؟ وكيف حدث ذلك، وهي التي كانت قبل يومين أو ثلاثة أيام ترتدي كيمونو رخيصاً قذراً؟

تناهت إلى مسامعي قرقعة حذائها، وهي تهبط الدرج، وتوقفت بحذائها، المرصع بالماس المقلّد، أمامي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت، وقد ابتعدت عني لمسافة ثلاثة أقدام، رغم أنها تقف في مواجهتي، ولم تجعل مجرّد حافة ثوبها المهفف تلمسني:

ـ سأعود في غضون يومين أو ثلاثة أيام. لقد جئت هذا المساء لآخذ بعض الكتب، ليس بوسعي حمل كل هذه الأشياء على ظهري، خاصة وأنا أرتدي هذه الثياب.

اشتمَّ أنفي عبيراً خفيفاً لكنه مألوف. آه، إنه هذا العطر ـ إنه يثير فيّ أفكاراً عن أراضٍ عبر البحر، وعن حدائق ذات أزهار رائعة مثيرة. إنه عطر مُدرسة الرقص، الكونتيسة شلمسكايا. لقد استخدمت ناوومي العطر نفسه.

أومأت فقط رداً على كل ما قالته ناوومي. وحتى بعد أن اختفت هيئتها في ظلام الليل مرة أخرى، ظلّت حاسة الشمّ الحادة التي أتمتع بها، تطارد أريج عطرها الذي تلاشى تدريجياً، مثلما يطارد شخص شبحاً.

- ٢٦ -

من المحتمل أن يكون قرّائي قد توقّعوا، بناء على مجرى الأحداث حتى الآن، أن ناوومي قد عادت إليّ مرة أخرى، وأن المصالحة بيننا لم تكن معجزة، بل تطوراً طبيعياً. في الواقع كانت تلك هي النتيجة النهائية، لكن الأمر اكتنفته متاعب أكبر مما قد تظنون. وفي تلك الأثناء خدعت نفسي، وبذلت جهداً كبيراً لم يثمر شيئاً.

لم يمض وقت طويل، قبل أن نعود لتبادل الأحاديث الودية. والسبب في هذا يرجع إلى أنها جاءت لتأخذ شيئاً في الليلة التالية أيضاً، وكرّرت ذلك في الليالي التالية. وفي كل مرة تأتي، تصعد لأعلى وتعود بصرّة، لكنها صغيرة جداً.

سألتها:

ـ لأي شيء جئت الليلة؟

ـ لهذا. إنه صغير جداً. إنني أشعر بالعطش، هل من الممكن أن أحتسي كوباً من الشاي؟

ثم تجلس بجانبي، وتتحدَّث في غير كلفة معي لمدة عشرين أو ثلاثين دقيقة. سألتها، ذات ليلة، ونحن جالسان متواجهين وبيننا الطاولة، نحتسي الشاي الأسود:

ـ هل تقيمين في مكان ما قريب من هنا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لِمَ تسأل؟

ـ ليس هناك ما يضر في السؤال، أليس كذلك؟

ـ ولكن لِمَ؟ ماذا ستفعل إذا عرفت مكان إقامتي؟

ـ لا أخطِّط لشيء، إنه مجرَّد الفضول. أين تقيمين؟ بإمكانك أن تخبريني، أليس كذلك؟

ـ لا، لن أخبرك.

ـ ولِمَ لا؟

ـ لست مضطرة لإشباع فضولك. إذا كنت تريد أن تعرف، فاتبعني، إنك تجيد القيام بدور المخبر السري.

ـ لا أريد ذلك. لكني أعتقد أنك تقيمين في مكان قريب من هنا.

ـ ما الذي يجعلك تظن ذلك؟

ـ تأتين كل ليلة، وتأخذين شيئاً معك، أليس كذلك؟

ـ وهل مجيئي كل ليلة يفيد بأنني أقيم في الجوار. هناك وسائل مواصلات مثل القطارات والسيارات.

ـ وهل تتحملين مشقة الطريق الطويل لمجرَّد أخذ شيء صغير؟

ـ أتعني أنني يجب ألاَّ آتي كل ليلة؟

ـ لا، ذلك ما لا أعنيه. بالإضافة إلى أن ما أقوله لن يفيد. فحتى عندما أطلب منك عدم الحضور، تأتين.

ـ نعم هذا صحيح. فإذا طلبت مني عدم الحضور، فسوف آتي بمعدل أكبر. إنني عنيدة... أتخشى من قدومي المتكرِّر؟

ـ نعم، إلى حد ما.

ألقت برأسها إلى الوراء، فبدت ذقنها ناصعة البياض، وانفجرت ضاحكة، ثم قالت:

ـ لا عليك. سأتصرَّف بحكمة. كل ما أريده حقاً هو أن تنسى كل ماضينا، وأن نكون مجرَّد صديقين. اتفقنا؟ ليس في ذلك أي ضرر، أليس كذلك؟

ـ لا أدري، لكنه يبدو غريباً، أيضاً.

ـ ما الغريب فيه؟ ما الغريب في أن يصبح اثنان، كانا متزوّجين، صديقين؟ ما هذه الطريقة العتيقة التي تفكِّر بها. إنني لا أهتم كثيراً بما قد حدث في الماضي. بإمكاني أن أغريك، إذا أردت ذلك. إنها مسألة بسيطة. لكني أعدك بألاَّ أفعل أي شيء من هذا القبيل. إنني أشفق عليك ولا أريد أن أجعلك تتردَّد، بعد أن صمَّمت على المواصلة.

ـ تشعرين بالأسف نحوي. أهذا السبب تقولين: «لنكن صديقين».

ـ لا. لا أعني ذلك. يجب أن تكون حاسماً، ولا أريد أن أشفق عليك.

ـ هذا هو الجانب الغريب في الأمر. إنني حاسم الآن، لكني سأبدأ في التردّد إذا ما قضيت وقتاً أطول معك.

ـ إنك سخيف. إذن لا تريد أن نكون صديقين؟

ـ أعتقد أنني لا أريد ذلك.

ـ في هذه الحالة سوف أغريك، وأحطِّم قميصك.

حدجتني بنظرة، لها مدلول غامض، لا هو بالمزاح، ولا الجد، ثم قالت:

ـ أيهما تختار ـ أن تكون هناك علاقة صداقة نظيفة ولطيفة بيننا، أو أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أغريك، وأجلب لك المتاعب من جديد؟ إنني أبتزك الليلة.

تساءلت عن السبب الذي جعلها تطرح مثل هذا الاقتراح اللعين. تأكدت الآن أن هناك دافعاً خفياً وراء سعيها لرؤيتي كل ليلة. ليس لمجرّد إغاظتي. فهي تريد أولاً أن نكون صديقين، ثم تقرّبني منها شيئاً فشيئاً حتى نصبح زوجاً وزوجة مرة أخرى، وتكون بذلك قد انتصرت عليّ دون أن تستسلم... أهذا هو ما يدور في رأسها؟ وإذا كان كذلك؛ فإنه ليس هناك ما يدعو لكل هذه الخطط المعقدة. سوف أوافق في الحال. لا أعرف متى أصبحت مدركاً لذلك، لكني أعلم بأنني لن أرفض أية فرصة تجعلنا زوجاً وزوجة مرة أخرى.

قلت لها:

ـ ولكن ما الحكمة يا ناوومي في أن نصبح مجرّد صديقين؟

قلت ذلك لمجرّد أن أطرق الموضوع، وكنت على وشك أن أقول لها: «أليس من الأفضل أن تأخذي خطوة أخرى، وتوافقي على أن تكوني زوجتي من جديد» لكني اعتقدت، بعد أن رأيتها في تلك الليلة، أنها لن تستجيب، إذا ما فتحت لها قلبي، وناشدتها بهذه الطريقة. إذ ستقول «لا فائدة من ذلك، مجرّد صديقين، أو لا شيء على الإطلاق». وحين تكتشف أنني أحاول إقناعها، فإنها ستسخر مني، وأنا لا أحب هذا النوع من المعاملة. وعلى أية حال، فإذا كان هدفها الحقيقي هو العودة إليّ، ولكن بالإبقاء على حريتها، لتلهو مع الكثير من الرجال الآخرين، وتضيفني إلى أرقامهم. فإنه يتعينّ عليّ أن أكون حذراً في كلامي معها. ونظراً لأنها لم تخبرني بمكان إقامتها، فينبغي عليّ أن أفترض أنها ما تزال على علاقة برجل. وإذا ما جعلتها زوجتي، بالطريقة التي تريدها، فإنني سأعود للأحزان مرة أخرى.

ثم خطرت لي فكرة، فقلت لها:

ـ ليكن. لنصبح صديقين، فأنا لا أريد أن أتعرَّض للابتزاز.

وجاء دوري لأحدجها بنظراتي. فإذا أصبحنا صديقين، فسأعرف بالتدريج ما هو هدفها. فإذا كان ما يزال هناك أي جانب طيِّب فيها، فسوف تكون هناك فرصة بعد ذلك لأفتح لها قلبي، وأقنعها بأن نقيم معاً مرة أخرى. وعندئذ أستطيع أن أجعلها زوجتي وفقاً لشروط أفضل ـ هذا ما قرَّرته في نفسي.

قالت، وهي تنظر إليّ بتوجس:

ـ أتوافق إذن؟

ـ بالطبع.

ـ بدون أية أفكار خبيثة من كلينا.

ـ بالطبع. لقد استبعدتها تماماً.

ضحكت ضحكتها المألوفة، التي تخرج من الأنف.

بعد ذلك، تزايد تردّد ناوومي على البيت. وبمجرّد أن أعود من العمل، تأتي مثل سنونو، وتقول لي: «ألن تصحبني لتناول العشاء الليلة في الخارج، يا چوچي؟ بإمكانك أن تفعل ذلك كثيراً، طالما أننا صديقان، أليس كذلك؟ ثم تلتهم طعامها في مطعم غربي، على حسابي. وكانت أحياناً ما تأتي في وقت متأخِّر في إحدى الليالي المطيرة، وتطرق باب حجرة النوم، وتقول: «هل أنت في الفراش؟ إذا كنت كذلك، ليس هناك ما يدعو لأن تنهض، فقد جئت لأقضي الليلة هنا». ثم تمضي إلى الحجرة المجاورة، وتجهِّز الحشية، وتنام. وكنت أحياناً أجدها تغط في نوم عميق، بعد أن أنهض في الصباح، وفي كل مرة تفتح فيها فمها، تقول: إننا صديقان، تذكر ذلك!

بدا لي، في ذلك الوقت، أنها قد ولدت عاهرة. فرغم أنها متقلِّبة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حبها بالطبيعة، ولا تبالي بتعرية جسدها لأي عدد من الرجال، فإنها تعرف أيضاً كيف تداريه، فهي لم تدع مطلقاً أي رجل يلقي نظرة على أصغر جزء من جسمها دون أن تكون هناك ضرورة لذلك. ومسألة إخفاء الجسم، الذي يعرض عند الطلب للجميع، هي رغبة غريزية لدى العاهرة تهدف إلى المحافظة عليه. فجسد العاهرة هو أهم رصيد لديها، هو «تجارتها». وأحياناً ما تدافع عنه بشراسة تفوق أي عذراء خوفاً من أن تتلاشى قيمة هذا الرصيد الكبير. وكانت ناوومي تعرف تماماً ما تفعله.

فهي تغطي نفسها تماماً أمامي، أنا الذي كنت زوجها من قبل. وهذا لا يعني أنها كانت دائماً خجولة ومتحفِّظة. لقد دأبت على تغيير ملابسها عن عمد وأنا موجود. وتترك قميصها التحتي ينزلق، وهي تغيِّر ثيابها، ويصحب ذلك صيحة «أوه» منها، كما تضع يديها على كتفيها لتغطي نفسها، ثم تهرع إلى الحجرة المجاورة. أو تخرج من الحمَّام، وتجلس أمام المرآة، وتقول: «أوه، يا چوچي! يجب ألا تكون هنا. اخرج!». وفي الأوقات التي لا تتصرَّف فيها على هذا النحو، كانت تترك أجزاء صغيرة من جسمها تتعرَّى، لتجعلني أراها من وقت لآخر، مثل المنطقة المحيطة برقبتها، كوعها، أو كعبها. ورغم ذلك فقد كانت هذه الأجزاء كافية لتجعلني أرى مدى تألّق جسدها، الذي أصبح أجمل مما كان عليه. كنت في خيالي أخلع الثياب من فوق جسدها، وأمعن النظر دون كلل في ثنياته.

قالت لي مرة، وهي تبدِّل ثيابها، وقد أعطتني ظهرها:

- فيم تحدِّق يا چوچي؟

- أنظر إلى جسمك. إنه أكثر شباباً ونضارة مما كان.

- يا لك من مقزز! لا ينبغي أن تنظر إلى جسم امرأة.

- إنني لا أنظر إليه، بالطبع، ولكني أكتشف ذلك من شكل الكيمونو.

إن فخذيك يلتصقان به، لكنهما قد أصبحا ريَّانين، أليس كذلك؟

ـ نعم، لقد أصبحا ريَّانين، لكن ساقيّ مستقيمتان ونحيفتان.

ـ ساقاك مستقيمتان دوماً. إنهما يكونان في خط مستقيم حين تكونين واقفة، أما يزالان على استقامتهما؟

ـ نعم.

ثم رفعت الكيمونو، وقالت:

ـ أنظر، إنهما مستقيمتان.

تذكَّرت تمثالاً لـ «رودان» كنت قد رأيته في صورة فوتوغرافية.

ـ أتريد أن ترى جسمي يا چوچي؟

ـ إذا كنت أريد، هل ستعرضينه عليّ؟

ـ لا أستطيع ذلك. فنحن مجرّد صديقين. أليس كذلك؟ ابتعد الآن حتى أنهي تبديل ثيابي!

ثم أغلقت الباب، كما لو أنها تدفعه على ظهري.

كانت تثير دائماً رغبتي بهذه الطريقة، وتغريني حتى أصل إلى الحافة، ثم تلقي عندئذ بحاجز قاس، لا تتجاوزه. كان يحول بيننا جدار زجاجي. ومهما اعتقدت بأنني قد اقتربت منها، فإنه لم يكن هناك أي سبيل لاختراق ذلك الحاجز الأخير. فإذا مددت يدي متهوّراً، فسوف تصطدم بالجدار، وكان لا بد أن يستفزني نفاد الصبر، لكني لا أستطيع أن ألمس بشرتها. وكانت ناوومي تبدو أحياناً على وشك إزالة الحاجز. وأظن أن الوقت قد حان، ولكن حين أقترب منها، أجد أن الجدار ما يزال قائماً.

قالت بلهجة جادة مغلفة بالسخرية: «لقد كنت ولداً طيّباً يا چوچي، سوف أمنحك قبلة». ورغم أنني أعرف جيِّداً أنها تسخر مني، فإني كنت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أستجيب لها، حين تعرض شفتيها، لكنها تتراجع في الوقت المناسب، وتنفخ هبة هواء في فمي من مسافة بوصتين، أو ثلاث بوصات.

تقول لي بابتسامة ساخرة:

ـ إنها قبلة الأصدقاء.

تحوّلت هذه التحية الغريبة التي تسميها «قبلة الأصدقاء»، والتي بها أحظى بنفسها، بدلاً من شفتيها، إلى عادة بيننا. فحين تخرج، تقول: «إلى اللقاء، سأعود مرة أخرى» وتزم شفتيها، وأرفع وجهي، وأفتح فمي، كما أو أنني أستخدم جهازاً لاستنشاق المخدر. ثم تنفخ هبة هواء في فمي، فأتجرّعها بنهم، وقد أغمضت عيني، وأتركها تهبط إلى صدري. كان نفسها نديّاً، دافئاً، يفوح منه شذا حلو زهري، لا يمكن أن يفوح من إنسان. (أدركت الآن أنها كانت تضع سراً عطراً حول فمها لإغرائي، لكني لم أكن أعرف، بطبيعة الحال، شيئاً عن هذه الحيلة، في وقتها). كانت تدور في ذهني أحياناً أفكار بأنه من المحتمل أن الأعضاء الداخلية لهذه المرأة الفاتنة تختلف عن الأعضاء الموجودة في النساء الأخريات. لذلك فإن الهواء الذي يمر عبر جسدها ليصل إلى فمها، يُحمل بذلك الشذا المثير.

أصبحت مشتّت الذهن، شديد الاضطراب، وبات بوسعها أن تلوي وتحرف ذهني كما تشاء. لم أعد، بحلول هذا الوقت، في وضع يسمح لي بالإصرار على أن نصبح زوجين رسمياً، أو فلنقل إنني لم أعد أريد أن أضيِّع الوقت سدى. كنت في الواقع أخشى إغراءاتها، وكان بإمكاني تجنّبها، خاصة وأنني كنت أعرف من البداية أنها تهدف إلى هذا، وقد كنت أخدع نفسي، حين قلت إنني سأحاول اكتشاف دوافعها الحقيقية، أو أنتظر الفرصة المناسبة. ورغم ادعائي بأنني أخشى إغراءاتها، فالحقيقة أنني كنت أتمنّاها. مع ذلك فإن هذه الإغراءات لم تتجاوز قط لعبة الأصدقاء

السخيفة، التي ظلّت تمارسها. اعتقدت أنه مخطّط مرسوم لتعذيبي، وسوف تستمرّ في إغوائي، حتى أكفّ عن المقاومة، وعندما تدرك أن الوقت قد حان، ستمزّق قناع «الصداقة»، وتحقّق تقدمها الشيطاني، الذي تفتخر به كثيراً. سوف تقوم بخطوتها في وقت قريب، فهي ليست من النوع الذي يحجم عن العمل. وإذا ما سايرت مخططها، أتقدّم نحوها، حين تقول «تقدّم»، وأجلس عندما تقول «اجلس»، وأؤدّي كل الأعمال التي تأمرني بأدائها. فإنني سأحصل في نهاية المطاف على الجائزة. وفي كل يوم أعد أنفي لتشمّم ما سيحدث، لكن الأمور لا تسير كما أتوقّع. كنت أتساءل بيني وبين نفسي: هل سترفع القناع عن وجهها اليوم؟ هل ستقوم بخطوتها غداً؟ ولكن حين يأتي النهار، تهرب في آخر لحظة.

واصلت الانتظار في شغف. كنت يقظاً على الدوام، كمن يقول: «ليس بوسعي الانتظار أكثر من ذلك، إذا كنت ستقومين بإغرائي، فافعلي ذلك بسرعة». وفي نهاية المطاف، كشفت عن ضعفي، وبدأت أغريها، لكنها رفضت الإصغاء إليّ. وقالت موبِّخة، وهي تنظر إليّ بالطريقة التي تنظر بها الأم إلى صبيها المشاغب:

ـ ماذا تفعل يا چوچي؟ ماذا عن وعدنا؟ لم أكن أتوقّع ذلك منك.

ـ لا أبالي بوَعدنا، لم أعد أستطيع...

ـ لا! إننا مجرَّد صديقين.

ـ لا تقولي ذلك يا ناوومي... أرجوك...

ـ يا لك من حشرة! قلت لا! لكني سأعطيك قبلة بدلاً من ذلك.

وأعطتني نفخة الهواء المعتادة، وقالت:

ـ أيكفيك ذلك؟ ينبغي أن تشعر بالرضا. بل إن هذا كثير على صديقين، ولكن طالما أن الصديق هو أنت، فإنني أقدّم استثناء خاصاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تفعل هذه القبلة «الخاصة» شيئاً لتهدئتي. بل على العكس، كانت تثيرني كثيراً.

ازداد سخطي، مع كل يوم يمر دون أن أوفق. لم أستطع، في أحد الأيام، وبعد مرور وقت على خروجها مسرعة، القيام بأي شيء، كنت غاضباً من نفسي، فأخذت أدور في الحجرة، مثل حيوان داخل قفص، ونفست عن إحباطي الذي خرج عنيفاً، محطماً أي شيء طالته أطرافي.

عذّبتني النوبات المتتالية لما يمكن تسميته بالهستيريا الذكرية، ونظراً لأنها كانت تأتي يومياً، فقد عاودتني هذه النوبات بمعدل يومي. ومما زاد الطين بلّة، أن الهستيريا لم تكن من النوع العادي ـ إذ لم أكن أعود لحالتي الطبيعية بعد انتهائها. بل على العكس، كنت أسترجع، عندما أهدأ، أصغر أجزاء جسم ناوومي بشكل أكثر دقّة ووضوحاً. قد يكون هذا الجزء مجرّد قدميها، اللتين أكون قد لمحتهما من طرف الكيمونو، وهي تبدّل ثيابها، أو شفتيها، وهي تنفخ الهواء في قبلة، وهي على مبعدة بوصتين، أو ثلاث بوصات. لقد تراءت لي هذه الأجزاء، في تسلسل نابض بالحياة بشكل يفوق رؤيتي لها في الحقيقة. وحين وسعت من نطاق أحلام اليقظة، بتتبّع خطوط شفتيها، أو قدميها، ثم أجزاء جسمها الأخرى، تلك الأجزاء التي لم أستطع رؤيتها في الواقع، تظهر أمام عيني مثل صورة سلبية، حتى يظهر في أعماق قلبي المنذهل، فجأة جسم يماثل تمثالاً رخامياً لفينوس. كان رأسي خشبة مسرح ملفوفة في ستارة من المخمل الأسود، تقف فوقها ممثلة واحدة، اسمها ناوومي. أضاءت الأنوار خشبة المسرح من كل اتجاه، وغلّفت جسدها الأبيض المتمايل بهالة قوية ليبرزه من وسط الظلام المحيط به. حدّقت فرأيت الأضواء تتوهّج أكثر فأكثر، لتضيء جسدها. بل اقتربت هذه الأضواء في بعض الأحيان، حتى كادت تسفع حاجبي، كبرت أجزاء معيّنة من جسدها، فبدت في غاية الوضوح، مثل اللقطات المقربة في

الأفلام السينمائية. لم تكن هذه المشاهد تختلف عن الواقع، في إثارة أحاسيسي الشهوانية. وكان الشيء الوحيد الذي تفتقر إليه هو إمكانية لمسها بيدي، أما عن بقية الجوانب، فقد بدت المشاهد أكثر حيوية من الواقع. وإذا ما نظرت إليها فترة طويلة، فإنني أشعر بالدوار، ويصعد كل الدم إلى رأسي، ويزداد معدل نبضي. ثم أتعرَّض لنوبة هيستريا أخرى، فأرفص المقعد، أقطع الستائر، وأحطِّم الزهريات.

ازدادت نوبات التخيلات يوماً بعد يوم، وما كان عليّ سوى أن أغمض عيني، فتظهر صورة ناوومي أمامي. وعندما كنت أتذكَّر نفسها المعطر، أتطلَّع إلى السماء، وأفتح فمي، وأتجرَّع الهواء. وحين أشتاق إلى شفتيها، سواء كنت أسير في الشوارع، أو أجلس في الحجرة، أتطلَّع إلى السماء، وأبدأ في التجرع. كنت أرى شفتي ناوومي في كل مكان أتطلَّع إليه، وأتشمَّم نفسها في كل هبة هواء. كانت كروح شريرة ملأت المسافة بين السماء والأرض، تحيطني، تعذبني، تسمع تأوهاتي، لكنها تضحك وهي تنظر إليّ.

سألتني حين عادت ذات مساء:

ـ إنك تتصرَّف تصرّفات غريبة هذه الأيام، يا چوچي. ماذا ألمَّ بك؟

ـ أنت تتركينني أحوم حولك.

ـ مم مم.

ـ ماذا تعنين بهذه الهمهمة؟

ـ إنني أحاول الالتزام بوعدنا.

ـ إلى متى؟

ـ للأبد.

ـ إنها ليست دعابة. إنني سأصاب بالجنون.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ سأعطيك إكرامية إذن. يتعينّ عليك أن تصب ماء بارداً فوق رأسك.

ـ إصغ إليّ، إنك حقاً...

ـ ها أنت تبدأ مرة أخرى! إنك حين تنظر إليّ هكذا، أشعر برغبة في إثارتك على نحو أكبر. لا تقترب مني! ابق على بُعد، ولا تجعل أصبعاً يلمسني! أرجوك.

ـ اتفقنا. أعطني إذن قبلة الأصدقاء.

ـ سأعطيك إذا ما أحسنت التصرّف. ولكن ألن تصيبك بالجنون.

ـ لا أهتم بذلك. لم أعد أشعر بالقلق إزاء مثل هذه الأمور.

- ٢٧ -

طلبت مني ناوومي، في ذلك المساء، أن أجلس في مواجهتها أمام المائدة، حتى لا يلمسها أصبع من أصابعي، وأخذت تراقب بسعادة الإحباط المرسوم على قسمات وجهي. وراحت تثرثر حتى أعلنت دقّات الساعة انتصاف الليل.

قالت بأسلوبها المازح العادي:

ـ سأقضي الليل هنا يا چوچي.

ـ على الرحب والسعة. فغداً الأحد، وسأمكث في المنزل طوال اليوم.

ـ ولكن تذكّر أن بقائي لا يعني أن تفعل ما يحلو لك.

ـ لست بحاجة لقول ذلك. فأنت من النوع الذي لا يستطيع أحد أن يفعل معه ما يحلو له.

ـ لكنك تتمنّى أن أكون هذا النوع من النساء. أليس كذلك؟ اذهب أنت أولاً إلى الفراش، وحاول ألاّ تتكلّم وأنت نائم!

دخلت الحجرة المجاورة، وأغلقت وراءها الباب، بمجرّد أن صعدت إلى حجرتي. لست بحاجة للقول بأنني كنت مشغول الذهن بما يدور في الحجرة المجاورة، لذلك لم أستطع النوم. لم تكن تحدث أمور بلهاء مثل هذه حين كنا متزوّجين، فقد كانت دائماً بجواري. شعرت بالكدر وأنا أفكّر في ذلك. كانت ناوومي، خلف الجدار، تثير ضجة، ربما عن عمد، وهي تعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحشايا، وتستعد للنوم. استطعت أن أحدِّد بدقة الوقت الذي فكَّت فيه شعرها، وخلعت الكيمونو، وارتدت قميص النوم. ثم ألقت بالأغطية، وارتمت على الحشية محدثة صوتاً.

قلت بصوت، نصفه موجه لي، والنصف الآخر موجه لها:

ـ ما هذه الجلبة؟

ردَّت في الحال من خلف الجدار:

ـ ما زلت مستيقظاً؟ ألا تستطيع النوم؟

ـ إنني أجد صعوبة في النوم، فهناك أمور كثيرة تدور في ذهني.

ـ لديّ فكرة عامة عما يدور في ذهنك، بدون أن تخبرني.

ـ إن ما يدور في ذهني أمر غريب، مع ذلك. فأنت على الجانب الآخر من هذا الجدار، وليس بوسعي أن أفعل شيئاً.

ـ ليس هناك أمر غريب في ذلك. أنسيت أول مرة دخلت فيها هذا البيت، منذ وقت طويل؟ لقد نمنا هكذا في تلك الأيام.

قلت لنفسي إنها على صواب، فقد كان هناك زمن كنا فيه أنقياء... تحرَّكت بداخلي مشاعر، لكنها لم تفعل شيئاً لتهدئة عاطفتي. بل على العكس فقد كنت أفكِّر في الرابطة القوية التي جمعت بيننا. شعرت بأنني لا أستطيع الانفصال عنها.

ـ كنت فتاة بسيطة في تلك الأيام.

ـ ما زلت كذلك. أما أنت فماكر.

ـ قولي ما تشاءين، فسوف أطاردك في أي مكان تذهبين.

ندت عنها ضحكة عالية.

قرعت الجدار، وقلت:

ـ أنت!

ـ ماذا تفعل؟ هذا البيت ليس في وسط الحقول، كما تعرف. أرجوك أن تكون هادئاً.

ـ هذا الجدار يفصل بيننا، أريد أن أزيله.

ـ ما كل هذا الضجيج. الفئران هائجة الليلة.

ـ ماذا تتوقعين؟ يعاني هذا الفأر من هيستريا.

ـ لا أحب الفئران الطاعنة في السن.

ـ لست طاعناً في السن. إنني في الثانية والثلاثين من عمري.

ـ وأنا في التاسعة عشرة. عندما تكون في التاسعة عشرة، يكون الشخص البالغ الثانية والثلاثين طاعناً في السن. لِمَ لا تتزوّج من أخرى؟ لن أقول شيئاً. ربما تزول الهستيريا التي تعاني منها.

راحت تضحك ساخرة من أي شيء أقوله. ثم قالت: إنني سأنام» وأخذت تشخر بطريقة مصطنعة، وبدا لي بعد قليل أنها نامت بالفعل.

حين استيقظت في صباح اليوم التالي، وجدتها جالسة بجوار وسادتي، وهي ترتدي قميص نوم فاضح.

ـ هل أنت على مايرام، يا چوچي؟ لقد تصرّفت تصرّفات حمقاء ليلة أمس، أليس كذلك؟

ـ تعاودني هذه الأيام نوبات هيستيرية، كتلك التي رأيتها أمس. هل أثرت خوفك؟

ـ لقد كان الأمر طريفاً. أريد أن أجعلك تعاني منها مرة أخرى.

ـ إنني بخير الآن. لقد شفيت تماماً. إنه يوم جميل، أليس كذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ نعم. لِمَ لا تنهض من الفراش؟ الساعة تجاوزت العاشرة. لقد استيقظت قبل ساعة، وأخذت حمّام الصباح. وقد جئت لتوّي من الحمّام.

تطلّعت إليها وأنا ما أزال مستلقياً. إن جمال المرأة الحقيقي لا يظهر حين تخرج من الحمّام مباشرة، بل بعد مرور خمس عشرة أو عشرين دقيقة. فبعد الحمّام الساخن، تبدو بشرة أجمل النساء مبقعة لفترة من الوقت، كما تكون أطراف أصابعها حمراء ومنتفخة، ولكن حين يهدأ جسدها، ويعود إلى درجة حرارته الطبيعية، تأخذ بشرتها شكل الشمع المصقول شبه الشفّاف. كانت ناوومي، التي تعرضت للرياح الخارجية، وهي في طريقها بعد أن غادرت الحمّام، في أجمل هيئة. فبشرتها الناعمة، كانت صافية، ناصعة البياض، رغم أنها ما تزال ندية، وكانت المنطقة المحيطة بثدييها، المختبئين تحت ياقة الكيمونو، مظلّلة كألوان المياه الأرجوانية الشاحبة، ووجهها لامعاً، كما لو أن غشاء من الهلام قد كساه. لم يكن هناك جزء ما يزال مبلّلاً في جسدها، ظل حاجباها فقط مبلّلين، انعكست فوقهما، على جبينها، سماء الشتاء الصافية، في لونها الأزرق الفاتح، من خلال النافذة.

ـ لماذا أردت الاستحمام في وقت مبكّر جداً من الصباح؟

ـ ذلك أمر لا يعنيك. آه. إنه شيء رائع.

تحسّست المنطقة المحيطة بأنفها بكلتا يديها. ثم قرّبت فجأة وجهها من عيني، وقالت:

ـ انظر! هل لي شارب؟

ـ نعم.

ـ كان ينبغي أن أمر بمحل التجميل، وأنا في الخارج، لأقلّمه.

ـ لكنك لا تفضلين تقليمه، أليس كذلك؟ ألم تفكّري أن النساء الغربيات لا يحلقن وجوههن مطلقاً؟

ـ الأمر مختلف الآن. إنهن يحلقن وجوههن في أميركا، هذه الأيام. أنظر إلى حاجبي! الأميركيات يحلقن حواجبهن هكذا.

ـ أهذا السبب يبدو وجهك مختلفاً في الفترة الأخيرة؟

ـ هذا صحيح. لكنك لم تلحظ ذلك سوى في وقت متأخّر.

ثم سألتني فجأة:

ـ هل الهستيريا التي تعاودك، قد زالت الآن يا چوچي؟

ـ نعم، لماذا؟

ـ إذا كان الأمر كذلك، أريد أن أطلب منك معروفاً. إنه من الصعب عليّ الذهاب إلى الحلاّق الآن. هل من الممكن أن تحلق لي وجهي؟

ـ تطلبين ذلك حتى تعاودني نوبة هيستيريا أخرى، أليس كذلك؟

ـ لا. إنني أطلب طلباً جاداً. بوسعك أن تقدِّم لي هذا المعروف، أليس كذلك؟ سيكون أمراً حرجاً، بالطبع، إذا ما عاودتك نوبة أخرى، وقد تجرحني.

ـ لِمَ لا تحلقين لنفسك؟ سوف أقرضك آلة حلاقة.

ـ لن أستطيع. فلست أريد أن أحلق وجهي فقط، بل ومؤخّرة عنقي حتى كتفي أيضاً.

ـ ولِمَ كل ذلك؟

ـ حين أرتدي فستان سهرة، تتعرّى كتفاي.

وكشفت عن كتفيها قليلاً، وقالت:

ـ أنظر، سوف أحلق حتى هنا. لا أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي. ثم غطّت كتفيها بسرعة. ورغم أنني أعرف أن هذه مجرّد حيلة، فقد وجدت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من الصعب مقاومة الإغراء. إنها لا تريد أن تحلق وجهها، لقد ذهبت إلى الحمّام، لمجرّد إثارتي. أدركت ذلك تماماً، لكن حلاقة بشرتها ستكون بمثابة تحدٍ جديد تماماً. فاليوم سأستطيع إمعان النظر في بشرتها عن قرب، وسأتمكّن من لمسها. جعلني هذا التفكير أتخلّى عن الرفض.

في الوقت الذي قمت فيه بتدفئة الماء فوق موقد الغاز، ونقله إلى حوض غسيل معدني، واستبدلت الموسى في آلة الحلاقة بأخرى جديدة، نقلت ناوومي الطاولة بالقرب من النافذة، ووضعت مرآة صغيرة فوقها، وجلست على ركبتيها، لتكون مؤخّرتها بين قدميها، ولفّت منشفة بيضاء كبيرة حول رقبتها. استدرت لأصبح خلفها، ورطبت الصابون، وكنت على وشك أن أبدأ الحلاقة، حين قالت لي:

ـ ليس لديّ اعتراض في أن تحلق لي يا چوچي، ولكن بشرط.

ـ شرط؟

ـ نعم. لكنه ليس صعباً.

ـ وما هو؟

ـ لا أريدك أن تستغل هذا كذريعة لأن تلمس أصابعك جسمي. عليك أن تحلق لي من دون أن تلمس بشرتي.

ـ ولكن...

ـ بدون لكن. لا يتعيّن عليك أن تلمسني. بإمكانك استخدام الفرشاة وآلة الحلاقة. في محل التجميل لا يلمس العمّال أية زبونة، إذا كانوا على خلق.

ـ لا أحب أن تشبّهيني بعمّال محل التجميل.

ـ أعرف إلى أي مدى تريد أن تحلق لي. ولكن إذا لم ترغب، فلن أجبرك.

ـ لا يعني الأمـر أنني لا أرغب. أتـركيني أحلق لـك، أرجـوك. لقـد حضّرت كل شيء.

لم يكن ثمـة شيء آخر أقـوله، وأنـا أحـدِّق في شعـر نـاوومي، بعـد أن أبعدت ياقة ثوبها عن رقبتها.

ـ أتقبل شرطي، إذن؟

ـ نعم.

ـ بدون لمس، على الإطلاق.

ـ لن ألمسك.

ـ وإذا لمستني. ولو لمسة طفيفـة، فسوف ألغي العمليـة برمتهـا. والآن، ضع يدك اليسرى في حجرك!

نفذت ما طلبت. ثم بدأت أحلق الشعر الموجود حول فمها، مستخدماً يدي اليمنى فقط.

تـركتني أحلق لها، بينـما ركّزت عينيهـا على المـرآة. بدا لي أنها تستمتـع بالإحساس المثير لحركة الموسى فوق بشرتها. كنت أسمـع تنفّسها الهـاديء، وأحسّ بنبض الشريـان السباتي تحت ذقنهـا. كنت قريبـاً من وجههـا، حتى استشعرت وخز رمـوشها في وجهي. سـطع ضوء الصبـاح في الهواء الجـاف خلف النـافذة، ومن شدة الضوء تمكّنت من عدّ مسام بشرتهـا، واحدة تلو الأخـرى. لم أكن من قبل قـد اقـتربت إلى هـذا الحـد، تحت هـذا الضـوء الساطع، وفي وضع مريح، من ملامح المرأة التي أحبها. كان جمالها رائعاً، عمـلاقاً، اسـتراح فوقي بثقله وجوهره، بـدءاً بعينيها الـرائعتين، وأنفهـا، البارز كمبني فخيم، والخطين المرسومـين بحدة بـين أنفها وفمهـا، وشفتيها الحمراوين المكتنزتين تحت الخطين. هـذا هو الشيء المعجـزة، الذي يسمّى «وجـه ناوومي»، الشيء الـذي تسبّب في إثارة شهـوتي. كان أمـراً غـريبـاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومثيراً للإعجاب أن أفكّر في ذلك. أخذت الفرشاة، ووضعت رغوة من الصابون على سطح هذا الوجه. تحرّكت الفرشاة بنعومة غريبة.

زحف الموسى في يدي على البشرة المنحدرة الناعمة، كحشرة فضية، من مؤخّرة العنق وحتى الكتفين. كان ظهرها بالكامل، الذي يماثل بياض الحليب، عريضاً. هي ترى وجهها، ولكن هل تعرف أن ظهرها جميل هو الآخر؟ من المرجح أنها لا تعرف. أنا أعرفه أفضل من أي شخص آخر. فقد حمّمت هذا الظهر يومياً، ودلكته بالصابون. هذا الظهر معلم من معالم حبي. لقد مرحت يداي وأصابعي فوق هذا الثلج الجميل، بحرية وسعادة، وربما ما زالت هناك إلى الآن بعض آثارها...

قالت ناوومي، على حين غرّة:

ـ يدك تهتزّ، يا چوچي. تماسك!

أدركت أن رأسي يهتزّ، وفمي قد جفّ، وجسمي يرتعش. قلت لنفسي: «لقد جننت». حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أكبح جماح نفسي، فصعد الدم إلى وجهي، ثم هبط.

لكن الأذى الذي سبّبته لي ناوومي لم ينته عند هذا الحد. فحين انتهيت من حلاقة كتفيها، شمّرت عن كميها، ورفعت كوعها، وقالت:

ـ والآن، إبطي.

ـ ماذا؟ إبطاك؟

ـ نعم. يتعينّ على المرأة أن تحلق إبطيها حين ترتدي ثياباً غربية. إنه من غير اللائق أن يظهر شعر الإبطين، أليس كذلك؟

ـ أنت قاسية!

ـ لماذا أنا قاسية؟ يا لك من رجل غريب. أحلق بسرعة، فأنا أشعر بالبرد بعد أن أخذت حمّاماً.

ألقيت، في تلك اللحظة، آلة الحلاقة، وأمسكت بكوعها، فدفعتني، كما لو أنها كانت تتوقّع ذلك. لكن أصابعي لمست موضعاً ما، وانزلقت على الصابون. دفعتني بكل قوتها مرة أخرى نحو الجدار، ونهضت واقفة، ثم صاحت قائلة؟

ـ ماذا تفعل؟

نظرت إلى وجهها، فوجدته غاية في الشحوب، ربما بسبب الشحوب الذي اعترى وجهي، وقلت لها:

ـ لا أريد المزيد من الإثارة يا ناوومي! سأفعل أي شيء تطلبينه مني.

لم تكن لديّ أدنى فكرة عما أقول. ورحت أدمدم بكلمات غير مفهومة. باهتياج شديد، كما لو أنني قد أصبت بحمى. وقفت ناوومي، كعامود، صامتة، لا تطرف لها عين، تحدّق فيّ بدهشة تامة.

ركعت عند قدميها، وقلت لها:

ـ لِمَ لا تردّين عليّ؟ انطقي بأي شيء! وإذا كنت لا تريدين، إذا اقتليني!

ـ مجنون!

ـ هل من الخطأ أن أكون مجنوناً؟

ـ مَن ذلك الذي يرتبط بمجنون؟

ـ إذن اجعليني حصانك! امتطي ظهري كما تعوّدت. افعلي ذلك على الأقل.

ثم جثمت على أطرافي الأربعة.

بدا، اللحظة أنها قد شكّت في أنني قد جننت. وفي تلك اللحظة، شحب وجهها، وارتسمت في عينيها علامات الذعر، وهي تحدّق فيّ. لكنها وثبت بقسوة فوق ظهري، وقد ندت عنها نظرة شجاعة، جسورة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت، وكأنها رجل:

ـ هل ارتحت الآن؟

ـ نعم. لقد فعلت خيراً.

ـ أتنفِّذ كل ما أطلبه منك؟

ـ سأفعل.

ـ هل ستعطيني أي مبلغ أحتاج إليه؟

ـ سأعطيك.

ـ هل ستتركني أفعل كل ما أريد، وتتوقَّف عن وضع أنفك في كل صغيرة؟

ـ سأفعل.

ـ هل ستتوقَّف عن مناداتي «ناوومي» وتناديني بـ «الآنسة ناوومي» بدلاً من ذلك؟

ـ نعم.

ـ متأكِّد من ذلك؟

ـ نعم. متأكِّد.

ـ حسناً. سأعاملك كإنسان، وليس كحصان. أيها الشيء المسكين.

وسرعان ما غطَّانا الصابون...

قلت لها:

ـ . . . أخيراً أصبحنا الآن زوجاً وزوجة، لن أتركك تبتعدين عني مرة أخرى.

ـ هل شعرت بمعاناة كبيرة حين هجرتك؟

ـ نعم. لقد ظننت لفترة أنك لن تعودي.

ـ أرأيت الآن مدى الرعب الذي يمكن أن أسبِّبه لك!

ـ نعم رأيت.

ـ إذن لن تنسى ما قلته لي منذ هنيهة. أليس كذلك؟ سوف تتركني أفعل ما يحلو لي. بوسعك أن تقول «زوجاً وزوجة»، لكني لا أتحمَّل ذلك النوع من الزواج الصارم، المتزمِّت. إنه سيجعلني أتركك مرة أخرى.

ـ سأقول لك «يا آنسة ناوومي» من الآن فصاعداً.

ـ هل ستتركني أذهب إلى المراقص؟

ـ نعم.

ـ سأتعرّف على الكثير من الأصدقاء؟ ولن تشكو كما كنت تفعل من قبل؟

ـ لا، لن أشكو.

ـ مع ذلك فإنني لم أعد أرى ما ـ شان.

ـ هل قطعت علاقتك بكوماچي؟

ـ نعم. إنه شخص كريه. سوف أقضي وقتي، من الآن فصاعداً، مع شباب غربيين. إنهم أكثر مرحاً من اليابانيين.

ـ ذلك الشاب الذي يقيم في يوكوهاما، ويسمى «ماكونيل»؟

لديّ الكثير من الأصدقاء الغربيين. وليس هناك ما يشين في علاقتي مع ماكونيل، تعرف ذلك.

ـ إنني أتساءل فقط...

ـ هذا هو عيبك، إنك دائم الشك. وإذا قلت لك شيئاً، فيجب أن تصدّقني. اتفقنا؟ والآن، هل تصدقني أم لا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أصدّقك!

ـ ثمة أمر آخر. ماذا ستفعل بعد أن تترك الشركة؟

ـ كنت سأعود إلى الريف إذا تخلّيت عني، لكني لا أعرف ماذا سأفعل الآن سوف أصفّي ممتلكاتي في الريف، وسأنقل قيمتها نقداً إلى هنا.

ـ كم ستساوي؟

ـ بإمكاني جمع نحو مائتين أو ثلاثمائة ألف ين.

ـ أهذا كل شيء؟

ـ إنه مبلغ يكفينا نحن الإثنين. أليس كذلك؟

ـ هل بوسعنا أن نعيش في رفاهية وبحبوحة؟

ـ لن يكون الأمر بهذه السهولة. بإمكاننا ذلك، ولكني أخطّط لافتتاح مكتب، لأعمل بشكل مستقل.

ـ لا أريدك أن تضع كل أموالك في عملك. يتعيّن عليك أن تخصّص جزءاً يكون كافياً لكي أعيش في رفاهية. اتفقنا؟

ـ نعم، اتفقنا.

ـ أتخصّص لي نصف المبلغ إذن؟ إذا كان ثلاثمائة ألف، تخصّص لي مائة وخمسين ألفاً، وإذا كان مائتي ألف تخصّص لي مائة ألف؟

ـ لم تتركي شيئاً للصدفة، أليس كذلك؟

ـ بالطبع. فأنا الذي أحدّد الشروط أولاً. اتفقنا؟ أم أنك لست على استعداد للتضحية من أجل أن أصبح زوجتك؟

ـ أنا على استعداد، بطبيعة الحال.

ـ إذا كنت لا ترغب في ذلك، فقل في الحال. فما يزال الوقت مبكراً.

ـ أوافق، أوافق.

ـ ثمة أمر آخر. لم يعد بوسعنا أن نقيم في بيت كهذا. أريد أن أنتقل إلى بيت عصري كبير.

ـ نعم، سوف ننتقل بطبيعة الحال.

ـ أريد أن أقيم في بيت غربي كائن بشارع يقيم فيه الغربيون، بيت به حجرة نوم جميلة، وحجرة طعام، طبَّاخة، وخادم...

ـ أتعتقدين أن هناك بيوتاً كهذه في طوكيو؟

ـ ليس في طوكيو، بل في يوكوهاما. ثمة بيت للإيجار على منحدر في يوكوهاما. لقد ذهبت لرؤيته منذ بضعة أيام.

عندئذ أدركت أنها قد خطَّطت بعناية لكل شيء. وقد وضعت، منذ البداية، خططاً دقيقة، وواصلت إغرائي إلى أن انهرت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٨ -

مرّت ثلاث أو أربع سنوات منذ ذلك الوقت.

* * *

انتقلنا إلى يوكوهاما، واستأجرنا المنزل الغربي، الذي كانت ناوومي قد عثرت عليه بالفعل على الربوة، لكنها شكت، بعد أن تعوّدت أكثر وأكثر على الرفاهية، أن البيت ضيّق، فاشترينا بيتاً في «هوموكو»، كانت تشغله عائلة سويسرية، بكل ما فيه من أثاث وخلافه. وقد أتى حريق، بعد ذلك، على كل شيء في البيت القديم، خلال الزلزال الهائل، لكن معظم الأثاث في «هوموكو» قلت من الحريق، ولم تلحق به أية خسائر، باستثناء بعض التشققات في الجدران. وما نزال نقيم في البيت نفسه الآن.

استقلت من الشركة في «أويماشي»، كما كنت أخطِّط، وصفّيت ممتلكاتي في الريف، وأسّست، مع أصدقاء دراسة سابقين عديدين، شركة محدودة لتصنيع وبيع المعدات الكهربائية. لم أعد بحاجة للذهاب إلى المكتب كل يوم، فأصدقائي يقومون بمعظم العمل الفعلي، في مقابل ما قدّمته من استثمار يعد الأكبر بينهم. ولكن لم تفضّل ناوومي، لسبب ما، بقائي في البيت طوال الوقت، وبالتالي فقد كنت أذهب إلى العمل على مضض كل يوم. أغادر يوكوهاما متوجّهاً إلى طوكيو، في حدود الساعة الحادية عشرة صباحاً، وأبقى في المكتب لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، وأعود من «كيوباشي» في حدود الرابعة عصراً.

كنت قد تعوَّدت على العمل بكد، والاستيقاظ في ساعة مبكرة، لكني لم أعد هذه الأيام أستيقظ قبل الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً. وبمجرّد أن أغادر الفراش، أمشي على أطراف أصابعي، وأنا أرتدي المنامة، إلى باب حجرة ناوومي، وأطرقه بهدوء. تكون أحياناً بين النوم واليقظة، في تلك الساعة فتردّ عليّ بمجرّد همهمة، وأحياناً تكون مستغرقة في النوم، إذ كانت تنام لساعات أطول من تلك التي أنامها. فإذا ردَّت، أدخل الحجرة، وأحييها تحية الصباح. وإن لم ترد، أعود، وأذهب مباشرة إلى المكتب.

لقد كانت فكرة ناوومي أن ننام في حجرتين منفصلتين. فمخدع السيدة، كما قالت، مكان مقدّس، ولا ينبغي، حتى على الزوج، أن يقتحمه بدون إذن. أخذت أكبر حجرة لنفسها، وخصَّصت لي الحجرة الصغيرة المجاورة لها. لم تكن الحجرتان متجاورتين فعلياً. فقد كان يفصل بينهما حمَّام ومرحاض السيّدة، الذي منه يمكن المرور من حجرة إلى أخرى.

كانت ناوومي تظل في الفراش حتى بعد الحادية عشرة، تدخِّن السجائر أو تقرأ الصحيفة. وسيجارتها هي «ديمترينو»، أما صحيفتها فهي «مياكو». كما تقرأ مجلات مثل «كلاسيك» و «فوج». لم تكن تقرأ شيئاً، في الواقع، بل تدرس صور التصميمات والأزياء الغربية. يدخل حجرتها، المفتوحة على الشرق والجنوب، أول شعاع لشمس الصباح. ويمتد ساحل هوموكو تحت شرفتها. ويوجد فراشها في وسط الحجرة، وهو فراش ضخم يتسع لعشرين حشية، إذا تم ترتيبها على الطريقة اليابانية. إنه ليس فراشاً عادياً من النوع الرخيص، بل إنه كان أصلاً ضمن أثاث إحدى السفارات في طوكيو، وله ظُلة، وستائر رقيقة بيضاء. يبدو أن ناوومي كانت تنام باستغراق أكبر منذ أن ابتعناه، وتبقى فيه لفترة أطول مما تعوّدت من قبل.

كما تعوّدت أن تحتسي الشاي والحليب في الفراش، قبل أن تغسل وجهها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الصباح، بينما تعد الخادمة لها الحمّام. تنهض، وتذهب مباشرة إلى الحمّام، ثم تستلقي مرة أخرى لفترة من الوقت، تحصل فيها على قدر من التدليك. بعد ذلك تصفِّف شعرها، تدهن أظافرها، تضع على وجهها العديد من مستحضرات التجميل، وتفكّر في نوع الكيمونو الذي سترتديه. وبحلول الواحدة والنصف تقريباً تصل إلى حجرة الطعام.

ليس هناك أي شيء تفعله عملياً، بعد الغداء، حتى حلول المساء. لكنها دائماً ما تفعل شيئاً في المساء، فإما أن تكون مدعوة لقضاء سهرة في الخارج، أو تدعو أحداً لقضاء سهرة في البيت، أو تذهب إلى أحد الفنادق لترقص. وعندما يحين الوقت، تُعد نفسها مرة أخرى، وتغيِّر الكيمونو. وتنهمك في أشياء عديدة، حينما يكون هناك حفل راقص. إذ تمضي إلى الحمّام، وتستدعي الخادمة لمعاونتها، وتضع الكثير من مستحضرات التجميل في كافة أجزاء جسمها.

كان أصدقاء ناوومي يتغيّرون من وقت لآخر. لم يعد هامادا وكوماچي يتردّدان علينا. وبدا أن «ماكويل» هو صديقها الأثير لفترة من الوقت، ولكن سرعان ما حلّ مكانه رجل يدعى «دوجان». وبعده جاء صديق يسمّى «أوستاس»، الذي كان أكثر بغضاً من «ماكونيل»، لكنه دمث مع ناوومي، ويحاول دائماً تملّقها. ازداد غضبي منه ذات مرة، فلكّمته في حفل راقص، مما أثار صخباً. أخذت ناوومي جانبه وصاحت فيّ قائلة: «مجنون!» أصبت بهياج، وهرعت وراء «أوستاس». فأمسكوا بي، وهم يصيحون: «جورج! جورج!». (اسمي چوچي، لكن الغربيين ينادوني «جورج»). لم يعد أوستاس يتردَّد على البيت بعد ذلك الحادث، لكن ناوومي فرضت شرطاً جديداً عليّ، فاضطررت لقبوله.

لم يكن هناك أصدقاء جدد بعد «أوستاس»، لكني أصبحت مطيعاً للغاية، مما أثار دهشتي. يبدو أنه حين يخوض شخص تجربة مريرة، تصبح

تلك التجربة بمثابة هاجس من الصعب نسيانه. مازلت غير قادر على نسيان اللحظة التي تركتني فيها ناوومي. ويتردَّد صدى كلماتها في أذني، وهي تقول: هل ترى الآن أن بإمكاني أن أكون مخيفة؟ لقد عرفت طوال وجودي معها أنها متقلِّبة المزاج، أنانية، ولو أنها لم تكن كذلك، لفقدت قيمتها. وكلما فكّرت فيها على أنها متقلِّبة المزاج، أنانية، زاد حبي لها، وزاد وقوعي في شركها. أدرك الآن أنني يمكن أن أضيع، إذا ما تملّكني الغضب.

ليس هناك ما يمكن عمله، إذا ما فقد المرء ثقته بنفسه. لم أكن أباري ناوومي في إجادة التحدّث باللغة الإنجليزية. وليس ثمة شك في أنها أجادتها، بعد أن استخدمتها بكثرة، حتى أنها تبدو كامرأة غربية، وهي تنطق الإنجليزية، مما جعلها محبوبة لدى السيّدات والسادة في أي حفل. لا أستطيع غالباً فهم ما تقوله. وأصبحت تجيد النطق، وأحياناً ما تناديني باسم «جورج».

ينتهي سجل زواجنا هنا. وإذا اعتقدتم أن روايتي سخيفة، أرجوكم أن تضحكوا، وإذا اعتقدتم أنها تتضمّن تجربة أخلاقية، فأرجو أن تكون درساً لكم. وبالنسبة لي، فإن رأيكم عني، لن يغيّر من الأمر شيئاً. فأنا أحب ناوومي.

بلغت ناوومي الثالثة والعشرين من عمرها هذا العام، بينما أصبحت أنا في السادسة والثلاثين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مؤسسة الجواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

مكتبة بغداد

هي قصة بسيطة لكنها ذات مغزى كبير. فبطل الرواية وهو مهندس يسمّى «جوجي» يقع في غرام فتاة يابانية صغيرة السن لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، ربما لأن ملامحها (غربية) فيقرِّر تربيتها وتعليمها ليصنع منها امرأة غربية عصرية، وهو النمط الذي يهواه.

ولكن بعد أن شبَّت ناوومي عن الطوق، خرجت عن الخط الذي رسمه لها «جوجي» وتحدّت التقاليد اليابانية بثيابها، وأسلوبها، وسلوكها، بل وراحت ترتمي في أحضان الرجال الغربيين، الذين استهواها أسلوبهم في الحياة لتتحوَّل بالتدريج إلى وحش، ليس باستطاعة أحد السيطرة على تصرفاته.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
لوحة لجويو هاجيغوجي بتصرف

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad